

جامع الجامع



جوامع الجامع

تأليف

أَمِينُ الْإِسْلَامِ أَبِي عَلِيٍّ
الْفَضْلُ بْنُ الْحَسَنِ الطَّبْرَسِيِّ

ت ٥٤٨ هـ

تحقيق

جَوَادُ السَّيِّدِ كَاطِمِ الْحَكِيمِ

المجلد الثاني

سورة الفاتحة - سورة النساء

مراجعته واعتنى بنشره

قسم شؤون الحج والاسلامية والاشيائية



العتبة العباسية المقدسة
قسم شؤون الحج والاسلام والانسانية

WWW.MK.IQ
E.mail: media@mk.iq

الموبايل: ٠٠٩٦٤٧٧١١١٧٣١٠٨

الطبرسي، الفضل بن الحسن بن الفضل، 468-548 هجري
جوامع الجامع / تأليف امين الاسلام ابي علي الفضل بن الحسن الطبرسي ؛ تحقيق جواد السيد
كاظم الحكيم.- الطبعة الأولى.- كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة، قسم شؤون المعارف
الاسلامية والانسانية، ١٤٣٩ هـ. = ٢٠١٧.
٦ مجلد : صور طبق الاصل ؛ ٢٤ سم
يتضمن نبذة مختصرة عن حياة المؤلف.
يتضمن مصادر وكشافات.
١. القرآن--تفاسير الشيعة--القرن ٦ هـ. الف. الحكيم، جواد كاظم--محقق. ب. العنوان.

BP130.4 .T33 2017

مركز الفهرسة ونظم المعلومات

الكتاب: جوامع الجامع
تأليف: أمين الاسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي
تحقيق: جواد السيد كاظم الحكيم
راجعته واعتنى بنشره: قسم شؤون المعارف الاسلامية والانسانية
الطبعة: الأولى
المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع
سنة الطبع: ١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٤٣٢١) لعام ٢٠١٧ م



سورة المائدة

مدينة، وهي مائة وعشرون آية كوفي، ثلاث وعشرون بصري، ﴿بِالْعُقُودِ﴾،
﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، ﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ بصري.
في حديث أبي: ((ومن قرأ (سورة المائدة) أُعطي من الأجر بعدد كل يهودي
ونصراني يتنفس في دار الدنيا عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له
عشر درجات))^(١)، أبو الجارود^(٢) عن الباقر عليه السلام: ((من قرأ (سورة المائدة) في كل
يوم خميس لم يلبس إيمانه بظلم ولا يشرك أبداً))^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ
الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

(١) الكشف والبيان ج ٤: ٥.

(٢) أبو الجارود زياد بن المنذر الهمداني الأعمى، زيدي المذهب وإليه تنسب الزيدية الجارودية،
من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام، له كتاب التفسير. ينظر: معجم رجال الحديث
ج ٧: ٣٢٢.

(٣) ثواب الأعمال: ١٠٥ وفيه: لم يشرك.

وفى بعهدہ وأوفى بمعنى، والعقد: العهد، بمعنى العقود، والعقود: عهود الله التي عقدها على عباده، وألزمها إياهم من الإيمان به وتحليل حلاله وتحريم حرامه، وقيل: هي العقود التي يتعاقد بها الناس من المبايعة والمناكحة وغيرهما^(١).

ثم أخذ سبحانه في تفصيل العقود التي أمر بالوفاء بها فقال: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ وبهيمة: كل ذات أربع من دواب البر والبحر، وإضافتها إلى ﴿الْأَنْعَامِ﴾ للبيان كخاتم فضة، ومعناه: البهيمة من الأنعام.

﴿إِلَّا مَا يَتَنَبَّأُ عَلَيْكُمْ﴾ إلا محرّم ما يتلى عليكم في القرآن من نحو قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ... الْآيَةُ﴾^(٢)، أو إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه.

والأنعام: الأزواج الثمانية، وقيل: بهيمة الأنعام هي الطباء وبقر الوحش ونحوهما^(٣)، كأنهم أرادوا ما يماثل الأنعام ويدانيها من جنس البهائم، فأضيفت إلى الأنعام للملازمة الشبه.

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ أي: أحلت لكم هذه الأشياء لا محلّين الصيد، وقال الأخفش^(٤): (انتصب عن قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾)^(٥).

﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ حال عن ﴿مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ كأنه قيل: أحلّ لكم بعض الأنعام

(١) عن ابن زيد. تفسير الطبري ج ٦: ٣٣.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) معاني القرآن للفراء ج ١: ٢٩٨.

(٤) أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، كان مولى بني مجاشع من أهل بلخ، سكن البصرة، قرأ النحو على سيبويه وكان أسنّ منه، ورد بغداد وأقام بها مدة، له تصانيف كثيرة، مات سنة ٢١٦ هـ، وقيل غير ذلك. ينظر: بغية الوعاة ج ١: ٥٩٠.

(٥) معاني القرآن للأخفش: ٢٧١.

في حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون لئلا يخرج عليكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام، وحُرْم: جمع حرام وهو المحرم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوْا شَعْنِيَرِ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا
الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنْ
رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن
صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ
وَالنَّفَقَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ٢

الشعائر: أعلام الحج وأعماله، جمع شعيرة وهي ما جعل شعاراً وعلماً للنسك
من المواقف والطواف والسعي وغيرها، و﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ شهر الحج.

و﴿الْهَدْيَ﴾ ما أهدي إلى البيت وتقرب به إلى الله من النسائك، وهو جمع
هدية كجدي في جمع جدية السرج.

و﴿الْقَلَائِدَ﴾ جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدى من نعل أو غيره. والآمون:
القاصدون، وآمو البيت الحرام هم الحجاج والعمار.

وإحلال هذه الأشياء: أن يتهاون بحرمتها وتضيع، وأن يحال بينها وبين
المتنسكين، وأن يحدث في شهر الحج ما يصد الناس عن الحج، وأن يتعرض للهدى
بالغضب أو بالمنع من بلوغ محله. وفي إحلال القلائد وجهان:

أحدهما: أن يراد ذوات القلائد من البدن والبقر، وإنما عطف بها على الهدى
للاختصاص وزيادة التوصية بها كأنه قيل: والقلائد منها خصوصاً.

والثاني: أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدى، مبالغة في النهي عن التعرض

للهدى، كأنه قيل: ولا تحلّوا قلائدها فضلاً عن أن تحلّوها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾^(١) نهى عن إبداء الزينة فضلاً عن إبداء مواقعها.

﴿وَلَا آمِينَ﴾ أي: ولا تحلّوا قوماً قاصدين المسجد الحرام.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو الثواب ﴿وَرِضْوَانًا﴾ وأن يرضى عنهم، أي: لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيماً لهم.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ هو إباحة للاصطياد بعد الحظر، كأنه قيل: وإذا حللتكم فلا جناح عليكم أن تصطادوا.

وجرم مثل كسب في تعدّيه إلى مفعول واحد واثنين، تقول: جرم ذنباً وجرّمته ذنباً، وكسب شيئاً وكسبته إياه، وأوّل المفعولين في الآية ضمير المخاطبين، والثاني ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾.

و﴿أَن صَدَّوْكُمْ﴾ بفتح الهمزة متعلّق بالشنآن وهو شدة البغض. وقرئ بسكون النون أيضاً. والمعنى: ولا يكسبنكم بغض قوم الاعتداء، ولا يحملنكم عليه لأن صدّوكم عن المسجد الحرام، وهو منع أهل مكة رسول الله ﷺ والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة. ومعنى الاعتداء: الانتقام منهم بإلحاق المكروه بهم.

﴿وَنَعَاوُئُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالنَّقْوَى﴾ أي: على العفو والإغضاء.

﴿وَلَا نَعَاوُئُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ﴾ على الانتقام والتشقي، والأولى أن يكون محمولاً على العموم، فيتناول كل برّ وتقوى وكل إثم وظلم.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا

مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ
فَسَقُ الْيَوْمَ يَيسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ
الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

كانوا يأكلون هذه المحرّمات: البهيمة التي تموت حتف أنفها، والدم يجعلونه
في المباعر ويشوونه ويقولون: (لم يحرم من فرد له)^(١) أي: فصد له.

﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: رفع الصوت به لغير الله، وهو قولهم: باسم
اللات والعزى عند ذبحه.

﴿وَالْمَنْخِقَةُ﴾ التي خنقت حتى ماتت، أو انخنقت هي بسبب.

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي ضربت حتى ماتت.

﴿وَالْمُتَرَدِّيةُ﴾ التي تردّت من جبل أو في بئر فماتت.

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّيِّعُ﴾ بعضه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي: أدركتم ذكاته وهو يضطرب

اضطراب المذبوح أو تشخب أوداجه، عن الصادق عليه السلام: ((أدنى ما يدرك به الذكاة
أن تدركه يتحرك أذنه أو ذنبه أو تطرف عينه))^(٢).

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يعبدونها

وهي الأوثان، ويذبحون لها وينضحون الدم على ما أقبل منها إلى البيت، ويشرحون

(١) مجمع الأمثال ج ٣: ١١٣.

(٢) الاستبصار ج ٤: ٧٣.

اللحم عليها يعظمونها بذلك، قال الأعشى:

وَذَا النَّصَبِ الْمَنْصُوبِ لَا تَسْكَنُهُ وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهُ فَاعْبُدَا^(١)

وجمعه الأنصاب، وقيل: النصب جمع والواحد نصاب.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ أي: وحرّم عليكم الاستقسام بالقداح، وهي سهام كانت لهم مكتوب على بعضها: أمرني ربّي، وعلى بعضها: نهاني ربّي، وبعضها: غفل. فمعنى الاستقسام بالأزلام: طلب معرفة ما يقسم له مما لم يقسم له بالأزلام. وقيل: هو الميسر، وقسمتهم الجزور على القداح العشرة، فالفدّ له سهم، والتوأم له سهمان، والمسبل له ثلاثة أسهم، والنافس له أربعة أسهم، والجلس له خمسة أسهم، والرقيب له ستة أسهم، والمعلّى له سبعة أسهم، والسفيح والمنيح والوغد لأنصباء لها، وكانوا يدفعون القداح إلى رجل يجيلها، وكان ثمن الجزور على من يخرج له هذه الثلاثة التي لا أنصباء لها، وهو القمار الذي حرّمه الله عزّ وجل^(٢). وقيل: هو الشطرنج والنرد^(٣).

﴿ذَلِكَكُمْ فِسْقٌ﴾ الإشارة إلى الاستقسام أو إلى تناول ما حرّم عليهم.

﴿الْيَوْمَ﴾ لم يرد يوماً بعينه ومعناه الآن.

﴿يَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أن يطلوه وأن ترجعوا محلّلين لهذه المحرّمات، وقيل: يئسوا من دينكم أن يغلبوه، لأنّ الله تعالى وفي بعده من إظهاره على الدين كله.

(١) ديوان الأعشى: ١٠٣ وفيه: الأوثان بدل الشيطان.

(٢) الخصال: ٤٢٠.

(٣) عن سفيان بن وكيع. الكشف والبيان ج ٤: ١٥.

﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾ بعد إظهار الدين وزوال الخوف منهم إذ انقلبوا مغلوبين بعد أن كانوا غالبين ﴿وَأَحْشَوْنِ﴾ وأخلصوا لي الخشية.
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وما تحتاجون إليه في تكليفكم من الحلال والحرام والفرائض والأحكام.

﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، روي عن الباقر والصادق عليهما السلام: ((أنه إنما نزلت بعد أن نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام علماً للأنام يوم غدیر خم عند منصرفه من حجة الوداع، وهو آخر فريضة أنزلها الله تعالى ثم لم ينزل بعدها فريضة))^(١).

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: اخترته لك من بين الأديان، وأذنتكم بأنه الدين المرضي عندي.

واتصل قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ بذكر المحرمات، وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ فسقاً ﴿وما بعده اعتراض أكد به معنى التحريم، لأنَّ تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والإسلام المرضي، والمعنى: فمن اضطر إلى الميتة أو غيرها في مجاعة﴾ ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أي: غير منحرف، نحو قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾^(٢).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذ به بذلك.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ
وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

(١) تفسير العياشي ج ١: ٢٩٣، وينظر: كتاب الغدير ج ١: ٢٣٠ - ٢٣٧.

(٢) البقرة: ١٧٣.

﴿مَآذًا﴾ مبتدأ، و﴿أَحِلَّ هَهُمَ﴾ خبره، أي: أي شيء أحلّ لهم من المطاعم؟ كأنهم حين تلي عليهم المآكل المحرّمة سألوا عما أحلّ لهم منها، ولم يقل: ماذا أحلّ لنا حكاية لما قالوه، لأنّ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ بلفظ الغيبة، وهذا كما تقول: أقسم زيد ليفعلن، ولو قيل: لأفعلن، وأحلّ لنا لجاز.

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ وهو كل ما لم يأت تحريمه في الكتاب والسنة. ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ عطف على ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: وصيد ما علّمتم فحذف المضاف، أو يجعل (ما) شرطية وجوابها ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

والجوارح: هي الكواشب من الكلاب عند أئمة الهدى عليهم السلام، الصادق عليه السلام قال: ((لا تأكل إلا ما ذكيت إلا الكلاب، وكل شيء من السباع تمسك الصيد على نفسها إلا الكلاب المعلّمة فإنّها تمسك على صاحبها، وقال: إذا أرسلت الكلب المعلّم فاذكر اسم الله عليه فهو ذكاته))^(١) وهو أن يقول: بسم الله والله أكبر.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حال من ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ والمكّلب: مؤدب الكلاب ومضريها بالصيد لصاحبها.

و﴿تَعْلَمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية أو استئناف.

﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من علم التكليل، لأنّه إلهام من الله ومكتسب بالعقل، وقيل: مما عرفكم الله أن تعلّموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وانزجاره بزجره، وإمساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه^(٢).

﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند الإرسال، أو إذا أدرتكم ذكاته.

(١) تفسير القمي ج ١: ١٦٢.

(٢) عن السدي. تفسير الطبري ج ٦: ٥٨.

﴿وَأَنفُوا اللَّهَ﴾ فلا تقربوا ما نهاكم عنه.

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ
وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ
مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ
عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

﴿الطَّيِّبُ﴾ تقع على كل مستطاب من الأطعمة إلا ما دلّ الدليل على
تحريمه.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قيل: هو ذبائحهم^(١)، وقال الصادق عليه السلام:
(هو مختص بالحبوب وما لا يحتاج فيه إلى التذكية)^(٢).

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ فلا جناح عليكم أن تطعموهم.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ الحرائر والعفائف، [وإنما خصّهن بعثاً للمؤمنين على أن
يتخيروا لنطفهم، وإلا فغير العفائف]^(٣) يصح نكاحهن، وكذلك الإماء المسلمات.
﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال أصحابنا: هن اللواتي
أسلمن منهن^(٤)، وذلك أن قوماً كانوا يتحرّجون من العقد على من أسلمت
عن كفر، فلذلك أفردن بالذكر، واحتجوا بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعِصَمِ

(١) عن ابن عباس وغيره. تفسير الطبري ج ٦: ٦٦.

(٢) ينظر: الوسائل ج ١٦ باب ٥١ من أبواب الأطعمة والأشربة.

(٣) ساقطة من ج.

(٤) التبيان ج ٣: ٤٤٦.

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ (١) وقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ (٢).

[﴿إِذَا قُمْتُمْوهنَّ أَجُورهنَّ﴾ أي: مهورهن] (٣) ﴿مُحْصِنِينَ﴾ ﴿أَعْفَاءَ﴾ ﴿غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ غير زانين ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ صدائق، والخذن يقع على الذكر والأنثى.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ ومن لم يؤمن من أهل الكتاب ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾. وفي هذا دلالة على أنّ حبوط العمل لا يترتب على ثبوت الثواب، فإنّ الكافر ليس له عمل عليه ثواب.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى
الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ
جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا
صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ مثل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (٤)

في أنّ المراد: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، فعبر عن إرادة الفعل بالفعل، لأنّ الفعل يوجد بالقصد والإرادة، ولأنّ من قام إلى الشيء كان قاصداً له لا محالة، فعبر عن

(١) الممتحنة: ١٠.

(٢) البقرة: ٢٢١.

(٣) ساقطة من أ، ب، ط.

(٤) النحل: ٩٨.

القصد له بالقيام إليه.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وحدّ الوجه من قصاص شعر الرأس إلى محادر شعر الذقن طولاً وما دخل بين الوسطى والإبهام عرضاً.

﴿وَأَيِّدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ والمرفق: ما يرتفق به من اليد أي: يتكأ عليه. لادليل في الآية على دخول المرافق في الغسل، إلا أنّ أكثر الفقهاء ذهبوا إلى وجوب غسل المرافق في الوضوء، وهو مذهب أهل البيت (عليه السلام)، وأجمعت الأمة على أنّ من بدأ في غسل اليدين من المرفقين صح وضوؤه، وأصحابنا يوجبونه (٢).

﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ المراد إلصاق المسح بالرأس، وأصحابنا يوجبون أقل ما يقع عليه اسم المسح (٣)، وهذا مذهب الشافعي (٤).

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قرئ: بالجر والنصب، فالجر للعطف على اللفظ، والنصب للعطف على محلّ الجار والمجرور.

وقال جار الله: لما كانت الأرجل مظنة للإسراف المذموم في صب الماء عليها، فعطف على الممسوح لا لتمسح، لكن لينبّه على وجوب الاقتصاد في صبّ الماء عليها. وقيل: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فجيء بالغاية إمطة لظن ظان يحسبها ممسوحة، لأنّ المسح لم يضرب له غاية في الشريعة (٥).

وهذا كلام فاسد، لأنّ حقيقة العطف تقتضي أن يكون المعطوف في حكم

(١) ينظر: الوسائل ج ١ باب ١٥ من أبواب الوضوء.

(٢) المهذب ج ١: ٤٣، وينظر: الناصريات: ١١٨.

(٣) الخلاف ج ١: ٨٣، المهذب ج ١: ٤٤.

(٤) كتاب الأم ج ١: ٢٢.

(٥) الكشف ج ١: ٦١١.

١٦ جوامع الجامع / ج ٢

المعطوف عليه، وكيف يكون المسح في معنى الغسل؟! وفائدة اللفظين مختلفة، ولفظ التنزيل قد فرق بين الأعضاء المغسولة والأعضاء الممسوحة. وأما قوله: (لم يضرب للمسح غاية) فمما لا يخفى فساد، لأنَّ ضرب الغاية لا يدلُّ على الغسل، فلو صرح فقل: (وامسحوا بأرجلكم إلى الكعبين) لم يكن منكراً ولم يشك أحد في أنَّه كان يجب المسح إلى الكعبين، فكذلك إذا جعل في حكم الممسوح بالعطف عليه، وقد بسطنا الكلام فيه في كتاب مجمع البيان^(١)، ولا يحتمل هذا الكتاب أكثر مما ذكرناه. والكعبان عندنا هما العظامان الناتئان في القدمين عند معقد الشراك^(٢)، وإليه ذهب محمد بن الحسن^(٣).

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ أي: تطهروا بالاغتسال.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ في باب الطهارة حتى لا يرخص لكم في التيمم.

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء.

﴿وَلِيُتِمَّ﴾ برخصته إنعامه ﴿عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته عليكم.

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْلَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ



(١) مجمع البيان ج ٣-٤: ١٦٤-١٦٧.

(٢) الانتصار: ١١٥.

(٣) المبسوط للسرخسي ج ١: ٩، وهو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني بالولاء، ولد بواسط سنة ١٣١ هـ ونشأ بالكوفة، فسمع من أبي حنيفة وغلب عليه مذهبه وعرف به، توفي بالري سنة ١٨٩ هـ. ينظر وفيات الأعيان ج ٣: ٣٢٤.

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ
 أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
 ٨ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١٠

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وهي نعمة الإسلام.

﴿وَمِيثَقُهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ أي: عاقدكم به عقداً وثيقاً، وهو الميثاق الذي أخذه عليكم رسول الله ﷺ حين بايعهم على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر فقبلوا وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وقيل: هو ما بين لهم في حجة الوداع من تحريم المحرمات وفرض الولاية وغير ذلك عن الباقر (عليه السلام).

وعدي ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ لأنه في معنى: ولا يحملنكم بغضكم للمشركين ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي: تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم، وتتشفوا ما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثله أو قتل أولاد أو نساء أو غير ذلك.

﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ نهاهم أولاً عن ترك العدل، ثم صرح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً، ثم ذكر لهم وجه الأمر بالعدل بقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أقرب إلى التقوى لكونه لطفاً فيها. وإذا كان العدل إلى الكفار بهذه الصفة من القوة، فكيف يكون مع المؤمنين!.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بيان للوعد بعد تمام الكلام قبله، كأنه قدم

لهم وعداً فقليل: أي شيء هو؟ فقال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾.

وأجرى ﴿وَعَدَ﴾ مجرى (قال) لأنه ضرب من القول.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ
قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

روي: أن رسول الله ﷺ أتى بني النضير مع جماعة من أصحابه يستقرضهم
دية رجلين أصابهما رجل من أصحابه وهما في أمان منه فلزمه ديتهما، أو يستعينهم
على ذلك، فقالوا: نعم، اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تسأل، وهما بالفتك به،
فأخبره جبرئيل فخرج، وكان إحدى معجزاته ﷺ (١).

يقال: بسط إليه كفه إذا بطش به، ومعنى بسط اليد: مدها إلى المبطوش به،

والكف: المنع.

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ
اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ
الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ
وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ
بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾

أمر الله بني إسرائيل بعد هلاك فرعون بمصر بأن يسيروا إلى أريحا من أرض
الشام - وكان يسكنها الجبابرة - وقال: إِنِّي كَتَبْتُهَا لَكُمْ قَرَارًا، وأمر موسى بأن يأخذ

من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به من الخروج إلى الجبابة والجهاد وقائداً ورئيساً لهم، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتكفل لهم به النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرضهم بعث النقباء يتجسسون، فأروا أجراماً عظيمة وقوة، فرجعوا فأخبروا موسى عليه السلام بذلك، فأمرهم أن يكتموا ذلك، فحدثوا بذلك قومهم إلا كالب بن يوفنا من سبط يهودا، ويوشع بن نون من سبط افرائيم بن يوسف وكانا من النقباء، وقيل: كتّم خمسة وأظهر الباقون. والنقيب: الذي ينقب عن أحوال القوم، أي: يفتش عنها، كما قيل: عريف لأنه يتعرفها.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: ناصركم ومعينكم.

﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ نصرتموهم ومنعتموهم من أيدي العدو، ومنه التعزيز وهو التنكيل والمنع من معاودة الفساد.

وقيل: معناه: ولقد أخذنا ميثاقهم بالإيمان والعدل وبعثنا منهم اثني عشر ملكاً يقيمون فيهم العدل.

واللام في ﴿لَيْنَ أَقَمْتُمْ﴾ موطئة للقسم، وفي ﴿لَأَكْفِرَنَّ﴾ جواب القسم سادّ مسدّد جواب القسم والشرط جميعاً.

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ أي: بعد أخذ الميثاق وبعث النقباء.

﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ أي: أخطأ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وزال عن قصد الطريق

الواضح، لأنّ النعمة كلما عظمت وزادت كثرت المذمة في كفرانها وتمادت.

فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا

إِنَّا نَصْرِيْكَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ
فَاعْرِضْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ
يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

﴿لَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدناهم من رحمتنا وطردهم.

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ خذلناهم ومنعناهم الألفاف حتى قست
قلوبهم، والقسوة: خلاف اللين والرقه، وقرئ: قَسِيَّةً، أي: رديّة مغشوشة.
﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ بيان لقسوة قلوبهم، فإنّ تغيير كلام الله والكذب
عليه من القسوة.

﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ وتركوا نصيباً وافياً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ في التوراة، يعني:
إنّ إعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم، أو يكون المعنى: فسدت قلوبهم
فحرّفوا التوراة وذهبت أشياء منها عن حفظهم. وعن ابن مسعود: (قد ينسى المرء
بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية)^(١).

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي: خيانة منهم، أو على نفس أو فرقة
خائنة منهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا منهم، وقيل: إلا قليلاً داموا على عهدهم.
﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ ماداموا على عهدك ولم يخونوك.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيْكَ﴾ سمّوا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة
الله، وهم الذين قالوا لعيسى ﷺ: نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعده نسطورية^(٢)

(١) سنن الدارمي ج ١: ١٠٥ بالمعنى.

(٢) النسطورية: هم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمن المأمون وتصرف في الأناجيل بحكم
رأيه. ينظر: أقوالهم في الملل والنحل ج ٢: ٤٤.

ويعقوبية^(١) وملكانية^(٢) فصاروا أنصاراً للشيطان.

﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ فألصقنا وألزمنا من غري بالشيء: إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره.

﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين فرق النصارى المختلفين، وقيل: بينهم وبين اليهود^(٣)، ونحوه: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾^(٤).

يَتَاهَلُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ
كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا
عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ
السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

خاطب اليهود والنصارى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ.

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ﴾ من أمر الرجم وأشياء
حرّفتوها ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يبيّنه، وعن الحسن: (ويعفو
عن كثير منكم لا يؤاخذة)^(٥).

(١) اليعقوبية: هم أصحاب يعقوب قالوا بالاقانيم الثلاثة، وقالوا انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح. ينظر: أقوالهم في الملل والنحل ج ٢: ٤٨.

(٢) الملكانية: هم أصحاب ملكا الذي ظهر بالروم واستولى عليها، ومعظم الروم ملكانية وهم الذين قالوا بالتثليث. ينظر: أقوالهم في الملل والنحل ج ٢: ٣٩.

(٣) عن مجاهد وغيره. تفسير الطبري ج ٦: ١٠٢.

(٤) الأنعام: ٦٥.

(٥) الكشف ج ١: ٦١٧.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ وهو محمد ﷺ يهتدي به الخلق كما يهتدي بالنور، وقيل: هو القرآن لكشفه ظلمات الشك والشك^(١).
﴿وَكُتِبَ مُبِينٌ﴾ يبين ما كان خافياً على الناس من الحق، أو مبين ظاهر الإعجاز.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ يريد من آمن منهم.
﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي: طرق النجاة من عذاب الله، أو سبل الله وهي شرائع الإسلام.
﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الْكُفْرِ﴾ إلى الإيمان ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بلطفه ويرشدهم إلى طريق الحق أو طريق الجنة.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

كفرهم الله تعالى بهذا القول، قيل: كان في النصارى قوم يبتون القول بأن الله هو المسيح، وقيل: كأن مذهبهم يؤدي إلى ذلك وإن لم يصرحوا به من حيث

(١) عن الجبائي. التبيان ج ٣: ٤٧٥.

اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم.

﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فمن يمنع من قدرته ومشيته شيئاً.

﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ﴾ من دعوه إلهاً من المسيح وأمه. وعطف ﴿مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ على ﴿الْمَسِيحِ﴾ ﴿وَأُمِّهِ﴾ ليدل على أنهما من جنسهم لا تفاوت في البشرية بينهما وبينهم.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من ذكر وأنثى، وما يشاء من أنثى من غير ذكر كما خلق عيسى، وما يشاء من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم.

﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ﴾ أي: أشياع ابني الله عزير والمسيح، كما يقول أقرباء الملك: نحن الملوك.

﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي: فإن صح أنكم أبناء الله وأحبّاءه، فلم تذبون وتعذبون بذنوبكم فتمسخون؟!، ولو كنتم أبناء الله لكنتم من جنس الأب لا تعصون الله، ولو كنتم أحبّاءه لما عاقبكم.

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ من جملة من ﴿خَلَقَ﴾ من البشر.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

المعنى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الدين والشرع، أو يبين لكم ما كنتم تخفونه، أو يبذل لكم البيان على الإطلاق. ومحله النصب أي: مبيناً لكم.

﴿عَلَى فَتْرَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿جَاءَكُمْ﴾ أي: جاءكم على حين فترة من إرسال الرسل وانقطاع من الوحي.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ﴾ بالثواب ﴿وَلَا نَذِيرٍ﴾ بالعقاب.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ متعلق بمحذوف، أي: لا تعتذروا فقد جاءكم.

قالوا: كان بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما خمسمائة وستون سنة^(١)، وقيل: ستائة سنة^(٢)، وعن الكلبي^(٣): كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي، وبين عيسى ومحمد أربعة أنبياء: ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب وهو خالد بن سنان العبيسي^(٤).

ومعنى الآية: الامتنان عليهم بإرسال الرسول إليهم بعد اندراس آثار الوحي أحوج ما يكونون إليه ليعدّوه أعظم نعمة من الله.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا
مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُومُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ
لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ
إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن
يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾

(١) عن قتادة برواية معمر. تفسير الطبري ج ٦: ١٠٧.

(٢) عن أبي عثمان النهدي. معالم التنزيل ج ١: ٢٧٧.

(٣) أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي، صاحب التفسير وعلم النسب، كان إماماً في هذين العلمين، توفي سنة ١٤٦ هـ بالكوفة. ينظر: وفيات الأعيان ج ٣: ٤٣٦، معجم رجال الحديث ج ١٧: ١١٤.

(٤) الكشف ج ١: ٦١٩.

لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء، وذلك من نعم الله تعالى عليهم وآلائه لديهم.

﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ لأن الله سبحانه ملكهم ملك فرعون وملك الجبابة، وقيل: إنهم كانوا مملوكين في أيدي القبط، فسمى الله سبحانه إنقاذهم منهم ملكاً^(١).
﴿وَأَتَيْنَكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ من فلق البحر وتظليل الغمام وغير ذلك من الأمور العظام، وقيل: أراد عالمي زمانهم^(٢).

﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أرض بيت المقدس، وقيل: فلسطين ودمشق وبعض الأردن^(٣)، وقيل: الشام^(٤). وكان بيت المقدس مستقر الأنبياء ومسكن المؤمنين.
﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: قسمها لكم، أو خطها في اللوح المحفوظ أنها لكم.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا تنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابة جنباً، أو لا ترتدوا على أدباركم في دينكم بعصيانكم نبيكم ومخالفتكم أمر ربكم، فترجعوا ﴿خَسِرِينَ﴾ ثواب الدنيا والآخرة.
والجبار فعال من جبره على الأمر بمعنى أجبره، وهو الذي يجبر الناس على ما يريد.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا

(١) عن السدي. تفسير الطبري ج ٦: ١٠٩.

(٢) عن ابن عباس وغيره. تفسير الطبري ج ٦: ١٠٩.

(٣) عن الكلبي. معالم التنزيل ج ١: ٢٧٧.

(٤) عن قتادة. تفسير الطبري ج ٦: ١١٠.

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا
دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ
﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

الرجلان: كالب ويوشع.

أي: ﴿يَخَافُونَ﴾ الله ويخشونه كأنه قال: رجلان من المتقين، وقيل: الواو
لبنى إسرائيل أي: ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ يخافونهم وهم الجبارون، وكانا منهم على دين
موسى لما بلغهما خبر موسى أتياه فاتبعاه^(١).

﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان، وكان سعيد بن جبير يقرأ: يُخَافُونَ - بضم الياء،
قالا لهم: إِنَّ الْعِمَالِقَةَ أَجْسَامٌ لَا قُلُوبَ فِيهَا، فلا تخافوهم وازحفوا إليهم فإنكم غالبوهم،
ويجوز أن يكون ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ في محل رفع وصفاً لـ ﴿رَجُلَانِ﴾، ويجوز أن يكون
اعتراضاً لا محل له من الإعراب.

﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ يعني باب قريتهم.

قالوا ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا﴾ نفى لدخولهم في المستقبل على سبيل التأكيد، و﴿أَبَدًا﴾
تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطول، و﴿مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ بيان للأبد.
﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا﴾ هذه استهانة منهم بالله ورسوله وقلة
مبالاة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾ لنصرة دينك ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ هذه شكاية منه

(١) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ٦: ١١٤.

إلى الله تعالى بحزن ورقة قلب.

وذكر في إعراب ﴿وَأَخِي﴾ وجوه: أن يكون منصوباً معطوفاً على ﴿نَفْسِي﴾، وعلى الضمير في ﴿إِنِّي﴾ بمعنى: وإن أخي لا يملك إلا نفسه؛ وأن يكون مرفوعاً عطفاً على محل (إن) واسمها، كأنه قيل: أنا لا أملك إلا نفسي وهارون كذلك لا يملك إلا نفسه، وعلى الضمير في ﴿لَا أَمْلِكُ﴾ وجاز للفصل؛ وأن يكون مجروراً عطفاً على الضمير في ﴿نَفْسِي﴾ وهو ضعيف.

﴿فَأَفَرَّقْ﴾ أي: فافصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحقّ وتحكم عليهم بما يستحقّون، وهو في معنى الدعاء عليهم.

﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: فإن الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونه ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾. فقد روي: أن موسى سار بمن بقي من بني إسرائيل - وكان يوشع على مقدمته - ففتح أريحا وأقام فيها ما شاء الله ثم قبض، وقيل: مات موسى في التيه، ومات هارون قبله بسنة، وسار يوشع بهم إلى أريحا، وقيل: لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال: ﴿إِنَّا لَنَدْخُلُهَا﴾ وهلكوا في التيه، ونشأت ذراريهم فقاتلوا الجبارين ودخلوها، فيكون التقدير: كتب الله لكم الأرض المقدسة بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبوا الجهاد قيل: فإنها محرمة عليهم، فالعامل في الظرف ﴿يَتِيَهُوتْ﴾.

﴿يَتِيَهُوتْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يسرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً، والتيه: المفازة التي يتاه فيها. فروي: أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فرائخ يسرون كل يوم جادين حتى إذا أمسوا كانوا بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يظللهم من حر الشمس، ويطلع لهم بالليل عمود من نور يضيء لهم، وينزل عليهم المن والسلوى، ولا تطول شعورهم، وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر،

يطول بطوله.

واختلف في موسى وهارون هل كانا معهم في التيه؟ فقيل: لم يكونا معهم لقوله: ﴿فَأَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، وقيل: كانا معهم إلا أنه كان ذلك روحاً لهما وسلاماً لا عقوبة كالنار لإبراهيم^(١).

﴿فَلَا تَأْسَ﴾ فلا تحزن عليهم فإنهم أحقّاء بالعذاب، لأنّه ندم على الدعاء عليهم.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾

ابنا آدم هما: هابيل وقابيل.

أوحى الله تعالى إلى آدم أن يزوّج كل واحد منهما توأمة الآخر، وكانت توأمة قابيل أجمل، فحسد عليها أخاه وأبى ذلك، فقال لهما آدم: قربا قرباناً فمن أيكما قبل زوّجها، فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل حسداً وسخطاً وتوعدّه بالقتل.

أي: اتل نبأهما تلاوة ملتبسة بالحق والصدق موافقاً لما في كتب الأولين، أو اتل عليهم وأنت محقّ صادق ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ نصب بالنبأ أي: قصتهما في ذلك الوقت،

(١) ينظر: الأقوال والقصة في تاريخ الطبري ج ١: ٢٢٢ - ٢٢٧.

ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿بَنَاءً﴾ أي: نبأ ذلك الوقت على تقدير حذف المضاف.
والقربان: اسم ما يتقرب به إلى الله تعالى، يقال: قرب نسكاً وتقرب به.
﴿قَالَ لَا قُتْلَنَّكَ﴾ أي: قال الذي لم يتقبل قربانه منها للذي تقبل قربانه:
لأقتلنك.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ كأنه قال له: لم تقتلني؟ قال: لأنه تقبل منك ولم يتقبل مني، فقال: إنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخك من لباس التقوى لا من قبلي فلم تقتلني؟ وفيه دليل على أن الله تعالى إنما يقبل الطاعة ممن هو زاكي القلب متق.

﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ لأن إرادة القتل قبيحة، وإنها يحسن من المظلوم قتل الظالم على وجه المدافعة له طلباً للتخلص من غير أن يقصد إلى قتله، فكأنه قال: لئن ظلمتني لم أظلمك.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ﴾ معناه: أن تحتل إثم قتلي لك وإثم قتلك لي، والمراد بمثل إثمي على الاتساع، فكأنه قال: أريد أن تبوء بمثل إثمي لو بسطت إليك يدي، وقيل: إن المعنى: إني أريد أن تبوء بإثم قتلي وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي: فوسَّعته له ويسرته، من طاع له المرتع: إذا اتسع، أي: زينت له وشجَّعته عليه.

﴿فَقَتَلَهُ﴾ وقيل: إنه كان أول قتيل في الناس.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ خسر الدنيا والآخرة وذهب عنه خيرهما.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ
أَخِيهِ قَالَ يَتَوَلَّى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ
سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

روي: أنه لما قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، فقصده السباع فحمله في جراب على ظهره حتى أروح، وعكفت عليه الطير والسباع ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ﴾ غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر له بمنقاره ورجليه ثم ألماه في الحفرة، فقال ﴿يَتَوَلَّى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾^(١).

﴿لِيُرِيَهُ﴾ الله أو ليريه الغراب أي: ليعلمه، ولما كان سبب تعليمه فكأنه قصد تعليمه، والسوءة: ما لا يجوز أن ينكشف من الجسد، وأصلها الفضيحة فكني بها عن العورة.

﴿فَأُورِيَ﴾ جواب الاستفهام.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتله، لما تعب فيه من حمله على ظهره وتخييره في أمره وسخط أبيه ولم يندم ندم التائبين. وروي أنه لما قتله اسودّ جسده وكان أبيض، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: بل قتلته، ولذلك اسودّ جلدك.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا
بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ
جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بسبب ذلك وبعثته، وأصله من أجل عليهم شراً، أي: جناه، فإذا قلت: من أجلك فعلت [كذا، فكأنك أردت من أن جنيت فعله وأوجبتك فعلت] ^(١)، ويدل عليه قولهم: من جراك.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القتل المذكور، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، أي: من ابتداء ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ من أجل ذلك، وقرئ: من أجل ذلك - بكسر الهمزة - ثم خففت الهمزة وكسرت النون بإلقاء كسرة الهمزة عليها.

﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتل نفس بمعنى بغير قود. ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [أو بغير فساد في الأرض] ^(٢) وهو الحرب لله ورسوله وإخافة السبل.

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: فكأنه قصد لقتلهم جميعاً إذ قتل أخاهم، وصار الناس كلهم خصماءه في قتل تلك النفس. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بأن استنقذها من غرق أو حرق أو هدم ونحوها، أو أخرجها من ضلال إلى هدى.

﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ يأجره الله على ذلك أجر من أحياهم بأسرهم، لأنه في إسدائه المعروف إليهم بإحيائه أخاهم المؤمن بمنزلة من أحيا كل واحد منهم.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما كتبنا عليهم ﴿فِي الْأَرْضِ لِمُسْرِفُونَ﴾ في القتل لا يبالون به.

(١) ساقطة من ج.

(٢) ساقطة من ج.

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

لفظة ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد إنَّ المعنى: ما جزاؤهم إلا هذا.

﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ أي: أولياء الله كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾^(١).

﴿وَرَسُولَهُ﴾ أي: ويحاربون رسوله، ومحاربة المسلمين في حكم محاربته.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: مفسدين، أو لأنَّ سعيهم في الأرض لما كان على طريق الفساد، نزل منزلة أن يقال: ويفسدون في الأرض فساداً، ويجوز أن يكون مفعولاً له أي: للفساد. وروي عن أئمتنا عليهم السلام: ((إنَّ المحارب كل من شهر السلاح وأخاف الطريق، وجزاؤه على قدر استحقاقه: فإن جمع بين القتل وأخذ المال فجزاؤه أن يقتل ويصلب، وإن أفرد القتل فجزاؤه أن يقتل، وإن أفرد أخذ المال فجزاؤه أن تقطع يده لأخذ المال ورجله لإخافة السبيل، ومن أفرد الإخافة نفى من الأرض))^(٢).

وقوله: ﴿مِّنْ خَلْفٍ﴾ معناه اليد اليمنى والرجل اليسرى. والنفي هو أن

ينفى من بلد إلى بلد إلى بلد إلى أن يتوب ويرجع.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكرناه.

(١) الأحزاب: ٥٧.

(٢) ينظر: الوسائل ج ١٨ باب ١ من أبواب حدِّ المحارب.

﴿لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: فضيحة وهوان.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يدلّ على أنّ الحدود لا تكفر المعاصي، لأنّه بين أنّهم يستحقّون العذاب العظيم مع إقامة الحدود عليهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء من المعاقبين، فأما حكم القتل والجرح وأخذ المال فإلى الأولياء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ
وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ
لَيَقْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ
مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

﴿الْوَسِيلَةَ﴾ كل ما يتوسل به إليه من الطاعات وترك المقبحات. وعن النبي ﷺ: ((سلوا الله لي الوسيلة، فإنّها درجة في الجنّة لا ينالها إلا عبد واحد أرجو أن أكون أنا هو))^(١)، وروى الأصبغ بن نباتة^(٢) عن علي عليه السلام: ((في الجنّة لؤلؤتان إلى بطنان العرش: إحداهما بيضاء والأخرى صفراء، في كل واحدة منهما سبعون ألف غرفة، فالبيضاء: الوسيلة لمحمّد ﷺ وأهل بيته، والصفراء: لإبراهيم وأهل بيته))^(٣).

(١) صحيح مسلم ج ٢: ٤.

(٢) الأصبغ بن نباتة المجاشعي، كان من خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وعمر بعده. معجم رجال الحديث ج ٣: ٢١٣.

(٣) الكشف والبيان ج ٤: ٥٩.

﴿لِيَقْتَدُوا بِهِ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم، وهذا تمثيل لنزول العذاب بهم، وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه بوجه، و﴿لَوْ﴾ مع ما في حيزه خبر ﴿إِنَّ﴾، ووحد الضمير في ﴿بِهِ﴾ مع أن المذكور شيان، لأنه أجري مجرى اسم الإشارة، أي: ليفتدوا بذلك، أو يكون نحو قوله:

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ^(١)

ويروى أن نافع بن الأزرق^(٢) قال لابن عباس: (تزعم أن قوماً يخرجون من النار وقال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾؟! فقال: ويحك اقرأ ما فوقها، هذا للكفار)^(٣).

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ
فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَعْفِرُ لِمَن
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

هما مرفوعان على الابتداء والخبر محذوف، كأنه قيل: وفيما فرض عليكم: ﴿وَالسَّارِقَةُ﴾ أي: حكمهما، ويجوز أن يكون الخبر ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، ودخلت الفاء لأنهما قد تضمننا معنى الشرط، فإن المعنى: والذي سرق والتي

(١) البيت لضابئ بن حارث البرجمي. الاصمعيات: ١٨٤، وصدرة: ومن يك امسى بالمدينة رحله.

(٢) نافع بن الأزرق الحنفي، كان من زعماء الخوارج وكان مسجوناً في سجن ابن زياد ثم أطلقه، وغلب على الأهواز، قتل يوم دولا ب سنة ٦٥ هـ. ينظر: أنساب الأشراف ج ٧: ١٤٣.

(٣) تفسير الطبري ج ٦: ١٤٧.

سُرقت فاقطعوا أيديهما أي: يديهما، ونحوه: ﴿فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾^(١)، اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف. والمراد باليدين اليمينان، بدليل قراءة عبد الله بن مسعود: والسارقون والسارقات فاقطعوا أيماهم.

والمقدار الذي يجب به القطع ربع دينار إذا سرق من الحرز، وإليه ذهب الشافعي^(٢) ومالك^(٣)، إلا أن المقطع عندهم هو الرسغ، وعندنا: أصول الأصابع ويترك الإبهام والكف، وفي المرة الثانية تقطع رجله اليسرى من أصل الساق ويترك عقبه يعتمد عليها في الصلاة، فإن سرق بعد ذلك خلد في السجن، هذا هو المشهور من مذهب علي عليه السلام^(٤).

وقوله: ﴿جَزَاءٌ﴾ مفعول له وكذا قوله: ﴿نَكَالًا﴾.

﴿فَن تَابَ﴾ من السراق.

﴿مَنْ بَعْدَ ظَلْمِهِ﴾ أي: سرقته.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمره بالتفصي عن التبعات.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ ويسقط عنه عقاب الآخرة.

يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ
مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ
الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ

(١) التحريم: ٤.

(٢) كتاب الأم ج ٦: ١٣٤.

(٣) موطأ مالك ج ٢: ١٧٣.

(٤) ينظر: الوسائل ج ١٨ باب ٥ من أبواب حد السرقة.

ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ
إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ
فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ
يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

وقرى: لا يُحْزِنُكَ - بضم الياء - أي: لا يهَمُّكَ مسارعة المنافقين.

﴿الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي﴾ إظهار ﴿الْكُفْرِ﴾ بما يلوح من حالهم من آثار
الكيد للإسلام.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: ومن اليهود قوم ﴿سَمْعُونَ﴾، فيكون
منقطعاً عما قبله، ويجوز أن يكون عطفاً على قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وارتفع
﴿سَمْعُونَ﴾ على (هم سماعون)، والضمير للمنافقين واليهود، أو لليهود.

ومعنى ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾: قابلون لما يفتريه الأخبار من الكذب
على الله وتحريف التوراة، ونحوه: سمع الله لمن حمده.

﴿سَمْعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ يعني: اليهود الذين لم يصلوا إلى
مجلس رسول الله ﷺ لشدة عداوتهم إيّاه، أي: قابلون من الأخبار ومن أولئك
المفرطين في العداوة. وقيل: معناه: سماعون إليك ليكذبوا عليك، بأن يزيدوا
فيما سمعوا منك وينقصوا ويغيّروا، سماعون منك لأجل قوم آخرين من اليهود
وجّهوهم عيوناً ليلبغوهم ما سمعوا منك^(١).

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ يميلونه ويزيلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيهملونه

بغير مواضع [بعد أن كان ذا مواضع.

﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيئَتُمْ هَذَا﴾ المحرّف المزال عن مواضعه^(١).

﴿فَحَذُّوهُ﴾ واعملوا به.

﴿وإن لم تؤتوه﴾ أي: إن أفتاكم محمد بخلافه ﴿فأحذروا﴾ فهو الباطل.

وروي: إن شريفاً من خير زنى بشريفة وهما محصنان، وحدّهما الرجم في التوراة، فكرهوا رجمها لشرفهما، فبعثوا نفرًا منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، وقالوا: إن أمركم بالجلد فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا، وأرسلوا الزانيين معهم. فأمرهم بالرجم، فأبوا أن يأخذوا به، فقال له جبرئيل: اجعل بينك وبينهم ابن سوريا، فقال: هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فذك يقال له: ابن سوريا؟ قالوا: نعم، وهو أعلم يهودي على وجه الأرض، ورضوا به حكماً، فقال له رسول الله: أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر ورفع فوقكم الطور وأنزل عليكم كتابه، هل تجدون فيه الرجم على من أحصن؟ قال: نعم. فوثبت عليه سفلة اليهود، فقال: خفت إن كذبت أنه ينزل علينا العذاب، ثم سأل رسول الله عن أشياء كان يعرفها من أعلامه وأسلم، وقال: أشهد أنك رسول الله النبي المبشر به. وأمر رسول الله بالزانيين فرجما عند باب مسجده^(٢).

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ أي: تركه مفتوناً وخذلانه.

﴿فَلَنْ تَمْلِكَ﴾ أي: فلن تستطيع ﴿لَهُ﴾ من لطف ﴿اللَّهُ شَيْئًا أُولَئِكَ﴾

الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَمُنَحْهُمْ مِنْ أَلْفَاةٍ مَا يُطَهَّرُ ﴿بِهِ قُلُوبُهُمْ﴾ لأنهم ليسوا من أهلها لعلمه أنها لا تنجع فيهم.

(١) ساقطة من ج.

(٢) الكشف والبيان ج ٤: ٦٣.

سَمِعُوا لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

السحت: كل ما لا يحل كسبه، وهو من سحته: إذا استأصله، لأنه مسحوت البركة، كما قال: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾^(١)، وقرئ: السحت مخففاً ومثقلاً. وفي الحديث: ((كل لحم نبت على السحت فالنار أولى به))^(٢).

وكان رسول الله ﷺ إذا تحاكم إليه أهل الكتاب خيراً بين أن يحكم بينهم وبين أن لا يحكم. وهذا التخيير عندنا ثابت للأئمة في الشرع^(٣).

﴿وَإِنْ تُعْرِضْ﴾ عن الحكم بينهم.

﴿فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدرُونَ على إضرار بك في دين أو دنيا.

﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل كما حكم ﷺ بالرجم.

(١) البقرة: ٢٧٦.

(٢) معجم الطبراني الأوسط ج ٤: ٣٧٨.

(٣) التبيان ج ٣: ٥٢٤.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أن الحكم منصوص عليه في كتابهم.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ وهو إشارة إلى حكم الله في التوراة، ويتركون الحكم به، وقيل: ثم يتولون من بعد^(١) تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم لا يرضون به.

﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بكتابتهم كما يدعون.

﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدي للحق والعدل ﴿وَنُورٌ﴾ يبين ما استبهم من الأحكام. ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ صفة للنبيين على سبيل المدح، وفيه تعريض باليهود وأنهم بعداء عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء كلهم قديماً وحديثاً، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ يدل على ذلك.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي: والزهاد والعلماء من ولد هارون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود.

﴿بِمَا أَسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ بما سألهم أنبيأؤهم حفظه من التوراة، أي: بسبب إيصائهم إياهم أن يحفظوه من التغيير والتبديل. و(من) في ﴿مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ للتيين.

﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي: رقباء لئلا يغيروا. والمعنى ﴿يَحْكُمُ﴾ بأحكام [التوراة] ﴿النَّبِيِّونَ﴾ بين موسى وعيسى وكان بينهما ألف نبي ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ يحملونهم على أحكام^(٢) التوراة، لا يتركونهم أن يعدلوا عنها كما فعله

(١) ساقطة من ج.

(٢) ساقطة من أ.

٤٠ جوامع الجامع / ج ٢

رسول الله ﷺ من حملهم على حكم الرجم، وكذلك حكم ﴿الرَّبَّيْنُونَ وَالْأَجْبَارُ﴾^(١) المسلمون بسبب ما استحفظهم أنبياءهم ﴿مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ وبسبب كونهم ﴿عَلَيْهِ شَهَادَةٌ﴾.

﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ﴾ نهي للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وادّهانهم فيها.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ أي: لا تستبدلوا ولا تستعوضوا بآيات الله وأحكامه.

﴿ثُمَّنَا قَلِيلًا﴾ وهو الرشوة وابتغاء الجاه وطلب الرياسة، كما فعله اليهود.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مستهيناً به ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ والظالمون والفاسقون.

وصف لهم بالعتوّ في كفرهم وظلمهم بآيات الله بالاستهانة بها، وتمردهم في فسقهم بأن حكموا بغيرها. وعن ابن عباس: (من جحد حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاسق)^(١). وعن حذيفة: (أنتم أشبه الأمم سمناً ببني إسرائيل، لتركبن طريقهم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، غير أنني لا أدري أتعبدون العجل أم لا)^(٢).

وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ
وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ
قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ
يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

(١) تفسير الطبري ج ٦: ١٦٦.

(٢) الكشف ج ١: ٦٣٨.

المعطوفات كلها قرئت بالنصب والرفع، وقرئت بالنصب إلا والجروح قصاص فإنه بالرفع، والرفع للعطف على محلّ ﴿أَنَّ النَّفْسَ﴾، لأنّ المعنى: ﴿وَكُنْبَنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ النفس بالنفس: إما لإجراء ﴿كُنْبَنَا﴾ مجرى (قلنا)، وإما لأنّ معنى الجملة التي هي قوله: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ مما يقع عليه الكتب كما يقع عليه القراءة تقول: كتبت (الحمد لله) وقرأت (سورة أنزلناها)، ولذلك قال الزجاج: (لو قرئ: إنّ النفس - بالكسر - لكان صحيحاً)^(١).

والمعنى: فرضنا عليهم فيها ﴿أَنَّ النَّفْسَ﴾ مأخوذة ﴿بِالنَّفْسِ﴾ مقتولة بها إذا قتلها بغير حقّ، ﴿وَالْعَيْنَ﴾ مفقوءة ﴿بِالْعَيْنِ﴾، ﴿وَالْأَنْفَ﴾ مجدوع ﴿بِالْأَنْفِ﴾، ﴿وَالْأُذُنَ﴾ مصلومة ﴿بِالْأُذُنِ﴾، ﴿وَاللِّسَنَ﴾ مقلوعة ﴿بِاللِّسَنِ﴾، ﴿وَالْجُرُوحَ﴾ ذات قصاص، وهو المقاصة فيما يمكن فيه القصاص.

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ﴾ من أصحاب الحقوق بالقصاص وعفا عنه.

﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ يكفر به من سيئاته بقدر ما تصدّق.

وَقَفَيْنَا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ
وَأَتَيْنَاهُ بِالْإِنْجِيلِ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

قفاه بفلان: عقبه به، تعدّى إلى المفعول الثاني بالباء، والمفعول الأوّل في الآية محذوف سدّ مسدّه الظرف الذي هو ﴿عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ﴾ لأنّه إذا قفّا به على أثره فقد قفّا به إيّاه، والضمير في ﴿ءَاثَرِهِمْ﴾ للنبيين في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾.
﴿وَمُصَدِّقًا﴾ نصب على الحال عطف على محلّ ﴿فِيهِ هُدًى﴾.

﴿وَهَدَىٰ وَمَوْعِظَةً﴾ يجوز أن ينتصبا على الحال، وعلى المفعول له لقوله:
 ﴿وَلِيَحْكُمُ﴾. وقرئ: وليحكم على الأمر، بمعنى وقلنا: ليحكم، ﴿بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ
 فِيهِ﴾ أي: في الإنجيل.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ
 الْكِتَابِ وَمُهِيمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا
 تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً
 وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ
 فِي مَا آتَيْنَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
 فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ
 كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ
 مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، والتعريف فيه للعهد، وفي ﴿الْكِتَابَ﴾
 بعده للجنس، لأنَّ المعنى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ﴾ التوراة والأنجيل وكل
 كتاب أنزل من السماء سواه.

﴿وَمُهِيمًا عَلَيْهِ﴾ أي: رقيباً على سائر الكتب لأنَّه يشهد لها بالصحة.
 ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ضمَّن معناه معنى لا تنحرف ولذلك عدِّي بـ(عن)
 كأنَّه قيل: ولا تنحرف ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ متبعاً أهواءهم.
 ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شُرْعَةً﴾ أي: شريعة.
 ﴿وَمِنْهَا جَا﴾ طريقاً واضحاً في الدين تجزون عليه. وفيه دليل على إنَّا غير

متعبدين بشرائع من كان قبلنا من الأنبياء.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: جماعة على شريعة واحدة، أو ذوي أمة واحدة، أي: دين واحد لا اختلاف فيه.

﴿وَلَكِنْ﴾ أراد ﴿لَيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة، هل تعملون بها معتقدين أنها مصالح لكم قد اختلفت بحسب اختلاف الأحوال، أو تتبعون الشبه وتفردون في العمل.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فابتدروها.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات.

﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ فيخبركم بما اختلفتم فيه من أمر دينكم، ويفصل بين محققكم ومبطلكم، ويجازيكم على حسب استحقاقكم.

﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم﴾ معطوف على ﴿الْكِتَابِ﴾، أي: وأنزلنا إليك أن احكم، وصلت (أن) بالأمر. ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: أنزلناه بالحق وبأن احكم.

﴿وَأَحْذَرَهُمْ أُنْ يَفْتِنُوكَ﴾ أن يضلوك ويستزلوك ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بأن يطمعوك منهم في الإجابة إلى الإسلام ويقولوا: إنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فاحكم لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى رسول الله ذلك.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ﴾ بذنب التولي عن حكم الله، فوضع ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ موضع ذلك، والمراد: إن لهم ذنوباً جمة، هذا الذنب بعضها.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ﴾ هذا تعيير لليهود بأنهم أهل كتاب، وهم يبغيون

حكم الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحي .
وقرئ: تَبْعُونَ - بالتاء - على معنى قل لهم .

واللام في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ للبيان كاللام في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾^(١) أي: هذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يتبينون أن لا عدل ولا أحسن حكماً من الله تعالى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ
تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا
عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْؤُلَاءِ
الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾

نهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذهم أولياء ينصرونهم ويستنصرونهم
ويوالونهم، ثم علل النهي بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: إنما يوالي بعضهم بعضاً
لا اجتماعهم في الكفر .

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ﴾ من جملتهم وحكمه حكمهم، وهذا تشديد من الله
في وجوب مجانبة المخالف في الدين، كما جاء في الحديث: ((لا تراءى ناراهما))^(٢) .
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكافرين يمنعهم
ألطافه ويخذلهم .

(١) يوسف: ٢٣ .

(٢) المجازات النبوية: ٢٦٥، معجم الطبراني الكبير ج ٢: ٣٠٣ .

﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ شك ونفاق ﴿يُسْرِعُونَ﴾ [فِيهِمْ] في موالاتهم ويرغبون^(١) فيها، ويعتذرون بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم ﴿دَائِرَةٌ﴾ من دوائر الزمان، أي: صرف من صروفه فيحتاجوا إليهم وإلى معونتهم.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ لرسول الله على أعدائه.

﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ بقتل اليهود وإجلائهم من ديارهم فيصبح المنافقون ﴿نَدِمِينَ﴾ على ما أسروه ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من النفاق، وقيل: أو أمر من عنده وهو أن يؤمر النبي بإظهار أسرار المنافقين فيندموا^(٢).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قرئ بالنصب عطفاً على ﴿أَنْ يَأْتِيَ﴾، أو على ﴿بِالْفَتْحِ﴾ أي: وبأن يقول؛ وبالرفع على أنه كلام مبتدأ، أي: ويقول الذين آمنوا في ذلك الحال. وقرئ: يقول - بغير واو-.

﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾ أي: حلفوا ﴿بِاللَّهِ﴾ أغلظ الأيمان ﴿إِنَّهُمْ﴾ أولياؤكم.

﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ من جملة كلام المؤمنين، أي: بطلت أعمالهم التي كانوا يتكلفونها في مرأى الناس.

﴿فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ﴾ خسروا الدنيا والآخرة.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ

(١) ساقطة من ج.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ج ١: ١٨١.

اللَّهُ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّائِمَةً ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

قرئ: من يرتدد ومن يرتدد. وهو من الكائنات التي أخبر عنها في القرآن قبل كونها، وهو أن قوماً يرتدون بعد وفاة رسول الله ﷺ، وأنه سبحانه ينصر دينه بقوم لهم هذه الصفات المذكورة، قيل: هم أهل اليمن، ولما نزلت أشار رسول الله ﷺ إلى أبي موسى الأشعري^(١) فقال: ((هم قوم هذا))^(٢)، وقال: ((الإيمان يمان والحكمة يمانية))^(٣)، وقيل: هم الفرس، وأن رسول الله ﷺ ضرب بيده على عاتق سلمان فقال: ((هذا وذووه))^(٤)، وقال: ((لو كان الدين معلّقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس))^(٥). وعن أئمة الهدى ﷺ وعمار وحذيفة: إنهم عليّ ﷺ وأصحابه حين قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين^(٦)، ويؤيده الحديث: ((لتنهّن يا معشر قريش أو ليعثن الله عليكم رجلاً يضربكم على تأويل القرآن كما ضربتكم على تنزيله، ثم قال من بعد: إنه خاصف النعل في الحجرة)) وكان عليّ ﷺ يخصف نعل رسول الله ﷺ^(٧).

(١) أبو موسى عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري، أسلم ورجع إلى بلاد قومه ثم قدم المدينة بعد فتح خيبر، كان أحد الحكمين بصفين والقصة مشهورة، مات سنة ٤٢ هـ على قول. ينظر: الإصابة ج ٢: ٣٥٩، معجم رجال الحديث ج ١٠: ٢٩٩.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ج ٧: ٥٢٥.

(٣) مسند أحمد ج ٢: ٢٧٧.

(٤) الكشف والبيان ج ٤: ٧٩.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ج ٧: ٥٦٣.

(٦) التبيين ج ٣: ٥٤٦.

(٧) مصنف ابن أبي شيبة ج ٧: ٤٩٨.

و﴿أَذَلَّةٍ﴾ جمع ذليل، أي: عاطفين على المؤمنين على وجه التذلل والتواضع أشداء ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

واللومة المرة من اللوم، وفيه أنهم لا يخافون شيئاً قط من لوم أحد من اللوام.
﴿ذَلِكَ﴾ أي: محبتهم ولين جانبهم على المؤمنين وشدتهم على الكافرين
﴿فَضْلٌ﴾ من ﴿اللَّهِ﴾ ومنّة ولطف من جهته يعطيه ﴿مَنْ﴾ يعلم أنه أهل له.
﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الفواضل والألطف ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو من أهلها.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ
هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

نزلت في عليٍّ حين سألته وهو راكع في صلاته، فأوماً بخنصره
اليمنى إليه، فأخذ السائل الخاتم من خنصره، ورواه الثعلبي^(١) في تفسيره^(٢)،
والحديث طويل روينا في الكتاب الكبير^(٣)، وفيه: إن رسول الله ﷺ قال: ((اللهم
اشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي اشد به
ظهري))، قال أبو ذر^(٤): فوالله ما استتم الكلمة حتى نزل جبرئيل فقال: يا محمد
اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ... الْآيَةَ﴾.

(١) أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الثعلبي صاحب التفسير المشهور، توفي سنة ٤٢٧هـ. طبقات المفسرين ج ١: ٦٥.

(٢) الكشف والبيان ج ٤: ٨٠.

(٣) مجمع البيان ج ٣-٤: ٢١٠.

(٤) أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، الصحابي الجليل، أحد السابقين إلى الإسلام، توفي بالربذة سنة ٣١هـ أو ٣٢هـ، وقصته مشهورة. ينظر: الإصابة ج ٤: ٦٢، معجم رجال الحديث ج ٤: ١٦٧.

والمعنى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ أي: الذي يتولى تدبيركم ويلى أموركم ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ﴾ هذه صفاتهم.

﴿وَهُمْ رَكْعُونَ﴾ حال من ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يؤتونها في حال ركوعهم. قال جار الله: وإنما جيء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً، ليرغب الناس في مثل فعله، ولينبه على أنَّ سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البر والإحسان^(١).

وأقول: قد اشتهر في اللغة العبارة عن الواحد بلفظ الجمع على سبيل التعظيم، فلا يحتاج إلى الاستدلال عليه. وإذا ثبت أنه المعنى في الآية على ما ذكرناه صحت إمامته بالنص الصريح.

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر، أي: فإنهم هم الغالبون.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ
مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

وقرئ: ﴿وَالْكَفَّارَ﴾ بالجر ويعضده قراءة أبي: ومن الكفار، وفي القراءة بالنصب يكون الهزء من أهل الكتاب خاصة، وفصل بين المستهزئين منهم والكفار - وإن كانوا أيضاً كفاراً - إطلاقاً للكفار على المشركين خاصة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في موالاة الكفار ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ حقاً.

﴿اتَّخَذُوهَا﴾ الضمير للصلاة، أو للمناداة، وكانوا إذا أذن المؤذن للصلاة
تصاحكوا فيما بينهم.

﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأن هزأهم ولعبهم من أفعال السفهاء فكأنه لا عقل لهم.

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا
أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾

أي: ما تعيبون منا وتتكرون ﴿إِلَّا﴾ الإيمان ﴿بِاللَّهِ﴾ والكتب المنزلة كلها.
﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فيه وجوه: أن يكون عطفاً على ﴿أَنْ ءَامَنَّا﴾ أي:
ما تنقمون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في الإيمان وأنتم خارجون منه، ويجوز
أن يكون عطفاً على المجرور أي: إلا الإيمان بالله وبأن أكثركم فاسقون، ويجوز
أن يكون تعليلًا معطوفاً على تعليل محذوف أي: ما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة
إنصافكم ولأنكم فاسقون.

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّٰهِ مَن لَّعَنَهُ اللّٰهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ
وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ
عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى المنقوم، ولا بد من حذف مضاف، والتقدير: هل أنبئكم
بشرٍّ من أهل ذلك، أو بشرٍّ من ذلك دين من لعنه الله، وضعت المثوبة موضع
العقوبة، ومنه قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

وكان اليهود يزعمون أن المسلمين مستوجبون للعقاب، ف قيل لهم: من لعنه
الله شر عقوبة في الحقيقة من أهل الإسلام في زعمكم. و﴿مَنْ لَّعَنَهُ اللّٰهُ﴾ في موضع

الرفع أي: هو من لعنه الله، أو في محلّ الجر على البدل من ﴿شَرٍّ﴾.

و﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عطف على صلة ﴿مَنْ﴾ أي: ومن عبد الطاغوت، وقرئ: وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ - بضم الباء والإضافة - أي: وجعل منهم عبد الطاغوت، وهو للمبالغة في العبودية نحو حذر ويقظ، والمعنى فيه إنّه خذلهم حتى عبدوها. والطاغوت: الشيطان. وقيل: إنّ من جعل منهم القردة هم أصحاب السبت، والخنازير: كفار أهل مائدة عيسى^(١)، وقيل: إنّها معاً أصحاب السبت مسخ شبانهم قردة وشيوخهم خنازير^(٢).

﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ جعلت الشرارة للمكان وهي لأهله للمبالغة، وهو داخل في باب الكناية.

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ
الرَّبُّنَيُّوتُ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَيْسَ مَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

نزلت في ناس من اليهود كانوا يظهرن الإيمان نفاقاً.

﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ﴾ أي: دخلوا كافرين وخرجوا كافرين، والتقدير ملتبسين بالكفر. فقوله: ﴿بِإِثْمِهِ﴾ و﴿بِهِ﴾ حالان وكذلك قوله: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ و﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾ ولذلك دخلت (قد) تقريباً للماضي من الحال أي: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾ وهذه حالهم.

(١) الكشف والبيان ج ٤: ٨٥.

(٢) عن ابن عباس. معالم التنزيل ج ١: ٢٩١.

﴿الْإِثْمَ﴾ الكذب بدليل قوله: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾.

﴿وَالْعَدُونَ﴾: الظلم، [وقيل: الإثم: كلمة الشرك نحو قولهم: ﴿عَزِيزُ ابْنُ

الله﴾^(١)، وقيل: الإثم: ما يختص بهم، والعدوان ما يتعداهم إلى غيرهم.

﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي الكبائر، لأن كل

عامل لا يسمّى صانعاً [ولا كل عمل يسمّى صناعة]^(٢) حتى يتمكن فيه ويمهر.

وعن ابن عباس: (هي أشد آية في القرآن)^(٤).

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ
مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ
رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ

لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

غلّ اليد مستعار للبخل، وبسط اليد للجود، ومن تكلم به لا يقصد إثبات

يد، ولا يريد حقيقة غل ولا بسط، وإنما هما عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود،

وقد استعملوا اليد حيث لا يصح اليد نحو قول الشاعر:

جَادَ الْحِمَى بَسْطَ الْيَدَيْنِ بِوَابِلٍ شَكَرْتُ نَدَاهُ تِلَاعُهُ وَوَهَادُهُ^(٥)

وقول لييد:

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) ساقطة من ط.

(٣) ساقطة من أ، ب، ط.

(٤) تفسير الطبري ج ٦: ١٩٣.

(٥) لم أعثر على قائله في المصادر المتوفرة.

قَدْ أَصْبَحْتَ بِيَدِ الشَّامِلِ زِمَامُهَا^(١)

﴿عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يجوز أن يكون دعاء عليهم بالبخل والنكد، ولذلك كانوا أبخل خلق الله، ويجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الأيدي حقيقة، يغلّون في الدنيا أسارى، وفي الآخرة بالأغلال في النار، ويجوز أن يكون إخباراً بأنهم ألزموا البخل وجعلوا بخلاء.

﴿وَلِعَنُوا بِمَا قَالُوا﴾ أي: أبعادوا عن رحمة الله وعذبوا.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ثبّت اليد هنا ليكون الإنكار لقولهم أبلغ، وعلى إثبات غاية السخاء أدلّ، وذلك أنّ غاية ما يبذله السخي أن يعطي باليدين جميعاً.

وقوله: ﴿يُفِيقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد أيضاً للوصف بالسخاء، ودلالة على أنّه لا ينفق إلا ما تقتضيه الحكمة والصلاح.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا﴾ أي: يزدادون عند إنزال القرآن تمادياً في الجحود وحسداً ﴿وَكُفْرًا﴾ بآيات الله.

﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ﴾ فكلما تهم مختلفة وقلوبهم شتى فلا تقع بينهم موافقة.

﴿كَلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ أي: كلما أرادوا محاربة النبي ﷺ غلبوا ولم يكن

لهم ظفر قط، وقد أتاهم الإسلام وهم في ملك المجوس. وفي هذا دلالة على صحة نبوة نبينا، لأن اليهود كانوا في أشدّ بأس وأمنع دار حتى أنّ قريشاً كانت تعتصد بهم، وكان الأوس والخزرج تتكثر بمظاهرتهم، فذلّوا وقهروا، وقتل النبي ﷺ بني قريظة، وأجلّ بني النضير، وغلب على خيبر وفدك، فاستأصل الله شأفتهم حتى أنّ اليوم تجد اليهود في كل بلدة من أذل الناس.

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٧٦، وفيه: وغداة ريح قد وزعت ورقة إذ ...

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بمخالفة أمر الله والاجتهاد في محو ذكر الرسول

من كتبهم.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ
مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا﴾ بمحمد ﷺ.

﴿وَاتَّقَوْا﴾ وقرنوا إيمانهم بالتقوى.

﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ تلك السيئات ولم نؤاخذهم بها.

﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾ مع المسلمين ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا﴾ أحكام ﴿التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وحدودهما وما فيها من

نعت رسول الله ﷺ.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ﴾ سائر كتب الله، لأنهم كلفوا الإيمان بجميعها فكأنها

نزلت إليهم، وقيل: هو القرآن^(١).

﴿لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ المعنى: لو سَّع الله عليهم الرزق

وكانوا قد قحطوا، والمراد: لأفضنا عليهم بركات السماء وبركات الأرض، أو

لأكثرنا ثمرات أشجارهم وغللات زروعهم، ولرزقناهم الجنان اليانعة الثمار

يجتنون ثمار أشجارها ويلتقطون ما سقط منها على الأرض.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: طائفة ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ مسلمة آمنت بالنبى ﷺ.

(١) عن مجاهد. تفسير الطبري ج ٦: ١٩٧.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فيه معنى التعجب، أي: ما أسوأ عملهم! وهم

الذين أقاموا على الكفر والجحود بالنبي ﷺ.

يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا
بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾

روى الكلبي عن أبي صالح^(١) عن ابن عباس وجابر بن عبد الله: (إِنَّ اللَّهَ تعالى أمر نبيه أن ينصب علياً للناس ويخبرهم بولايته، فتخوف ﷺ أن يقولوا حابي ابن عمه، وأن يشق ذلك على جماعة من أصحابه، فنزلت هذه الآية، فأخذ بيده يوم غدیر خم وقال: ((من كنت مولاه فعليّ مولاه))^(٢).

وقرئ: فما بلغت رسالته، أي: إن لم تبلغ هذه الرسالة ﴿فَمَا بَلَّغْتَ﴾ إذاً ما كلّفت به من الرسالات، وكنت كأنك لم تؤد منها شيئاً قط، لأنك إذا لم تؤدها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ هذا وعد من الله بالحفظ والكلاءة، ومعناه:

والله يضمن لك العصمة من أن ينالوك بسوء فما عذرك في مراقبتهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ يريد أن لا يمكنهم من إنزال مكروه بك.

وعن أنس: (كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت الآية، فأخرج رأسه من قبة أدم فقال: ((انصرفوا فقد عصمني الله من الناس)))^(٣).

(١) أبو صالح السمان ذكوان المدني، مولى جويرية الغطفانية، كان يجلب الزيت والسمن إلى الكوفة، شهد الدار وحصار عثمان، توفي سنة ١٠١ هـ. تذكرة الحفاظ ج ١: ٨٩.

(٢) شواهد التنزيل ج ١: ١٩٢.

(٣) الكشف والبيان ج ٤: ٩١.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

عن ابن عباس: (نزلت في جماعة من اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألسنت تقرّ بأنّ التوراة من عند الله؟ قال: بلى، قالوا: فإنّا نؤمن بها ولا نؤمن بها عداها) ^(١).

والمعنى: ﴿لَسْتُمْ عَلَى﴾ دين يعتد به حتى يسمّى شيئاً لفساده وبطلانه، كما يقال: هذا ليس بشيء، يراد به التحقير.

﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بالتصديق لما فيهما من البشارة بمحمّد والعمل بما فيهما ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن.

﴿فَلَا تَأْسَ﴾ أي: فلا تتأسف عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم، فإنّ ضرر ذلك يرجع إليهم لا إليك.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى مَن
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ رفع على الابتداء وخبره محذوف، والنية به التأخير عما في حيّز ﴿إِنَّ﴾ أي: والصابئون كذلك، واستشهد لذلك سيبويه ^(٢) بقول الشاعر:

وَالَا فَاعْلَمُوا أَنَا وَأَنْتُمْ بُعَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقٍ ^(٣)

(١) لباب النقول: ١١٩ باختلاف.

(٢) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر النحوي المشهور بـ(سبويه)، إمام البصريين، أصله من البيضاء ونشأ بالبصرة، صاحب الكتاب في النحو، مات سنة ١٨٠ هـ على قول. بغية الوعاة ج ٢: ٢٢٩.

(٣) البيت لبشر بن أبي خازم الأسدي ديوانه: ١٦٥، وفيه: ما حيننا بدل ما بقينا. الكتاب ج ٢: ١٥٦.

أي: فاعلموا أننا بغاة وأنتم كذلك، وقول الآخر:

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ^(١)

وإنما سموا صابئين لأنهم صباؤا عن الأديان كلها أي: خرجوا.

و﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ والتقدير: من آمن منهم، والجملة كما هي خبر ﴿إِنَّ﴾. ويجوز أن يكون ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ منصوباً على البدل من اسم ﴿إِنَّ﴾ وما عطف عليه، أو من المعطوف عليه.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا
جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا
يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ
تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

أي: ﴿أَخَذْنَا﴾ ميثاقهم بالتوحيد والبشارة بمحمد ﷺ.

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ ليقفوهم على الأوامر والنواهي.

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ جملة شرطية، وجواب الشرط محذوف يدل عليه قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لأنَّ التقدير: كلما جاءهم رسول من تلك الرسل ناصبوه وخالفوه، وقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ كأنه جواب سائل يسأل عنهم: كيف فعلوا برسلمهم؟ و﴿يَقْتُلُونَ﴾ حكاية حال ماضية استحضاراً لتلك الحال الشنيعة ليتعجب بها.

وقرئ: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ بالنصب والرفع، والرفع على تقدير: وحسبوا أنه

(١) البيت لضابئ بن حارث البرجي. الأصمعيات: ١٨٤، وصدرة: ومن يك امسى بالمدينة رحله.

لا تكون فتنة، فخففت (أن) وحذف ضمير الشأن، وجعل الحسبان بمنزلة العلم حيث أدخل على ﴿أَنْ﴾ التي هي للتحقيق لقوته في صدورهم. والمعنى: وحسب بنو إسرائيل أنهم لا تصيبهم من الله ﴿فِتْنَةً﴾ أي: بلاء وعذاب في الدنيا والآخرة. ﴿فَعَمُّوا﴾ عن الدين ﴿وَصَمُّوا﴾ عن الحق ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لما تابوا.

﴿ثُمَّ عَمُّوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ هو بدل من واو الضمير، أو هو على قولهم: أكلوني البراغيث، أو هو على أولئك كثير منهم، والمعنى: إن كثيراً منهم عادوا كما كانوا، وقيل: يعني بالكثير منهم من كان في عصر نبينا ﷺ.

﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عالم بأعمالهم. وفيه وعيد لهم. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِيْ إِبْرَءِيْلَ اْعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾

احتج سبحانه على النصارى بقول عيسى ﷺ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إذ لم يفرق بينه وبينهم في أنه عبد مربوب مثلهم.

﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ في عبادته أو فيما يختص به من صفاته أو أفعاله. ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الموحدين، أي: حرمة دخولها

ومنعه منه كما يمنع المحرم من المحرّم عليه.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يخلصونهم من عذاب الله، وظلمهم أنفسهم عدلوا عن سبيل الحقّ فيما تقوّلوا على عيسى.

و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ للاستغراق والعموم، وهي المقدرة مع (لا) التي لنفي الجنس في قولك: لا إله إلا الله. والتقدير: وما من إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثاني له في القدم، وهو الله وحده لا شريك له.

﴿لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ (من) للتيين فكأنّه قال: ليمسّهم، ولكن أقام الظاهر موقع المضمّر، لتكرّر شهادته عليهم بالكفر. ويجوز أن يكون (من) للتبعيض أيضاً على معنى: ليمسّ الذين بقوا على الكفر منهم.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ بعد هذا الوعيد الشديد مما هم عليه. وفيه تعجيب من إصرارهم على الكفر.

﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يستر الذنوب على العباد ويرحمهم.

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ
نَبِّئْتَهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ
أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَعْلَمُوا فِي
دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ
قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

أي: ﴿مَا﴾ هو ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ من جنس الرسل الذين خلوا قبله، أتى بمعجزات باهرة من فعل الله تعالى كما أتوا بأمثالها.
﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ صدّقت بكلمات ربّها وكتبه، وما هي إلا كبعض النساء المصدّقات.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ هذا تصريح ببعدهما عما نسب إليهما، لأنّ من احتاج إلى الغذاء وما يتبعه من الهضم والنفض لم يكن إلا جسماً مؤلفاً محدثاً. وقيل: إنّ كناية عن قضاء الحاجة، فكأنّه ذكر الأكل وقصد بذلك الإخبار عن عاقبته^(١).
﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ﴾ الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم.
﴿ثُمَّ أَنْظِرْ أَفَى يُؤَفِّكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن استماع الحق وتدبره!. والمعنى في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْظِرْ﴾ تراخي ما بين العجيبين، بمعنى: إنّهُ نبيّن لهم الآيات بيانا عجباً، ثم إنّ إعراضهم عنها أعجب منه.

والمراد بقوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ عيسى عليه السلام، أي: شيئاً لا يستطيع أن يضرّكم بمثل ما يضرّكم الله به من البلاء والنقص من الأموال والأنفس، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من الصحة والسعة والخصب، وصفة المعبود أن يكون قادراً على كل شيء.

﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يعتقدون.
﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحدّ الذي حدّه الله لكم إلى الزيادة.

﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة للمصدر، أي: لا تغلوا غلواً غير الحقّ، أي: غلواً

باطلاً وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه.

﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ هم أئمتهم في النصرانية كانوا على الضلال قبل مبعث النبي ﷺ.

﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ممن تابعهم على التثليث.

﴿وَضَلُّوا﴾ لما بعث رسول الله ﷺ ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّكِيلِ﴾ حين كذبوه وبغوا عليه.

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ
﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾

لعنوا ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾ لما اعتدوا في سبهم، فقال: اللهم ألبسهم اللعنة مثل الرداء. فمسخهم الله قردة، وعلى لسان ﴿عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ لما كفروا بعد نزول المائدة، فقال عيسى: اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لا تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فصاروا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ أي: ذلك اللعن الشنيع بمعصيتهم واعتدائهم. ثم فسّر المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ أي: لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، ثم قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ للتعجب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم. ويجوز أن يكون المعنى: كانوا لا

يتناهون أي لا يتناهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه، بل يصرون عليه ويدأموون على فعله.

﴿ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: يوالون المشركين ويصادقونهم.

﴿ لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي: لبس زأدهم إلى الآخرة.
 ﴿ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: سخط الله عليهم وهو المخصوص بالذم.
 والمعني بذلك كعب بن الأشرف وأصحابه حين استجاشوا^(١) المشركين على رسول الله وقالوا: ﴿ هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾^(٢).

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَدَسَقُوا ﴿٨١﴾
 لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ
 أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ
 قَالُوا إِنَّا نَصَرُكَ ذَٰلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهْبَانًا
 وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ
 تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 ءَامَنَّا فَآكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا
 مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ ﴾ إيماناً حقيقياً ما اتخذوا المشركين ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ كما لم يوالهم المسلمون.

(١) استجاشوا: طلبوا منهم جيشاً. (الصحاح: مادة جيش)

(٢) النساء: ٥١.

﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ متمردون في كفرهم.

ثم ذكر شدة عداوة اليهود للمؤمنين، ولين عريكة النصارى وميلهم إلى الإسلام، وقرن اليهود بالمشركين في العداوة، ونَبّه على تقدّم قدمهم فيها بتقديم ذكرهم، وعلل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّاتٍ وَرَهَبَانًا﴾ أي: علماء وعباداً ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ قوم فيهم تواضع وإخبات ولا كبر فيهم، واليهود على خلاف ذلك. وفيه دلالة على أنّ العلم يهدي إلى الخير وينفع في أبواب البر، وكذلك التآله والتفكر في أمر الآخرة والبراءة من الكبر.

ثم وصفهم برقة القلوب والبكاء عند استماع القرآن، وذلك نحو ما حكي عن النجاشي أنّه قال لجعفر بن أبي طالب - حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة وعمر بن العاص مع من معه من المشركين وهم يغرونه عليهم -: هل في كتابكم ذكر مريم؟ فقال جعفر: فيه سورة تنسب إليها، وقرأها إلى قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾^(١)، وقرأ سورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾^(٢) فبكى النجاشي، وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم رسول الله سورة (يس) فبكوا^(٣).

واللام في ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يتعلّق بـ ﴿عَدَاوَةٌ﴾ و﴿مَوَدَّةٌ﴾. ووصف اليهود بالعداوة، والنصارى بالمودة، ووصف العداوة بالأشدّ والمودة بالأقرب؛ يؤذن بتفاوت ما بين الفريقين.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا﴾ المراد به إنشاء الإيمان والدخول فيه.

(١) مريم: ٣٤.

(٢) طه: ٩.

(٣) تفسير الطبري ج ٧: ٣ باختلاف.

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع أمة محمد ﷺ الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(١). وإنما قالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ﴾ إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع ثبوت موجهه، وهو الطمع في أن ينعم الله عليهم بصحبة الصالحين. ومحل ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ النصب على الحال بمعنى: غير مؤمنين، والواو في ﴿وَنَطْمَعُ﴾ واو الحال، والعامل في الأولى معنى الفعل في اللام. والمعنى: وأي شيء حصل لنا غير مؤمنين، وفي الثانية معنى هذا الفعل مقيداً بالحال الأولى، لأنك لو قلت: مالنا ونطمع لم يكن كلاماً. ويجوز أن يكون ﴿وَنَطْمَعُ﴾ حالاً من ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾.

فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

﴿بِمَا قَالُوا﴾ أي: بما تكلموا به عن اعتقاد وإخلاص، من قولك: هذا قول فلان أي: مذهبه واعتقاده. وذكر مجرد القول هنا، لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على معرفتهم وإخلاصهم، وهو قوله: ﴿يَمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾. والقول إذا اقترن به المعرفة فذلك الإيذان الحقيقي.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا
تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ
حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

روي: أن رسول الله ﷺ ذكر أصحابه يوماً ووصف القيامة لهم فبالغ في

الإنذار، فرّقوا واجتمع عشرة في بيت عثمان بن مظعون^(١) واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم ولا الودك، ولا يقربوا النساء، ويلبسوا المسوح^(٢)، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا في الأرض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: ((إني لم أؤمر بذلك، إنّ لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإنّي أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء، ومن رغب عن سنتي فليس مني)) ونزلت الآية^(٣).

﴿لَا تَحَرِّمُوا﴾ أي: لا تمنعوا أنفسكم ما طاب ولد من الحلال، ولا تقولوا: حرّمنا الحلال على أنفسنا تزهّداً ومبالغة منكم في العزم على تركه.

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: لا تتعدوا حدود ما أحلّ لكم إلى ما حرّم عليكم؛ أو جعل تحريم الطيبات اعتداءً فنهى عن الاعتداء ليدخل تحته النهي عن تحريمها؛ أو أراد: ولا تسرفوا في تناول الطيبات.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من الوجوه الطيبة التي تسمّى رزقاً، وقوله: ﴿حَلَالًا﴾ حال من ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد للوصية بما أمر به، وقوله: ﴿أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ استدعاء إلى التقوى بالطف الوجوه.

وتدلّ الآيتان على كراهية التفرد، والخروج مما عليه الناس في التأهل وطلب الولد وعمارة الأرض.

(١) عثمان بن مظعون بن حبيب الجمحي، من السابقين إلى الإسلام، هاجر الهجرتين، توفي بعد شهوده بدرًا وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين وأول من دفن بالبقيع منهم. ينظر: الإصابة ج ٢: ٤٦٤.

(٢) المسوح: جمع مسح وهو الكساء من الشعر. (لسان العرب: مادة مسح)

(٣) أسباب النزول: ١٤١.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ
الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ؛ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ
أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

اللغو في اليمين: هو الساقط الذي لا يتعلق به حكم ويقع من غير قصد،
مثل قول القائل: (لا والله) و(بلى والله).

﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنية،
وقرئ: عَقَّدْتُمْ [- بالتخفيف - وَعَقَّدْتُمْ. والمعنى: ولكن يؤاخذكم بنكث ما عقدتم
فحذف المضاف، أو بما^(١)] عقدتم إذا حنثتم، فحذف وقت المؤاخذة لكونه معلوماً.
﴿فَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: فكفارة حنثه ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ يعطى كل واحد
منهم مدين أو مَدًّا، والمدّ: رطلان وربع.

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: من أقصده، لأنّ من الناس من
يسرف في إطعام أهله ومنهم من يقتّر، وأفضله الخبز واللحم، وأدونه الخبز
والمالح، وعن الصادق عليه السلام أنّه قرأ: أَهَالِيكُمْ - بسكون الياء - وهو اسم جمع لأهل
كالليالي والأراضي. وأما تسكين الياء في حال النصب فالتخفيف كما قالوا: رأيت
معدي كرب تشبيهاً للياء بالألف.

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطف على ﴿إِطْعَامُ﴾ والكسوة عندنا ثوبان: مئزر
وقميص، وعند الضرورة قميص^(٢).

(١) ساقطة من ج.

(٢) تهذيب الأحكام ج ٨: ٢٩٦.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ عبد أو أمة، وهذه الثلاثة واجبة على التخيير.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ إحداها ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعات، وكذلك هو في قراءة أبي وابن مسعود.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحشتم. ترك ذكر الحنث لحصول العلم بأن الكفارة إنما تجب بالحنث لا بنفس الحلف.

﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فبرّوا فيها ولا تحشوا، وقيل: احفظوها بأن تكفروها، وقيل: احفظوا كيف حلفتكم بها ولا تنسوها تهاوناً بها.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان.

﴿رَبِّينَ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَتُهُ﴾ أي: أحكام شريعته.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلمكم ويبيّنه لكم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ
بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ
الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿١١﴾

أكد سبحانه تحريم الخمر والميسر بوجوه من التأكيد:

منها: أنه قرنهما بعبادة الأنصاب التي هي الأصنام، ومنه قوله ﷺ: ((شارب الخمر كعابد الوثن))^(١).

ومنها: أنه جعلهما رجساً كما قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾^(٢).

(١) علل الشرائع: ٤٧٦.

(٢) الحج: ٣٠.

ومنها: أنه جعلهما من عمل الشيطان.

ومنها: أنه أمر بالاجتناب.

ومنها: أنه جعل الاجتناب من الفلاح. والهاء في ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ تعود إلى ﴿عَمِلِ الشَّيْطَانِ﴾، أو إلى مضاف محذوف كأنه قيل: إنما شأن الخمر والميسر، أو تعاطي الخمر والميسر ونحو ذلك.

ومنها: أنه ذكر نتائجهما من المفسد التي هي وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقمار، وما يؤديان إليه من الصدّ ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ التي هي عماد الدين.

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ نهي بليغ، أي: فهل أنتم مع ما تلي عليكم من هذه الصوارف منتهون؟.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى
رَسُولِنَا الْبَلَّغِ الْمُبِينِ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا
وَوَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿وَأَحْذَرُوا﴾ أي: كونوا حذرين خائفين، أو واحذروا ما عليكم في ترك طاعة الله والرسول.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ ولم تعملوا بما أمرتكم به ﴿فَأَعْلَمُوا﴾ أنكم لن تضروا الرسول بتوليكم عما أداه إليكم، لأن الرسول لم يكلف إلا ﴿الْبَلَّغِ الْمُبِينِ﴾ وإنما أضرتكم أنفسكم. وهذا وعيد.

﴿لَيْسَ عَلَى﴾ المؤمنين الصالحين ﴿جُنَاحٌ﴾ في أي شيء طعموه من المطاعم

المستلذة ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ ما حرّم عليهم منها، وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح وازدادوه.

﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ أي: ثم ثبتوا على التقوى والإيمان.

﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ أي: ثم ثبتوا على اتقاء المعاصي وأحسنوا أعمالهم، وأحسنوا إلى الناس يواسونهم بما رزقهم الله من الطيبات. وقيل: إنّ الاتقاء الأول هو اتقاء المعاصي العقلية التي تختص المكلف ولا تتعداه، والاتقاء الثاني هو اتقاء المعاصي السمعية، والاتقاء الثالث اتقاء مظالم العباد وما يتعدى إلى الغير من الظلم والفساد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بَشَىٰ مَنِ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ
وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

نزلت عام الحديبية، ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون، وكان قد كثر عندهم حتى أنّه كان يغشاهم في رحالهم، فيتمكّنون من صيده أخذاً بأيديهم وطعنًا برماحهم^(١).

﴿بَشَىٰ مَنِ الصَّيْدِ﴾ أي: بتحريم بعض الصيد، لأنّه عنى صيد البر خاصة، وأنهم ابتلوا بذلك كما ابتلي أمة موسى ﷺ بصيد البحر وهو السمك.

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ليميّز من يخاف عقاب الآخرة وهو غائب منتظر فيتقي الصيد ممن لا يخافه فيقدم عليه.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾ فصاد ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الابتلاء فالوعيد لاحق به.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا
فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ
الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا لِّذَوْقٍ وَبَالَ
أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلْسَّيَّارَةِ
وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

﴿الصَّيْدَ﴾ ما يصاد من الوحش، أكل أم لم يؤكل.

﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي: محرمون بحج أو عمرة، جمع حرام.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ وهو أن يقتله وهو ذاكراً لإحرامه، أو عالم بأن ما يقتله مما يحرم عليه قتله، وعن الزهري^(١): (نزل الكتاب بالعمد وجرت السنة في الخطأ)^(٢).

﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ برفع ﴿جَزَاءٌ﴾ و﴿مِثْلُ﴾، معناه: فالواجب عليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد. وقرئ: فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ على الإضافة، والأصل فيه: فجزاء مثل ما قتل بنصب مثل، ومعناه: فعليه أن يجزي مثل ما قتل، ثم أضيف المصدر إلى المفعول به.

﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، ويقال للإبل أيضاً: نَعَم وإن انفرد. وهذه المماثلة عند أئمة الهدى^(عليهم السلام) إنما تعتبر في الخلقة، ففي النعامة بدنة، وفي حمار

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله الزهري الفقيه المدني التابعي المعروف، توفي سنة ١٢٤ هـ على قول. ينظر: وفيات الأعيان ج ٣: ٣١٧، معجم رجال الحديث ج ١٧: ٢٨٦.

(٢) تفسير الطبري ج ٧: ٢٨.

الوحش وبقر الوحش بقرة، وفي الظبي والأرنب ونحوهما شاة^(١).

﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ أي: بمثل ما قتل.

﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: حكمان عدلان من الفقهاء ينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به، وقراءة السيدين الباقر والصادق عليهما السلام: ذُو عَدْلٍ مِّنكُمْ، المراد به الإمام.

﴿هَدِيًّا﴾ حال من ﴿جَزَاءٍ﴾ لآتِه تخصص بالصفة فأشبهه المعرفة، أو حال من الضمير في ﴿بِهِ﴾، أو بدل من محلّ ﴿مِثْلُ﴾ إذا جرته.

و﴿بَلَغَ الْكَعْبَةَ﴾ وصف له، أي: هدياً يبلغ الكعبة، ومعنى بلوغه الكعبة أن يذبح بالحرم. وقال أصحابنا: إذا كان محرماً بالعمرة ذبح أو نحر بمكة، وإن كان محرماً بالحج فبمنى^(٢).

﴿أَوْ كَفَّرةً﴾ معناه: أو الواجب عليه كفارة، وقرئ: أَوْ كَفَّارةً طَعَامَ مَسَاكِينَ. على الإضافة - وتقديره: أو كفارة من طعام مساكين، كقولك: خاتم فضة. والمعنى: خاتم من فضة. وهو أن يقوم الجزاء ويفض ثمنه على الخنطة ويتصدق به على كل مسكين نصف صاع.

﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ وعدل الشيء ما عادله من غير جنسه، وصياماً تمييز للعدل.

و﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الطعام وهو أن يصام عن كل نصف صاع يوماً. والخيار في هذه الكفارات الثلاث إلى قاتل الصيد، وقيل: هي مرتبة، وكلا

(١) ينظر: الوسائل ج ٩ باب ١ من أبواب كفارات الصيد.

(٢) الانتصار: ٢٥٢، الخلاف ج ٢: ٤٠٢.

القولين رواه أصحابنا^(١).

﴿لَيَذُوقَ﴾ متعلق بـ ﴿جَزَاءً﴾، والمعنى: فالواجب عليه أن يجازى ويكفر ليدوق سوء عاقبة فعله.

﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ لكم من الصيد في حال الإحرام يعني الدفعة الأولى.
﴿وَمَنْ عَادَ﴾ ثانية إلى قتل الصيد محرماً ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ تقديره: فهو ينتقم الله منه ويعاقبه بما صنع ولا كفارة عليه.

﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ أي: مصيداته ﴿وَطَعَامُهُ﴾ وما يطعم من صيده، والمعنى: أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر، وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده.

﴿مَتَعًا لَكُمْ﴾ مفعول له، أي: تمتعاً لكم، والمعنى: وأحل لكم طعام البحر تمتعاً لثنائكم^(٢) تأكلونه طرياً، ولسيارتكم يتزودونه قديداً. ص^(٣): وطعامه حل لكم وللسيارة.

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ
وَالْقُلُوبِ ذَلِكُمْ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ
الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوَلِيَ الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿١٠٠﴾

(١) تفسير العياشي ج ١: ٣٤٥.

(٢) تنأ بالبلد: قطن به وتوطئه فهو تانئ وهم تناء. (الصحاح: مادة تنأ)

(٣) كذا في جميع النسخ.

﴿أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ﴾ عطف بيان لـ ﴿الْكَعْبَةَ﴾.

﴿فَيَمَّا لِلنَّاسِ﴾ أي: لمعايش الناس ومكاسبهم يستقيم به أمور دينهم ودنياهم، لما يتم به من أمر حجّهم وعمرتهم وتجارتهم وأنواع منافعهم. وجاء في الأثر: (أنّه لو ترك عاماً واحداً لم يحج إليه لم ينظروا ولم يؤخروا)^(١)، ومعناه: يهلكوا.

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: والشهر الذي يؤدى فيه الحج وهو ذو الحجة، وقيل: عني به جنس الأشهر الحرم الأربعة، واحد فرد وثلاثة سرد^(٢). وهو عطف على ﴿الْكَعْبَةَ﴾ كما تقول: ظننت زيدا منطلقاً وعمراً.

﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَ﴾ أي: [والمقلد من الهدي]^(٣) خصوصاً، لأن الثواب فيه أكثر.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جعل الكعبة قياماً للناس.

﴿تَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ كل شيء فيعلم ما يصلحكم مما أمركم به.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلْغُ﴾ فيه تهديد وإيدان بأن الرسول قد بلغ ما وجب عليه تبليغه، وقامت عليكم الحجة فلا عذر لكم في التقصير.

أي: لا يستوي الحلال والحرام، والصالح والطالح، والصحيح من المذهب والفساد، فلا تعجبوا بكثرة الخبيث حتى تؤثره لكثرتة على الطيب القليل.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واختاروا الطيب وإن قلّ على الخبيث وإن كثر.

(١) عن ابن عباس. الدر المنثور ج ٢: ٥٦ بالمعنى.

(٢) عن الحسن. التبيان ج ٤: ٣٣.

(٣) ساقطة من ج.

يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ
وَأِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ
غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا
كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

أي: لا تكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم،
إن أفتاكم بها وكلّفكم إيّاها وجبت، وربّما غمّمكم ذلك وشقّ عليكم. وذلك نحو
ما روي: أنّ سراقه بن مالك^(١) أو عكاشة بن محصن^(٢) قال: يا رسول الله أفي كل
عام كتب الحج علينا؟ فأعرض عنه حتى أعاد المسألة ثلاثاً، فقال: ((ويحك وما
يؤمنك أن أقول: نعم! والله لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو
تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنّما هلك من هلك قبلكم بكثرة سؤالهم
واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن
شيء فاجتنبوه))^(٣).

﴿وَأِن تَسْأَلُوا﴾ عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي ﴿بُدَّ لَكُمْ﴾ تلك
التكاليف التي ﴿تَسْؤُكُمْ﴾ وتؤمروا بتحملها. وقيل: إنّ رجلاً يقال له: عبد الله سأل
رسول الله ﷺ فقال: من أبي؟ وكان يطعن في نسبه، فقال له ﷺ: حذافة. فنزلت^(٤).

(١) سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني، أسلم يوم الفتح، قيل إنه توفي سنة ٢٤ هـ. ينظر:
الإصابة ج ٢: ١٩.

(٢) عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي، شهد بدرًا وسائر المشاهد، قتله طليحة بن خويلد الأسدي
في الردّة. الاستيعاب ج ٣: ١٥٥.

(٣) ينظر: تفسير الطبري ج ٧: ٥٣.

(٤) تفسير الطبري ج ٧: ٥٢.

﴿عَفَا اللَّهُ﴾ عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبته.

﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ أي: قد سأل هذه المسألة قوم من الأولين.

﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ أي: بمرجوعها أو بسببها ﴿كَافِرِينَ﴾ وذلك أن بني

إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا.

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا
عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ هُمُ الْيَاكُوفُونَ ﴿١٠٤﴾

البحيرة: الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان آخرها ذكراً بحروا أذنها أي:

شقوها وحرّموا ركوبها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، ولو لقيها المعبي لم يركبها.

والسائبة: ما كانوا يسيبونه، كان الرجل يقول: إذا قدمت من سفري أو

برئت من مرضي فناقتي سائبة، فكانت كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها. وكان

الرجل إذا أعتق عبداً قال: هو سائبة ولا عقل بينهما ولا ميراث، وكانوا يسيبونها

لطواغيتهم ولسدنة الأصنام.

والوصيلة في الغنم: كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً

ذبحوه لأهلتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر

لأجلها.

والحامي: هو الفحل إذا نتجت من صلبه عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره،

فلا يركب ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

ومعنى ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾: ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير ولا بالتسيب ولا غير ذلك، ولكنهم بتحريمهم ما حرّموا ﴿يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يدعون أنّ الله حرّمها.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أنّ ذلك افتراء وكذب، يعني الاتباع للذين يقلّدون في تحريمها رؤساءهم.

والواو في قوله: ﴿أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ﴾ واو الحال دخل عليه همزة الاستفهام التي للإنكار، والتقدير: أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ والافتداء إنّما يصح بالعالم المهتدي، ولا يعرف ذلك إلا بالدليل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا
أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿عَلَيْكُمْ﴾ من أسماء الأفعال ومعناه: إلزموا صلاح أنفسكم، وقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ جواب الأمر وهو مجزوم، وإنّما ضمت الراء إتباعاً لضمّة الضاد، والأصل: لا يضرركم، وقرئ: لا يضركم - بكسر الضاد وضمها - من ضاره يضره ويضوره. ويجوز أن يكون خبراً مرفوعاً.

والمعنى: لا يضرركم ضلال ﴿مَن ضَلَّ﴾ عن دينكم ﴿إِذَا﴾ كنتم مهتدين، وهو مثل قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾^(١). وكان المؤمنون يتأسفون حسرة على أهل العناد من الكفار، يتمنون دخولهم في الإسلام فخطبوا بذلك. وعن ابن مسعود أنّها قرئت عنده فقال: (إنّ هذا ليس بزمانها، إنّها اليوم مقبولة،

ولكن يوشك أن يأتي زمان تأمرون فلا يقبل منكم، فحيثئذ عليكم أنفسكم^(١). فهو على هذا تسلية لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلا يقبل منه، وبسط لعذره.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْدِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْوَلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ مبتدأ، و﴿اثْنَانِ﴾ خبره، والتقدير: شهادة [بينكم شهادة]^(٢) اثنين. وأضيف المصدر الذي هو ﴿شَهَادَةُ﴾ إلى (بين) فجعل الظرف اسماً اتساعاً. و﴿إِذَا حَضَرَ﴾ ظرف للشهادة و﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ بدل منه، وفي إبداله منه دلالة على وجوب الوصية عند حضور الموت وظهور إماراته، لأنَّ زمان حضور أسباب الموت جعل زمان الوصية.

﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: إن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم رجلان عدلان.

﴿مِّنْكُمْ﴾ أي: من المسلمين فاستشهدوا على الوصية آخرين.

﴿مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من أهل الذمة.

وروي: إن ثلاثة نفر خرجوا تجاراً من المدينة إلى الشام: تميم بن أوس وعدي بن زيد - وهما نصرانيان - وابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص، فمرض ابن أبي مارية وكتب كتاب وصية فيه ما معه من المتاع ودس كتابه في متاعه ولم يخبر به

(١) تفسير الطبري ج ٧: ٦٢.

(٢) ساقطة من ج.

صاحبيه، وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله ومات، ففتشا متاعه وأخذوا إناء من فضة، ثم رجعا بالمال إلى الورثة، فوجدوا الكتاب فطالبوهما بالإناء فجحدوا، فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ فنزلت^(١).

قوله: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ معناه: تقفونها ليحلفا.

﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي: من بعد صلاة العصر وقت اجتماع الناس، وقيل: أو الظهر^(٢)، وقيل: من بعد صلاة أهل دينهما يعني: الذميين^(٣).

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ في شهادتهما وشككتم واتهمتموهما، فقوله: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ اعتراض بين القسم والمقسم عليه وهو قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ أي: لا نستبدل بتحريف شهادتنا ذا ثمن، فحذف المضاف في الموضعين، لأنّ من المعلوم أن المبيع يشتري دون ثمنه. وقيل: إنّ الضمير في ﴿بِهِ﴾ للقسم، يعني: لا نستبدل بالقسم بالله عرضاً من الدنيا، أي: لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ الضمير في ﴿كَانَ﴾ للمقسم له، أي: ولو كان من نقسم له قريباً منا، ولا نحابي في شهادتنا أحداً.

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ التي أمرنا الله بحفظها وألزمنا أدائها. ورووا عن علي عليه السلام والشعبي الوقف على ﴿شَهَادَةَ﴾ وابتداء (ءالله) بالمد على طرح حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه، وروي أيضاً بغير مد، وذلك على ما ذكره سيبويه: أنّ منهم من يحذف حرف القسم ولا يعوض منه همزة الاستفهام فيقول:

(١) أسباب النزول: ١٤٦.

(٢) عن الحسن. معالم التنزيل ج ١: ٣٠٤.

(٣) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ٧: ٧٢.

الله لقد كان كذا^(١).

﴿إِنَّا إِذَا﴾ أي: إن فعلنا ذلك ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾.

فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا أَعْتَدَيْنَا إِثْمًا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

أي: ﴿فَإِنْ﴾ اطلع ﴿عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي: فعلا ما يوجب إثماً واستوجبا أن يقال: إنهما من ﴿الْآثِمِينَ﴾ بخيانتها.

﴿فَأَخْرَانِ﴾ أي: فشاهدان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ الإثم، والمعنى: من الذين جني عليهم وهم أهل الميت وعشيرته، وفي الحديث: أنه لما عثر على خيانة الرجلين، ووجد الإثاء بمكة بعد أن استحلفهما رسول الله ﷺ عند المنبر، حلف رجلان من ورثته أنه إثناء صاحبهما، وأنهما خانا وكذبا فدفع الإثاء إليهما^(٢).

و﴿الْأَوَّلِينَ﴾ الأحقّان بالشهادة لقرابتهما، وارتفاعهما على أنهما بدل من ﴿ءَاخِرَانِ﴾، أو من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾، أو على (هما الأوليان) كأنه قيل: ومن هما؟ فقيل: ﴿الْأَوَّلِينَ﴾. وقرئ: الأولين على أنه وصف لـ ﴿الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ على البناء للفاعل، ومعناه: من الورثة الذين استحقّ عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوها عن القيام بالشهادة، ويظهروا بهما كذب الكاذبين.

(١) ينظر: الكتاب ج ٣: ٤٩٩.

(٢) ينظر: الكشف والبيان ج ٤: ١٢٠.

﴿فَيْقْسِمَانِ﴾ أي: يحلفان ﴿يَاللَّهِ لَشَهَدُنَا﴾ وقولنا في وصية صاحبنا ﴿أَحَقُّ﴾ بالقبول ﴿مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا﴾ وقولهما ﴿وَمَا أَعْتَدَيْنَا﴾ وما جاوزنا الحق فيما طلبناه من حقنا.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي تقدّم من بيان الحكم.

﴿أَدْنَى﴾ أي: أقرب إلى أن يأتي الشهداء على نحو تلك الحادثة ﴿يَالشَّهَدَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا﴾.

﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ﴾ أي: أو أقرب إلى أن يخافوا أن تكثر أيمان شهود آخرين ﴿بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ فيفتضحوا بظهور كذبهم كما جرى في هذه القصة، فربما لا يحلفون كاذبين ويتحفظون في الشهادة مخافة ردّ اليمين إلى المستحقّ عليهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تحنونا وتحلفوا كاذبين.

﴿وَأَسْمِعُوا﴾ سمع إجابة وقبول.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ
وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ
وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي
وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ ظرف لقوله: ﴿لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يهديهم طريق الجنة يومئذ

كما يهدي غيرهم، أو يوم يجمع الله الرسل يكون كذا وكذا، أو نصب بـ (اذكر).
﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: أيّ إجابة أُجبتُم؟ وهذا السؤال توبيخ لقومهم،
ولذلك ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ وكلوا الأمر إلى علمه بسوء إجابتهم، ولجأوا إليه في
الانتقام منهم، وقيل: معناه: أنت أعلم بحالهم منا، فعلمنا مغمور بعلمك وساقط
معه لأنك ﴿عَلِمَ الْغُيُوبِ﴾، وقيل: معناه: لا علم لنا بما كان منهم بعدنا^(١).

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ والمعنى: إنه يوبّخ الكافرين يومئذ
بسؤال الرسل عن إجابتهم، وبتقرير ما أظهر على أيديهم من الآيات والمعجزات
فكذبوهم أو اتخذوهم آلهة.

﴿أَيَّدْتَنَا﴾ قوّيتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بجبرئيل عليه السلام، وقيل: بالكلام الذي
يحيا به الدين.

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ طفلاً ﴿وَكَهْلًا﴾، و﴿فِي الْمَهْدِ﴾ في موضع الحال،
والمعنى: تكلمهم في هاتين الحالتين من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة
وحين الكهولة الذي هو وقت بلوغ الأشدّ، والحدّ الذي يستنبأ فيه الأنبياء.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ أي: الكتابة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الكلام المحكم، وقيل:
المراد بهما جنس الكتاب والحكمة، وخص ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ مما تناولاها.
﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ أي: تصوّر وتقدر.

﴿مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: هيئة مثل هيئة الطير الذي تريد.

﴿بِإِذْنِي﴾ بأمرى وتسهيلي.

﴿فَتَنْفُخُ﴾ الضمير للكاف، لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى وينفخ

فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ونفخه في شيء، وكذلك الضمير في ﴿فَتَكُونُ﴾.

وإذ تبرئ ﴿الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ نسب ذلك إليه لما كان بدعائه وسؤاله.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ من القبور حتى يشاهدتهم الناس أحياء.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ يعني: اليهود حين هموا بقتله.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا آمَنَّا
وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ
مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أي: ألهمتهم، وقيل: ألقيت إليهم بالآيات

التي أريتهم إياها^(١)، وقيل: أمرتهم على السنة الرسل^(٢).

﴿مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون، من أسلم وجهه لله.

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ﴾ معناه: هل يفعل ذلك ربك بمسألتك إياه

ليكون علماً على صدقك؟ وقيل: معناه: هل يقدر ربك^(٣)، وإنما قالوه قبل أن

تستحكم معرفتهم بالله وصفاته، ولذلك قال عيسى عليه السلام لهم: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا

تشكوا في اقتداره واستطاعته، ولا تقترحوا عليه ما تشتهون من الآيات فتهلكوا

(١) معاني القرآن وإعرابه ج ٢: ٢١٩.

(٢) الكشف ج ١: ٦٩٢.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ج ٢: ٢٢٠.

٨٢..... جوامع الجامع / ج ٢

إذا عصيتموه بعدها. وقرأ الصادق (عليه السلام): هل تستطيع ربك، أي: هل تستطيع سؤال ربك. والمائدة: الخوان يكون عليه الطعام، وهي من ماله أي: أعطاه.

﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، أو من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوة عاكفين عليها، ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا﴾ في موضع الحال.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْرَازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ
فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

ثم سأل عيسى (عليه السلام) وأجيب إلى ذلك ليلزموا الحجة ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا.

﴿اللَّهُمَّ﴾ أصله يا الله، ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان.

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ [أي: يكون يوم نزولها عيداً^(١)] وهو يوم الأحد ومن ثم اتخذته النصرارى عيداً، وقيل: العيد: السرور العائد ولذلك يقال: يوم عيد، أي: تكون لنا سروراً وفرحاً.

﴿لَأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من ﴿لَنَا﴾ بتكرير العامل، أي: لمن في زماننا من أهل ديننا ولمن يأتي بعدنا، وقيل: معناه: يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم^(٢)، وقيل: للمتقدمين منا والأتباع.

﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي: ودلالة منك عظيمة الشأن تدل على توحيدك وصحة

(١) ساقطة من ط.

(٢) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ٧: ٨٦.

نبوة نبيك.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ أي: بعد إنزالها عليكم.

﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أي: تعذيباً.

﴿لَا أُعَذِّبُهُ﴾ الضمير للمصدر، ولو أريد ما يعذب به لم يكن بد من الباء.

وروي: أن عيسى عليه السلام لبس صوفاً وقال: اللهم أنزل علينا مائدة، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون إليها، فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، وكشف المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك وعند رأسها ملح وعند ذنبها خلّ وحولها من ألوان البقول ما عدا الكراث^(١)، وقيل: نزلت الملائكة بها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم^(٢). وعن الحسن: (إنّ المائدة ما نزلت، ولو نزلت لكان عيداً إلى يوم القيامة لقوله: ﴿وَأَخِرْنَا﴾)^(٣).

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي
وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي
نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ

(١) الدر المنثور ج ٢: ٣٤٦.

(٢) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ٧: ٨٥.

(٣) تفسير الطبري ج ٧: ٨٧.

عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ
وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

المعنى: ﴿إِذْ﴾ يقول ﴿اللَّهُ﴾ يوم القيامة: ﴿يَعِيسَى﴾ وهو استفهام يراد به
التفريع لمن ادعى ذلك عليه من النصارى، واستعظام لذلك القول.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ من أن يكون لك شريك.

﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ﴾ قولاً لا يحق لي أن أقوله وأنا عبد
مثلهم، وإنما تحق العبادة لك وحدك.

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ أي: في قلبي، والمعنى: تعلم معلومي ولا أعلم
معلومك، وإنما قال: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ سلوكاً بالكلام طريق المشاكلة.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين معاً، لأن ما انطوت عليه النفوس
من جملة الغيوب، ولا ينتهي علم أحد إلى ما يعلمه سبحانه.

﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هي (أن) المفسرة، ومعناه: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به.

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: رقيباً كالشاهد على المشهود عليه أمنعهم من أن
يقولوا ذلك ويعتقدوه.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ تمنعهم من القول به بما نصبت لهم
من الأدلة، وأرسلت إليهم من الرسل.

﴿إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الذين عرفتهم عاصين مكذبين لرسلك منكبين
ببيناتك.

﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على العقاب والثواب.

﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلها إلا عن حكمة وصواب. والمعنى: إن غفرت

لهم مع كفرهم بالمغفرة حسنة في العقل لكل مجرم، وكلما كان الجرم أعظم فالعفو عنه أحسن.

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

﴿هَذَا يَوْمٌ﴾ بالرفع والإضافة، وبالنصب: إما على أنه ظرف لـ ﴿قَالَ﴾ وإما على أن ﴿هَذَا﴾ مبتدأ والظرف خبر. والمعنى: هذا الذي ذكرناه من كلام عيسى واقع يوم ﴿يَنْفَعُ﴾، ولا يجوز أن يكون فتحاً كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾^(١) لأنه مضاف إلى متمكن. والمعنى: ﴿يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ ما صدقوا فيه في دار التكليف، وقيل: تصديقهم لأنباء الله وكتبه^(٢)، وقيل: صدقهم في الشهادة لأنباءهم بالبلاغ^(٣).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نزه سبحانه نفسه عن قول النصارى، وإنما قال: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ ولم يقل: (ومن فيهن) تغليبا للعقلاء، لأن (ما) يتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً، فلو أبصرت شخصاً من بعيد قلت: ما هو؟ قبل أن تعرف أمن العقلاء هو أو من غيرهم، فكان لفظة (ما) بإرادة العموم أولى.

(١) الانفطار: ١٩.

(٢) تفسير الماوردي ج ٢: ٩٠.

(٣) تفسير الماوردي ج ٢: ٩٠.

سورة الأنعام

مكية غير آيات ست، وهي مائة وخمس وستون آية كوفي، ست بصري، ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ كوفي، ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ و﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ غيرهم. وفي حديث أبي: ((أنزلت عليّ (الأنعام) جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فمن قرأها صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من الأنعام يوماً وليلة))^(١). وروى الحسين بن خالد^(٢) عن الرضا عليه السلام مثل ذلك، إلا أنّه قال: ((سَبَّحُوا لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ
ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾

﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أي: أنشأهما وأحدثهما، والفرق بين الخلق والجعل:

(١) الكشف والبيان ج ٤: ١٣١.

(٢) الحسين بن خالد الصيرفي من أصحاب الرضا عليه السلام، وعده البرقي من أصحاب الامام الكاظم عليه السلام.

ينظر: معجم رجال الحديث ج ٥: ٢٣٢.

(٣) تفسير القمي ج ١: ١٩٣.

أَنَّ الخلق فيه معنى التقدير، والجعل فيه معنى التصيير كإنشاء شيء من شيء، أو
تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(١)،
﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، و﴿جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٢). والمعنى: إِنَّهُ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ﴾ وما اشتملا عليه من أجناس المخلوقات، وأنشأ الليل والنهار وما لا يقدر
عليه سواه، ثم إنَّهم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. وهذا استبعاد لفعلهم.
وكذلك ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لأن يمتروا فيه بعد أن ثبت أنه محيهم
وميتهم وباعثهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ معناه: كتب وقدر أجلاً، يعني: أجل الموت، ﴿وَأَجَلَ
مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أجل القيامة. وقيل: الأجل الأوَّل ما بين أن يخلق إلى أن يموت،
والثاني ما بين الموت والبعث^(٣).

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا
تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾

﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ متعلق بمعنى اسم الله، كأنه قيل: وهو المعبود فيهما، ومثله
قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾^(٤)، أو هو المعروف بالإلهية أو
المتوحد بالإلهية فيهما.

(١) الأعراف: ١٨٩.

(٢) فاطر: ١١.

(٣) عن الحسن. تفسير الطبري ج ٧: ٩٤.

(٤) الزخرف: ٨٤.

وعلى هذا فقلوه: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ تقرير له، لأن من استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده.

ويجوز أن يكون ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن و﴿اللَّهُ... يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ مبتدأ وخبراً. و﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ يتعلّق بـ﴿يَعْلَمُ﴾. ويجوز أن يكون ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ خبراً بعد خبر، على معنى أنه الله، وأنه في السماوات والأرض، بمعنى أنه عالم بما فيها لا يخفى عليه شيء منه، فكأن ذاته فيها؛ و﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، خبر ثالث، أو كلام مبتدأ بمعنى: هو يعلم سركم وجهركم.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشر ويثيب عليه ويعاقب.

و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ للاستغراق، وفي ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ للتبعية، أي: وما يظهر لهم دليل من الدلائل التي يجب فيها النظر وبها يحصل الاعتبار ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يلتفتون إليه ولا يستدلون به.

﴿فَقَدْ كَذَبُوا بِالْحَقِّ﴾ الذي اتّهم به محمد ﷺ وهو القرآن الذي تحدّوا به فعبجوا عنه.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ أخبار الشيء الذي استهزؤوا به وهو القرآن، أي: سيعلمون بأي شيء استهزؤوا في الآخرة أو في الدنيا.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

مكّن له في الأرض: جعل له مكاناً، ومكّنه في الأرض: أثبته فيها، ومنه

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي مَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾^(١)، ولتقارب المعنيين جمع بينهما في قوله: ﴿مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾.

والمعنى: ﴿أَمْ﴾ ير كفار قريش ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ﴾ أمة، وكل أمة مقترنة في وقت قرن، أعطيناهم من البسطة في الأجسام والسعة في الأموال ما لم نعظكم. عدل عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ يعني: المطر هنا ﴿عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا﴾ مغزاراً، والمراد به: الغيث والبركة.

﴿وَأَنشَأْنَا﴾ وخلقنا من بعد هلاكهم أمة أخرى. وفيه دلالة على أنه سبحانه لا يتعاضده أن يفني عالماً وينشئ عالماً آخر كقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾^(٢).

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤَيَّنٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْنَهَزْنَاهُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

﴿كِتَابًا﴾ أي: مكتوباً.

﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ في صحيفة.

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ولم تقتصر بهم على الرؤية والمعاينة لئلا يقولوا: سكرت أبصرنا، لقالوا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ﴾ لعظم عنادهم وقسوة قلوبهم.

(١) الأحقاف: ٢٦.

(٢) الشمس: ١٥.

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ أي: هلا أنزل على محمد ﴿مَلَكٌ﴾ نشاهده فنصدّقه.

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ على ما اقترحوا ﴿لَقَضَى الْأَمْرُ﴾ أي: لقضي أمر إهلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ بعد نزوله طرفه عين، لأنهم لا يؤمنون عند مشاهدة تلك الآية التي لا شيء أبين منها فتقتضي الحكمة استئصالهم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ أي: ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوه.

﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأرسلناه في صورة رجل، كما كان ينزل جبرئيل على رسول الله ﷺ في أحوال في صورة دحية الكلبي^(١).

﴿وَاللَّبَّسْنَا﴾ واخلطنا ﴿عَلَيْهِمْ مَّا﴾ يخلطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة رجل: هذا إنسان وليس بملك، وكذبوه كما كذبوا محمداً ﷺ، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما أنهم مخذولون اليوم، فهذا لبس الله عليهم. ﴿وَلَقَدْ أَسْهَزَيْ﴾ تسلية للنبي ﷺ عما كان يلقاه من قومه.

﴿فَحَاقَ﴾ بهم فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به وهو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به، وقيل: فأحاط بهم العذاب الذي يسخرون من وقوعه^(٢).

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنْ
عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفْرَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ

(١) دحية بن خليفة بن فروة الكلبي، كان من كبار الصحابة، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وهو رسول النبي ﷺ إلى قيصر، بقي إلى زمن معاوية. ينظر: الاستيعاب ج ١: ٤٧٢.

(٢) عن السدي. تفسير الطبري ج ٧: ٩٨.

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي
الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾

﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سافروا فيها ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾ بأبصاركم وتفكروا
بقلوبكم ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ المستهزئين بالرسل من الأمم السالفة.
﴿لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سؤال تبكيت.

و﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ تقرير لهم، أي: هو الله لا خلاف بيني وبينكم في ذلك، ولا
تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره.

﴿كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته،
ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم تعترفون به من خلق السماوات والأرض،
وقيل: أوجب الرحمة على نفسه في إمهال عبادته ليتداركوا ما فرط منهم ويتوبوا^(١)،
وقيل: كتب الرحمة لأمة محمد ﷺ بأن لا يعذبهم في الدنيا بعذاب الاستئصال بل
يؤخرهم إلى يوم القيامة^(٢).

ثم فسر الرحمة بقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ على ما ذكرنا أن المراد
به إمهال العاصي ليتوب أو تأخير عذابهم، وقيل: إنه وعيد على كفرهم وتركهم
النظر، ومعناه: ليجمعن آخركم إلى أولكم قرناً بعد قرن ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾
فيجازيكم على شرككم.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قيل: هو بدل من الكاف والميم في ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾،
وعلى هذا فلا يجوز الوقف على ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. والصواب: الوقف والابتداء بـ
﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. والمعنى: الذين خسروا أنفسهم

(١) معاني القرآن وإعرابه ج ٢: ٢٣١.

(٢) تفسير ابن عباس ج ٢: ٦.

لاختيارهم الكفر فهم لا يصدقون بالحق.

و﴿لَهُ﴾ عطف على ﴿لِلَّهِ﴾.

﴿مَاسَكَنَ﴾ وتمكن ﴿فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ذكر في الأول السماوات والأرض، وذكر هنا الليل والنهار، فالأول يجمع المكان والثاني يجمع الزمان، وهما ظرفان لجميع الموجودات من الأجسام والأعراض. فالمراد بالسكون هنا الحلول والسكنى.

قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُمِينُ ﴿١٦﴾

الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي، فلذلك أولاه همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو ﴿اتَّخَذُ﴾ ونحوه: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾^(١).

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: منشئها وخالقها من غير احتذاء على مثال.

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: وهو يرزق ولا يرزق. والمعنى: إن المنافع كلها

من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ أي: أمرني ربي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي

سابق أمته في الإسلام، كقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ أي: وقيل لي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الله الرحمة العظمى وهي النجاة، كما تقول: من أطعمته من جوع فقد أحسنت إليه، تريد فقد أتممت الإحسان إليه. أو فقد أثابه وأدخله الجنة، لأن من لم يعذب فلا بد أن يثاب. وقرئ: من يَصْرِفُ عنه - على البناء للفاعل .. والمعنى: من يصرف الله عنه في ذلك اليوم أي: من يدفع الله عنه ويحفظه، وترك ذكر المصروف وهو العذاب، لكونه معلوماً ومذكوراً قبله.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ
يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ
عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلْ اللَّهُ
شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ
أَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ
إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من مرض أو فقر أو مكروه ﴿فَلَا﴾ قادر على كشفه ﴿إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من صحة أو غنى ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على إدامته وإزالته.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ هذا تصوير للقهر والعلو بالغلبة والقدرة، كقوله: ﴿وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾^(١) يريد أنهم تحت تسخير وتذليله.

و﴿الْخَبِيرُ﴾ العالم بكل ما يصح أن يخبر به.

والشيء أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه.

﴿قُلْ أَىُّ شَيْءٍ﴾ أعظم ﴿شَهَدَةٍ﴾ وأصدق.

﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالنبوة وبتبليغ الرسالة إليكم وتكذيبكم

إيائي.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ﴾ حجة ودلالة على صدقي.

﴿لَا تُنذِرُكُمْ بِهِ﴾ لأخوفكم به من عذاب الله.

﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: ولأنذر به من بلغه إلى يوم القيامة. وروي عنهم عليهم السلام أن

المعنى: ((ومن بلغ أن يكون إماماً من آل محمد فهو ينذر - أيضاً - بالقرآن))^(٢).

﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ استفهام إنكاري، أي: كيف تشهدون ﴿أَنْتَ مَعَ اللَّهِ

ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ بعد قيام الحجة بوحدانية الله تعالى؟! ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ بإثبات الشريك

له.

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان وغيرها. وهذه

شهادة بالوحدانية، وبراءة من كل دين يؤدي إلى الشرك.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ ﴿٣١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيَنَ

(١) الأعراف: ١٢٧.

(٢) تفسير العياشي ج ١: ٣٥٦.

شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ
قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

وقرى: ويوم يحشرهم، ثم يقول - بالياء - أي: يحشرهم الله.
﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها تنفعكم، وأضيف الشركاء إليهم لأنهم
اتخذوها لأنفسهم.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ﴾ أي: كفرهم، أي: لم تكن عاقبة كفرهم وشركهم إلا
جحوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء منه. وقيل: معناه: لم تكن معذرتهم حين
وبّخوا بشركهم، أو لم يكن جوابهم حين سئلوا واختبر ما عندهم بالسؤال إلا هذا
القول^(١). وقرئ: لم تكن - بالتاء - وفتنتهم - بالنصب -.

وإنما أنت ﴿أَنْ قَالُوا﴾ لوقوع الخبر مؤثلاً كقولهم: من كانت أمك، وقرئ
بالياء ونصب الفتنة. وقرئ بالتاء ورفع الفتنة، وقرئ: ربنا - بالنصب - على الدعاء
والنداء.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يفترون إلهيته وشفاعته، وإنما يصح وقوع
الكذب منهم مع اطلاعهم على حقائق الأمور ومعارفهم الضرورية، لما يلحقهم
من الدهش والحيرة من أهوال ذلك اليوم وشدائده، والمبتلى قد ينطق بما لا ينفعه
من غير روية وفكر في عاقبة.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي
ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ

(١) عن قتادة. تفسير الطبري ج ٧: ١٠٦.

يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ
وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

روي أنه اجتمع الوليد بن المغيرة وأبو جهل وأبو سفيان والنضر وعتبة وشيبة وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيته - يعني الكعبة - ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثتكم، وقال أبو سفيان: لا، أراه حقاً، فقال أبو جهل: كلا، فنزلت^(١).

والأكنة على القلوب والوقر في الآذان، مثل في نبو^(٢) قلوبهم وأسماعهم عن قبوله.

وأسند الفعل إلى نفسه في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ ليدل على أنه أمر ثابت مستقر فيهم كأنهم مجبولون عليه، أو هو حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾^(٣).

﴿مُجَادِلُونَكَ﴾ في موضع الحال، و﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تفسير لجدهم. والمعنى: إنه بلغ تكذيبهم بالآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك، ويجعلون كلام الله الذي هو أصدق الحديث أكاذيب وخرافات، وهي الغاية في التكذيب.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ﴾ الناس عن القرآن، أو عن الرسول واتباعه، ويشبطونهم عن التصديق به.

(١) أسباب النزول: ١٤٧ باختصار.

(٢) النبؤ: التجافي والتباعد. (الصحيح: مادة نبا)

(٣) فصلت: ٥.

﴿وَيَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأنفسهم فيضلُّون ويضلُّون.

وما ﴿يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ ولا يتعدى ضررهم إلى غيرهم وإن ظنوا أنهم يضرُّون رسول الله ﷺ.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيِّنُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾

جواب ﴿لَوْ تَرَىٰ﴾ محذوف، والتقدير: لرأيت أمراً فظيعاً. والمعنى: ولو ترى إذ أُطلعوا على النار حتى يعاينوها، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها، من قولك: وقفته على كذا: إذا عرفته وفهمته، ﴿فَقَالُوا يَلَيِّنُنَا نُرَدُّ﴾ تم هنا تمنيتهم.

ثم ابتدأوا ﴿وَلَا نَكْذِبُ﴾ [أي: ونحن لا نكذب] ^(١) ﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ ونؤمن. ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿نُرَدُّ﴾، أو حالاً على معنى: يا ليتنا نردَّ غير مكذِّبين وكائنين من المؤمنين، فيدخل تحت حكم التمتي. وقرئ: ولا نكذب ونكون - بالنصب - بإضمار (أن) على جواب التمتي، ومعناه: إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين.

﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ﴾ من الناس من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم، فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً، لا أنهم عازمون على أنهم لو رددوا لآمنوا، بل ﴿لَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما وعدوا من أنفسهم لا يوفون به.

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ

وَقِفُّوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿قَالُوا﴾ عطف على قوله: ﴿لَعَادُوا﴾ أي: ولو ردّوا لكفروا وقالوا: ما
﴿هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ كما كانوا يقولونه قبل معاينة القيامة، أو عطف على قوله:
﴿وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [أي: وهم كاذبون] ^(١) في كل شيء، وهم الذين قالوا ذلك.
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقِفُّوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين
يدي مولاه. وقيل: وقفوا على جزاء ربهم ^(٢)، وقيل: عرفوه حق التعريف ^(٣) كما
يقال: وقفته على كلام فلان، أي: عرفته إيّاه.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ هذا تعبير من الله لهم على تكذيبهم بالبعث.
﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفركم.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا
يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا
سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ ببلوغ الآخرة وما يتصل بها من الجزاء، و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لـ
﴿كَذَبُوا﴾ أي: دام تكذيبهم إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة.
﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، وانتصابها على الحال بمعنى: باغته، أو على المصدر

(١) ساقطة من ط.

(٢) التبيان ج ٤: ١٢٠.

(٣) التبيان ج ٤: ١٢١.

بمعنى: بغتتهم بغتة.

﴿فَرَطْنَا فِيهَا﴾ الضمير للحياة الدنيا وإن لم يجر لها ذكر للعلم بها، أو للساعة على معنى: قصّرنا في شأنها، نحو قوله: ﴿فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(١).

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ هو مثل قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾^(٢)، لأنّ الأثقال تحمل على الظهر في العادة، كما أنّ الكسب يكون بالأيدي.

﴿سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس شيئاً يزرون وزرهم، حذف المخصوص بالذم.

وجعل سبحانه أعمال الدنيا لعباً وهواً، لأنّها لا تجدي ولا تعقب نفعاً كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة، وقرئ: وَلَدَارُ الْآخِرَةِ، وتقديره: ولداد الساعة الآخرة، لأنّ الشيء لا يضاف إلى نفسه.

وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ يَنْتَقُونَ﴾ دليل على أنّ ما سوى أعمال المتقين لعب وهو.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بِعَايَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى
مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ
مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

﴿قَدْ﴾ هاهنا بمنزلة (ربّما) الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته، والهاء في ﴿إِنَّهُ﴾

ضمير الشأن.

و ﴿لَيَحْزَنُكَ﴾ قرئ بفتح الياء وضم الزاي، وبضم الياء وكسر الزاي.

و ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ هو قولهم: شاعر مجنون، وساحر كذاب.

(١) الزمر: ٥٦.

(٢) الشورى: ٣٠.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف، من كذبه: إذا جعله كاذباً، وأكذبه: إذا وجده كاذباً، والمعنى: إنهم لا يكذبونك في الحقيقة، وإنما يكذبون الله لأنك رسوله المصدق بالمعجزات، فتكذيبك راجع إليه وإلى جحود آياته، وهذا تسلية له ﷺ. وقيل: معناه: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يحدون بألسنتهم^(١) كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(٢).

﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أقام الظاهر مقام الضمير ليدل على أنهم ظلموا في جحودهم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وعن علي عليه السلام أنه قرئ عنده: ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ فقال: ((بلى والله فقد كذبه، ولكن لا يكذبونك: لا يأتون بحق أحق من حقك))^(٣).
﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ﴾ تسلية أيضاً.

﴿فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَبُوا وَأَوْدُوا﴾ أي: على تكذيبهم وإيذائهم ﴿حَتَّى﴾ جاءهم ﴿نَصْرُنَا﴾ إياهم على المكذبين.

﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لمواعيده من قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾^(٤).

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من قومهم.

وَأِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ

(١) عن قتادة. تفسير الطبري ج ٧: ١١٥.

(٢) النمل: ١٤.

(٣) الكافي ج ٨: ٢٠٠ باختلاف.

(٤) الصافات: ١٧١، ١٧٢.

عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ
يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا
نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّا اللَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ نُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّا
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

كان يعظم على النبي ﷺ إعراض قومه عن الإيمان وقبول دينه فنزلت^(١)،
ونحوه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾^(٢).

﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ أي: إن قدرت وتها لك ﴿أَنْ﴾ تطلب ﴿تَفْقَافِي الْأَرْضِ﴾
أي: سرباً ومنفذاً تنفذ فيه إلى ما تحتها حتى تطلع لهم آية يؤمنون عندها.
﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ﴾ منها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ [فافعل، أي: إنك لا تستطيع
ذلك، وحذف جواب (إن)، وقيل: فتأتيهم بآية]^(٣) أفضل مما آتيناهم به، يريد أنه
لا آية أفضل منه^(٤).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُم عَلَى الْهُدَىٰ﴾ بأن يأتيهم بآية ملجئة، ولكنه لا يفعل
لخروجه عن الحكمة.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ﴾ الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه.
﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ والذين تحرص على إيمانهم بمنزلة الموتى
الذين لا يسمعون، ثم وصف ﴿الْمَوْتَىٰ﴾ بأنه ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ من القبور يوم القيامة
ويحكم فيهم.

(١) الكشف والبيان ج ٤: ١٤٥ بالمعنى.

(٢) الكهف: ٦.

(٣) ساقطة من ج.

(٤) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ٧: ١١٧.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ فحيثُذ يسمعون، وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى إسماعهم.
 ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ تركوا الاعتداد بما نزل عليه من آيات الله
 والمعجزات مع كثرتها، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم.
 ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ تضطربهم إلى الإيمان كنتق الجبل على بني
 إسرائيل ونحوه، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب.
 ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه سبحانه يقدر عليه، وأن صارفاً من
 الحكمة يصرف عنه.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا
 فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ
 كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ
 يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

جمع بهذين القولين جميع الحيوانات، لأنها لا تخلو من أن تكون مما يدب على
 الأرض أو مما يطير.

﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها، كما كتبت أرزاقكم
 وآجالكم وأعمالكم، وقيل: أشباهكم في أن الله أبدعها، وفي دلالتها على وحدانيته،
 وفي أنهم يموتون ويحشرون.
 ﴿مَا فَرَطْنَا﴾ ما تركنا.

﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ.

﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب إثباته مما يختص به، وقيل:
 المراد بالكتاب القرآن، لأنه تعالى ذكر فيه جميع ما يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا،

إما مجماً وإما مفصلاً^(١).

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني الأمم كلها فيعوزونها ويتنصف لبعضها من بعض، وفيه دلالة على عظم قدرته ولطف تدبيره في الخلائق المختلفة الأجناس وحفظه لما لها وعليها، وأن المكلفين لم يختصوا بذلك دون من سواهم.

ولما ذكر من خلائقه ما يشهد لربوبيته قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ﴾ أي: صم لا يسمعون كلام المنبه.

﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحق، خابطون في ظلمات الكفر، فهم غافلون عن تأمل ذلك.

﴿وَمَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ أي: يخذله ولا يلطف به، لأنه ليس من أهله.

﴿وَمَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: يلطف به لأنه من أهله.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ

تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ

إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ معناه: أخبروني، و(كم) لا محل له من الإعراب، لأنك تقول:

أرأيتك زيدا ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلاً لكنت كأنك تقول: أرأيت نفسك

زيداً ما شأنه، وذلك فاسد. والمعنى: أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ

أَتَتْكُمُ﴾ القيامة من تدعون؟، ثم بكتهم بقوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي: أتخصون

أهلتكم بالدعوة كما هي عادتكم إذا أصابكم ضرر، أم تخصصون الله دونها؟.

﴿بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصصون الله بالدعاء دون الآلهة.

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾ إلى كشفه ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أن يتفضل عليكم بكشفه.
﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: وتتركون آلهتكم ولا تذكرونها في ذلك الوقت.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ
بَضُرُّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا دَسَوْا مَا
ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا
أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ
ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

البأساء من البأس أو البؤس، والضراء من الضرّ، وقيل: البأساء: من
القحط والجوع، والضراء: المرض ونقصان الأنفس والأموال^(١). والمعنى: ﴿وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا﴾ إليهم الرسل فكذبوهم.

﴿فَآخَذْنَاهُمْ﴾ بالبليات في أنفسهم وأموالهم، لكي يتضرّعوا ويخضعوا
ويتذلّلوا ويتوبوا عن ذنوبهم.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ معناه: نفي التضرّع، كأنه قيل: فلم
يتضرّعوا إذ جاءهم بأسنا، ولكنه جاء بـ ﴿لَوْلَا﴾ ليدلّ على أنّه لم يكن لهم عذر في
ترك التضرّع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم.

﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من البأساء والضراء، أي: تركوا الاتعاظ به.
﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الصحة والتوسعة في الرزق
وأصناف النعم، كما يفعل الوالد البار بولده العاق يخاشنه تارة ويلطفه أخرى

(١) عن ابن مسعود. تفسير الطبري ج ٢: ٥٨.

طلباً لصلاحه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخير والنعم، ولم يزدوا إلا على البطر والأشر، وما تصدّوا للتوبة ولا اعتذار.

﴿أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: مفاجأة من حيث لا يشعرون.

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاة والرحمة، وقيل: متحيّرون منقطعوا الحجة^(١).

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ﴾ أي: آخرهم لم يترك منهم أحد، واستؤصلت شأفتهم بالعذاب فلم يبق لهم عقب ولا نسل.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إهلاك أعدائه وإعلاء كلمته. وهذا إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة، وأنه من أجل النعم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنُكِّمَ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ بأن يصمكم ويعميكم.

﴿وَخَنَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بأن يغطي عليها ما يذهب عقلكم ويسلب تمييزكم.

﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ﴾ بما أخذ منكم وختم عليه، أو أراد يأتيكم بذاك، فوضع الهاء موضع اسم الإشارة.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوجهها في الجهات التي نظهرها أتم الإظهار، مرة في جهة النعمة ومرة في جهة الشدة.

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يعرضون عنها بعد ظهورها.

وإنما قابل البغته بالجهرة لما في البغته من معنى الخفية، وهو وقوع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر إماراته، وعن الحسن: (ليلاً أو نهراً)^(١).

﴿هَلْ يَهْلِكُ﴾ أي: ما يهلك هلاك تعذيب وسخط.

﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين ظلموا بكفرهم وفسادهم.

﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ من آمن بهم وبما جاءوا به ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ من عصاهم وكذبهم.

﴿يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ﴾ جعل العذاب ماساً، كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام، ونحوه: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾^(٢).

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

أي: ﴿لَا﴾ أدعي ملك ﴿خَزَائِنُ﴾ رحمة ﴿اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الذي يختص الله بعلمه، وإنما أعلم منه ما يعلمني الله ويخصني به.

(١) معالم التنزيل ج ١: ٣١٦.

(٢) الفرقان: ١٢.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ لأنِّي إنسان تعرفون نسبي، لا أقدر على ما يقدر عليه الملك.

﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: ما أنبئكم بما كان فيما مضى وبما يكون فيما يستقبل إلا بالوحي.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي: الضال والمهتدي.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان وتنصفوا من أنفسكم.

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ الضمير يرجع إلى ﴿مَا يُوْحَىٰ﴾.

و﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الذين يعترفون بالبعث والحشر. الصادق (عليه السلام): ((أنذر بالقرآن الذين يرجون الوصول إلى ربهم، ترغّبهم فيما عنده، فإنّ القرآن شافع مشفع))^(١).

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ فإنّ شفاعة الشافعين من الأنبياء والمؤمنين تكون بإذن الله فهي راجعة إليه سبحانه. على أنّ هذه الجملة في موضع الحال من ﴿يُحْشَرُوا﴾ والمعنى: يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعاً لهم، ولا بد من هذه الحال، لأنّ كل الناس محشور، فالمخوف إنّما هو

الحشر على هذه الحال.

ثم ذكر سبحانه المتقين وأمر بتقديمهم وتقريبهم، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ ويعبدونه.

﴿بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يطلبون ثوابه ويتبعون مرضاته. والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته. روي: أنّ رؤساء قريش قالوا لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء الأعداء - يعنون فقراء المؤمنين - جلسنا إليك، فقال ﷺ: ما أنا بطارد المؤمنين، قالوا: فأقمهم عنا إذا جئنا، قال: نعم، طمعاً في إيمانهم^(١).

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾^(٢)، وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم. والمعنى: ولو كان الأمر كما يقولون عند الله فما عليك إلا اعتبار الظاهر، وإن كان باطنهم غير مرضي فحسابهم عليهم لا يتعداهم إليك، كما أنّ حسابك لا يتعداك إليهم، كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(٣). وقيل: إنّ الضمير للمشركين^(٤). والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت تؤاخذ بحسابهم حتى يهملك إيمانهم، ويجرّك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين.

وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي، و﴿فَتَكُونُ﴾ جواب النهي، ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ على وجه التسبيب، لأنّ كونه ظالماً مسبب عن طردهم. وقرئ: بالغدوة والعشي.

(١) أسباب النزول: ١٤٩.

(٢) الشعراء: ١١٣.

(٣) الأنعام: ١٦٤.

(٤) عن الحسن. تفسير الماوردي ج ٢: ١١٨.

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ
مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِلرَّاسِخِينَ سِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

أي: ومثل ذلك الفتن العظيم ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ابتليناهم بهم،
وذلك أن المشركين قالوا: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ يعنون المسلمين.

﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: أنعم الله عليهم بالتوفيق لإصابة الحق من
دوننا ونحن الرؤساء والأشراف وهم العبيد والأنفال، إنكاراً لأن يكون أمثالهم
على الحق، ونحوه: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾^(١). ومعنى فتناهم: خذلناهم
فافتتنوا حتى كان افتتانهم سبباً لهذا القول، لأنه لا يقول مثل هذا القول إلا مفتون
مخدول.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: الله أعلم بمن يقع منه الإيثار والشكر
فيوفقه للإيمان، ومن صمم على كفره يخذله ويمنعه التوفيق.

﴿فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ هو أمر بتبليغ سلام الله إليهم، أو أمر بأن يبدأهم
بالسلام تبجيلاً لهم، وكذلك قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ من جملة
ما يقول لهم ليسرّوا. وقرئ: إنه، وأنه بالكسر على الاستئناف كأنه تفسير للرحمة،
وبالفتح على الإبدال من الرحمة.

﴿بِجَهْلَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: عمله وهو جاهل، بمعنى: إنه عمل عمل الجاهلين، لأن من عمل ما يستوبل عاقبته علماً بذلك فهو من أهل الجهل، ويجوز أن يراد عمله جاهلاً بما يتبعه من الضرر والمكروه، ومن كان حكيماً لم يقدم على فعل شيء حتى يعلم حاله.

وقرئ: ﴿وَلَتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء والياء مع رفع ﴿سَبِيلُ﴾ لأنها تذكر وتؤنث، وبالتاء على خطاب النبي ﷺ ونصب السبيل، يقال: استبان الأمر وتبين واستبينته وتبينته. والمعنى: ومثل ذلك التفصيل الين ﴿نَفْصِلُ﴾ آيات القرآن في صفة أحوال من لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه أمارات القبول وتبشير الإيمان، ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلهم بما يجب أن يعامل به؛ فصلنا ذلك التفصيل.

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

﴿نُهَيْتُ﴾ عن عبادة ما تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ أي: لا أجري على طريقتكم التي سلكتموها من اتباع الهوى دون اتباع الدليل.

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ السالكون طريق الهدى، يعني: إنكم كذلك.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: إني من معرفة من ربِّي، وأنَّه لا معبود سواه على حجة واضحة ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أنتم حيث أشركتم به غيره، وإذا كان الشيء ثابتاً عندك ببرهان قاطع قلت: أنا على يقين منه وعلى بينة منه، وقيل: معناه: على حجة من جهة ربِّي وهو القرآن^(١).

﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالبينّة، وذكر الضمير على تأويل القرآن.

﴿مَا عِنْدِي مَا نَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ يعني: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾^(٢).
﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تأخير عذابكم.

يقضي ﴿الْحَقَّ﴾ أي: القضاء الحقّ في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلَيْنِ﴾ أي: القاضين، وقرئ: ﴿يَقْضُ الْحَقَّ﴾ أي: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره، من قولهم: قصّ أثره.

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي﴾ أي: في قدرتي ﴿مَا نَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب.
﴿لَقَضَىٰ الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتم عاجلاً غضباً لربِّي.

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

(١) تفسير الماوردي ج ٢: ١٢٠.

(٢) الأنفال: ٣٢.

المفتاح: جمع مفتاح وهو المفتاح، وجعل سبحانه للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة، لأنّ بالمفتاح يتوصل إلى ما في المخازن المغلقة، أراد أنّه هو المتوصل إلى جميع المغيّبات بذاته وحده، لا يتوصل إليها سواه كما يتوصل إلى ما في المخازن من عنده مفاتيح أقفاله.

﴿وَلَا حَبَّةَ﴾، ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَإِسٍ﴾ عطف على ﴿وَرَقَةٍ﴾ وداخل في حكمها، أي: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ ولا شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه، وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كالتكرير لقوله: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، لأنّ معنى ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ و﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ واحد. والكتاب المبين: علم الله، أو اللوح المحفوظ، أو القرآن.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ﴾ أي: يقبض أرواحكم عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت.

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ أي: كسبتم من الأعمال ﴿بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ من القبور.

﴿فِيهِ﴾ أي: في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الأعمال بالنهار ومن أجله.

﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وهو الأجل الذي سمّاه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وهو المرجع إلى موقف الحساب.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في ليلكم ونهاركم، وقيل: ثم يبعثكم من

نومكم^(١) أي: ينهكم في النهار لتستوفوا آجالكم. جعل سبحانه انتباههم من النوم بعثاً.

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

أي: ﴿وَهُوَ﴾ المقتدر المستعلي على عباده.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ﴾ ملائكة ﴿حَفَظَةً﴾ يحفظون أعمالكم وهم الكرام الكاتبون. والفائدة في ذلك أنّ العباد إذا علموا أنّ الملائكة يحفظون أعمالهم في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد يوم القيامة كان ذلك أزر لهم عن القبيح. ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ استوفت روحه، وهم ملك الموت وأعوانه، و﴿حَتَّىٰ﴾ هذه التي للاستئناف وما بعدها جملة. وقرئ: توفاه - بالإمالة .. ويجوز أن يكون ماضياً، وأن يكون مضارعاً بمعنى تتوفاه.

﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: لا يتوانون ولا ينقصون مما أمروا به ولا يزدون فيه، والتفريط: التقصير والتأخير عن الحد، والإفراط: مجاوزة الحد.

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنجِنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى حكمه وجزائه.

﴿مَوْلَاهُمُ﴾ أي: مالكم الذي يلي عليهم أمورهم.

﴿الْحَقُّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق.

﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره.

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ لا يشغله حساب عن حساب.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما، يقال

لليوم الشديد: يوم مظلّم ذو كواكب، أي اشتدت ظلمته حتى صار كالليل ﴿تَدْعُونَهُ﴾ متضرّعين بالستكم ومسرّين في أنفسكم.

﴿لَئِنْ﴾ أنجيتنا على إرادة القول، أي قائلين: إن أنجيتنا من هذه الظلمة

والشدة. وقرئ: ينجيكم - بالتشديد والتخفيف - ولئن أنجانا، وخفية - بالضم والكسر..

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ﴾ يخلصكم من هذه الشدة ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ غم ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ

تَشْكُرُونَ﴾ بالله بعد قيام الحجة عليكم.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ

أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرِفُ

الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

أي: ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ﴾ يرسل ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ كما أمطر على

قوم لوط، وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وعلى قوم نوح الطوفان ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ

أَرْجُلِكُمْ﴾ كما أغرق فرعون، وخسف بقارون، وقيل: ﴿مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ من

قبل أكابرهم وسلاطينكم الظلمة، و﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ من قبل سفلكم

وعبيدكم^(١)، وقيل: هو حبس المطر والنبات.

(١) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ٧: ١٣٨.

﴿أَوْ يَلِسَكُمْ شِيْعًا﴾ أي: يخلطكم فرقاً مختلفي الأهواء، كل فرقة منكم مشايعة لإمامها، ومعنى خلطهم: أن يختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال.

﴿وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بِأَسِّ بَعْضٍ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضاً، ونحوه قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّلُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾^(١)، الصادق عليه السلام: ((هو سوء الجوار))^(٢). والمعنى في الآية: الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة. وفي الحديث: ((إذا وضع السيف في أمّتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة))^(٣).

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيِنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ الضمير للعذاب.

﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: لا بد أن ينزل بهم.

﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ، أي: وكل إليّ أمركم أمنعكم من التكذيب إجباراً، إنّما أنا منذر.

﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: لكل شيء ينبأ به ويخبر وقت استقرار وحصول لا بد

(١) الأنعام: ١٢٩.

(٢) تفسير القمي ج ١: ٢٠٤.

(٣) المستدرک علی الصحیحین ج ٤: ٤٤٩.

منه. وقيل: الضمير في ﴿بِهِ﴾ للقرآن^(١).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي﴾ الاستهزاء بآياتنا والطعن فيها ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾
فلا تجالسهم وقم عنهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فلا بأس أن تجالسهم حيثنذ.
﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ النهي عن مجالستهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾ معهم ﴿بَعْدَ
الذِّكْرِ﴾، ويجوز أن يراد: وإن أنساك الشيطان قبل النهي قبح مجالستهم، فلا
تقعد معهم بعد أن ذكرناك قبحها ونبهنالك عليه.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ﴾ أي: وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء مما
يجاسبون عليه من ذنوبهم.

﴿وَلَكِنْ﴾ عليهم أن يذكروهم ﴿ذِكْرَى﴾ إذا سمعواهم يخوضون فيها
بأن يقوموا عنهم ويظهروا الكراهية لهم.

﴿عَلَهُمْ يَنْقُوتُ﴾ يجتنبون الخوض كراهية لمساءتهم أو حياء. ويجوز أن
يكون ﴿ذِكْرَى﴾ رفعا على: ولكن عليهم ذكرى.

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ
الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام.

﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ حيث سَخروا به واستهزؤوا منه، ومعنى ذرهم: أعرض

(١) عن السدي. تفسير الطبري ج ٧: ١٤٧.

عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم.

﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن.

﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: مخافة أن تسلم نفس إلى الهلاك والعذاب،

وترتهن بسوء كسبها.

﴿وَإِنْ تَعَدَّلْ كُلُّ عَدَلٍ﴾ أي: وإن تفد كل فداء ﴿لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا﴾.

﴿الَّذِينَ أَبْسَلُوا﴾ أي: أسلموا إلى الهلاك ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ بكسبهم وعملهم.

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا
بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ
أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُنْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ
وَأْمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ
وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

أي: أنعبد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ إن عبدناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركنا

عبادته.

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ راجعين عن ديننا الذي هو خير الأديان ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا

اللَّهُ لَهُ.

﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ كالذي ذهبت به مردة الجن

والغيلان في المهامه^(١). والاستهواء استفعال من هوى في الأرض: إذا ذهب، كأن

المعنى: طلبت هَوِيَّه، وموضع الكاف نصب على الحال من الضمير في ﴿نُرَدُّ﴾،

(١) المهامه جمع المهمة: المفازة البعيدة الأطراف. (الصحاح: مادة مهه)

أي: أنكص مشبهين من ﴿أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾.

﴿حَيْرَانَ﴾ لا يهتدي إلى طريق، تائهاً ضالاً.

﴿لَهُ ۥ﴾ أي: لهذا المستهوى ﴿أَصْحَبُ﴾ رفقة.

﴿يَدْعُونَهُ إِلَىٰ آلِهَتِهِ﴾ أي: إلى الطريق المستوي، أو إلى أن يهدوه الطريق المستقيم، يقولون له: ﴿أَتَيْنَا﴾ وقد اعتسف التيه تابِعاً للجن لا يجيبهم ولا يأتهم. وهذا مبني على ما تزعمه العرب أنَّ الجن تستهوي الإنسان والغيلان كذلك، فشبه به الضال عن الإسلام الذي لا يلتفت إلى دعاء المسلمين إياه.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وهو الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ وحده وما سواه ضلال ﴿وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أمرنا لأن نسلم ولأن أقيموا، بمعنى للإسلام وإقامة الصلاة، ومعنى اللام التعليل للأمر، وتقديره: أمرنا، وقيل لنا: أسلموا لأجل أن نسلم.

﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازي كل عامل منكم بعمله.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ مبتدأ و﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ خبره مقدماً عليه كما تقول: يوم الجمعة القتال، واليوم بمعنى الحين، أو يكون ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ مبتدأ وخبراً و﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ ظرفاً. والمعنى: وهو الذي خلق السماوات والأرض قائماً بالحق والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ذلك الشيء.

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ والحكمة، أي: لا يكون شيئاً من السماوات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب.

و﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ ظرف لقوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ كقوله: ﴿لِئَلَّامُلْكُ الْيَوْمَ﴾^(١). ويجوز أن يكون ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ فاعل ﴿يَكُونُ﴾ على معنى: وحين يقول لقوله الحق أي: لقضائه الحق: ﴿كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾، ويتنصب ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بمحذوف دلّ عليه ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾، كأنه قيل: ويوم يكون ويجدد الخلق يقوم بالحق، ووجب له الملك في اليوم الذي فيه ينفخ في الصور لا يبقى لأحد فيه ملك.

ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ بدلاً من ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾. والصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل نفختين، فيفنى الخلق بالنفخة الأولى ويحيون بالثانية، وعن الحسن: (إنه جمع صورة)^(٢).

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ رفع على المدح.
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرْ أَتَتَّخِذُ آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

وقرئ: آزر - بالضم - على النداء.

ولا خلاف بين النسايب أن اسم أبي إبراهيم تارخ، قال أصحابنا: إن آزر كان اسم جد إبراهيم لأمه، وروي أيضاً أنه كان عمه، وقالوا: إن آباء نبينا ﷺ إلى

(١) غافر: ١٦.

(٢) معالم التنزيل ج ١: ٣٢٠.

آدم كانوا موحدين^(١)، ورووا عنه ﷺ أنه قال: ((لم يزل ينقلني الله تعالى من صلب الطاهرين إلى أرحام المطهرات، لم يدنسني بدنس الجاهلية))^(٢)، وقد قيل: إن آزر اسم صنم^(٣)، فيجوز أن ينز به للزومه عبادته.

والهمزة في ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ للإنكار، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ من بعد عطف على ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ﴾ جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه. والمعنى: ومثل ذلك التعريف نعرف به إبراهيم ﴿مَلَكَوَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: الربوبية والإلهية، ونوفقه لمعرفة ونهديه لطريق النظر والاستدلال ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فعلنا ذلك.

و﴿نُرَى﴾ حكاية حال ماضية.

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ
الْأَفْلَهِ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ
لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ
بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ
مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

كان القوم يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن يتبهم على خطئهم، ويرشدهم ويصبرهم طريق النظر والاستدلال، ليعرفوا أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً، لوضوح دلالة الحدوث فيها.

(١) التبيان ج ٤: ١٨٩.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ج ١: ١٨٦ و ج ٢: ١١٤، كتاب الشفاج ١: ١٦٧.

(٣) عن مجاهد. تفسير الطبري ج ٧: ١٥٨.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه أنّه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه، ليكون ذلك أدعى إلى الحقّ وأرفع للشغب، ثم يبطله بعد بالحجة في قوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أي: لا أحبّ عبادة الأرباب المحتجبين بحجاب، المتغيرين من حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان، فإنّ ذلك من صفات الأجسام ودلائل الحدوث.

وقوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلهاً - وهو آفل مثل الكواكب - يكون ضالاً، وأنّ الهداية إلى الحقّ تكون بتوفيق الله تعالى ولطفه، وقوله: ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أيضاً من باب استعمال الإنصاف مع الخصوم، ثم قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها.

وأما وجه التذكير في قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مع أنّ الإشارة للشمس، فهو أنّه جعل المبتدأ مثل الخبر لكونها عبارة عن شيء واحد، كقولهم: من كانت أمك، وليصون الربّ عن شبهة التأنيث، ألا تراهم لم يقولوا الله سبحانه علامة، وإن كان العلامة أبلغ من علام، لهذا المعنى.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: للذي دلّت هذه المحدثات على أنّه صانعها، ومبدعها الذي دبّر أحوالها: مسيرها، وانتقالها، وطلوعها، وأفولها.

وقيل: إنّ هذا كان استدلاله في نفسه في زمان مهلة النظر وخطور الخاطر الموجب عليه الفكر فحكاه الله سبحانه^(١). والأوّل أظهر، لقوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ وقوله: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

(١) عن البلخي وغيره. التبيان ج ٤: ١٩٧.

وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

كان القوم حاجوه وخاصموه في الدين وفي التوحيد وترك عبادة آلهتهم منكرين لذلك، فقال لهم: ﴿أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ﴾ هداني إلى التوحيد ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ لأنهم قد خوفوه أن آلهتهم تصيبه بمكروه.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ إلا وقت مشيئة ربي شيئاً يخاف فحذف الوقت، أي: لا أخاف معبوداتكم في وقت قط، لأنها لا تقدر على نفع وضرر إلا إذا شاء ربي أن يصيبني بمخوف من جهتها مثل أن يرجمني بكوكب، أو يشاء الإضرار بي ابتداء.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا يستبعد أن يكون في علمه إنزال مخوف بي.
﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميزوا بين القادر والعاجز.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ لتخويفكم شيئاً لا يتعلّق به ضرر وأنتم ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ ما يتعلّق به كل خوف وهو إشراككم ﴿بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ﴾ بإشراكه ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حجة، إذ لا يصح أن يكون عليه حجة، فكأنه قال: ومالكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف.

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ يعني: فريق المشركين وفريق الموحدين ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾.

ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: معصية، وعن ابن عباس: (هو الشرك)^(١) لقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْآَمَنُ﴾ من الله ﴿وَهُمْ﴾ محكوم لهم بالاهتداء.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه، من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

﴿ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أرشدناه إليها وأخطرناها بباله.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ﴾ في العلم والحكمة. وقرئ بالتنوين أي: نرفع من نشاء درجات، كقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾^(٣).

﴿وَوَهَبْنَا﴾ لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ﴾ ابنه ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق ﴿كُلًّا﴾

(١) تفسير الطبري ج ٧: ١٦٩.

(٢) لقمان: ١٣.

(٣) البقرة: ٢٥٣.

هَدَيْنَا ﴿ إِلَى النُّبُوَّةِ وَنِيلَ الْكَرَامَاتِ .

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ الضمير لنوح أو لإبراهيم .

﴿ دَاوُدَ ﴾ أي : وهدينا داود .

﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ ﴾ في موضع النصب عطفاً على ﴿ كَلَّا ﴾ بمعنى : وفضلنا بعض آبائهم ﴿ وَذُرِّيَّتِهِمْ ﴾ .

﴿ وَاجْنَبْنَاهُمْ ﴾ اصطفيناهم .

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من التفضيل والاجتباء .

﴿ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ممن لم يسمّهم في هذه الآيات .

﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا ﴾ مع فضلهم وتقديرهم وما رفع لهم من الدرجات، لحبطت أعمالهم وكانوا كغيرهم في ذلك، ونحوه : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (١) .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ ﴾ أعطيناهم .

﴿ الْكِتَابَ ﴾ يريد به الجنس .

﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ بين الناس، وقيل : الحكمة .

﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا ﴾ بالكتاب والحكم والنبوّة، أو بالنبوّة ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ يعني : أهل

مكة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ وهم الأنبياء الذين جرى ذكرهم ومن تابعهم، آمنوا بها أتى به نبينا ﷺ قبل وقت مبعثه، وقيل: هم كل من آمن بالنبى ﷺ، وقيل: هم الأنصار^(١). ومعنى توكيلهم بها: إنهم وفّقوا للإيمان بها كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهد به. والباء في ﴿بِهَا﴾ صلة ﴿يَكْفُرُ﴾ وفي ﴿بِكُفْرِيْنَ﴾ لتأكيد النفي. ﴿فِيَهْدِيهِمْ أَقْتَدَ﴾ أي: فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد إلا بهم، ففي تقديم المفعول هذا المعنى. ويريد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وعدله وفي أصول الدين، دون الشرائع فإنها يتطرق إليها النسخ فهي هدى ما لم تنسخ. والهاء في ﴿أَقْتَدَ﴾ للوقف.

﴿قَدْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلاً، كما لم تسأله الأنبياء قبلي فإنه ينفر عن القبول. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ فيه دليل على أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ مبعوث إلى كافة العالمين، وأن النبوة مختومة به.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾

أي: ما عرفوه حق معرفته، وما عظموه حق عظمتهم، وما وصفوه بما يجب أن يوصف به من الرحمة على عباده واللفظ بهم حين ﴿قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فأنكروا بعثة الرسل والوحي إليهم، وذلك من أعظم رحمته وأجل ألطافه. وإنما قاله اليهود مبالغة في إنكار نزول القرآن على رسول الله ﷺ، فألزموا ما لا بد

لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وذمهم بتحريفهم للتوراة وإبداء بعضها وإخفاء بعض، فقل: ﴿جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ يستضاء به في الدين ﴿وَهَدَى لِلنَّاسِ﴾ يهتدون به ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ﴾ ورقات متفرقة، ليتمكنوا مما حاولوه من الإبداء والإخفاء. وقرئ: تجعلونه - بالتاء والياء - وكذلك تبدونها وتخفون.

و﴿وَعَلَّمْتُمْ﴾ خطاب لليهود، أي: علّمتم على لسان محمد مما أوحى إليه ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ﴾ مع أنكم حملة التوراة.

﴿وَلَا أَبَاؤُكُمْ﴾ أي: ولم يعلمه آباؤكم الذين كانوا قبلكم وهم أعلم منكم، ونحوه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١). ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أنزله ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ أي: في باطلهم الذي يخوضون فيه.

و﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من ﴿ذَرَهُمْ﴾ أو من ﴿خَوْضِهِمْ﴾، ويجوز أن يكون ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ حالاً من ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي: خائضين في الباطل، ويجوز أن يكون صلة لـ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أو لـ ﴿ذَرَهُمْ﴾.

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

يعني: القرآن ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير المنافع والفوائد، قراءته خير، والعمل به خير، وفيه علم الأولين والآخرين، وفيه الحلال والحرام، وهو باق إلى آخر التكليف لا يرد عليه نسخ ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل وغيرهما.

﴿وَلْتُنْذِرْ﴾ معطوف على ما دلّ عليه صفة ﴿كُتِبَ﴾ كأنه قيل: للبركات ولتصديق ما تقدّمه من الكتب وللإنذار. وقرئ: لتنذر - بالتاء والياء..

وسمّيت مكة أم القرى لأنها مكان أوّل بيت وضع للناس، ولأنّها قبلّة لأهل القرى ومحجّهم، ولأنّها أعظم القرى شأنًا، ولأنّ الأرض بأسرها دحيت من تحتها فكأنّها تولدت منها.

﴿وَالَّذِينَ﴾ يصدّقون ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ ويخافونها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، وذلك أنّ أصل الدين خوف العاقبة، فمن خافها يحمله الخوف على أن يؤمن. وخصّ الصلاة بالذكر من بين سائر الفرائض لأنّها عماد الدين، ومن حافظ عليها كانت له لطفًا في المحافظة على أخواتها.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أنّ الله بعثه نبيًّا وهو مسيلمة الكذاب. وروي عن النبي ﷺ أنّه قال: ((رأيت فيما يرى النائم كأنّ في يدي سوارين من ذهب فكبرا عليّ وأهّماي، فأوحى الله إليّ أن أنفخهما، فنفختهما، فطارا عني، فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما: كذاب اليمامة: مسيلمة، وكذاب صنعاء: الأسود العنسي))^(١).

﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ هو عبد الله بن سعد ابن أبي سرح^(٢)، وقيل:

(١) سنن البيهقي الكبرى ج ٨: ١٧٥ باختلاف يسير.

(٢) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري، كان أخا عثمان من الرضاعة، وكان يكتب للنبي ﷺ

هو النضر بن الحارث والمستهزون قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

﴿غَمَرَتِ الْمَوْتِ﴾ شدائده وسكراته، [وأصل الغمرة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدة الغالبة.

﴿بَاسِطُوا﴾^(١) أَيْدِيَهُمْ﴾ ييسطون إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن العنف في السياق والتغليظ والإرهاق في الإزهاق، فعل الغريم الملح ييسط يده إلى من عليه الحق ويقول له: أخرج إلي مالي عليك، وقيل: معناه: باسطو أيديهم عليهم بالعذاب^(٢).

﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ خلصوها من أيدينا، أي: لا تقدرّون على الخلاص. ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ يعني: وقت الإماتة، أو الوقت الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة.

و﴿الْهُونَ﴾ الهوان الشديد، وإضافة العذاب إليه كقولك: رجل سوء، تريد التمكن في الهوان وأنه عريق فيه.

﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تؤمنون بها.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ
وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ
شُرَكَؤُا لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾

﴿فُرْدَى﴾ منفردين عن أموالكم وأولادكم، وعن أوثانكم التي زعمتم أنها

لله فكان يغير ما يمليه عليه، ثم ارتدّ ولحق بمكة، فأهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح، فاستجار بعثان فأجاره، وقصته مشهورة. ينظر: الإصابة ج ٢: ٣١٦.

(١) ساقطة من ج.

(٢) عن الضحاك. تفسير الطبري ج ٧: ١٨٣.

شفعاؤكم وشركاء الله.

﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ على الهيئة التي ولدتكم عليها في الانفراد، وفي الحديث: ((تحشرون حفاة عراة غرلاً))^(١) أي: قلفاً.

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أي: ما ملكناكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لم تحملوا منه شيئاً واستمتع به غيركم.

﴿أَنْتُمْ فِيكُمْ﴾ أي: في استعبادكم ﴿شُرَكَؤُا﴾ لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها فقد جعلوها لله شركاء فيهم وفي استعبادهم.

﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: وقع التقطع بينكم، كما تقول: جمع بين الشيئين تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل. وقرئ: بينكم على إسناد الفعل إلى الظرف كما تقول: قوتل خلفكم.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾ بالنبات ﴿وَالنَّوَى﴾ بالشجر، وقيل: أراد الشقين اللذين في النواة والحنطة^(٢).

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي: الحيوان والنامي من النطف والبيض والحب والنوى ﴿وَمُخْرِجُ﴾ هذه الأشياء الميتة من الحيوان والنامي.

﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ عطف على ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ لا على الفعل،

(١) مسند أحمد ج ٦: ٥٣.

(٢) عن مجاهد. تفسير الطبري ج ٧: ١٨٦.

وموقعه موقع الجملة الميَّنة، لأنَّ فلق الحبِّ والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي: ذلك المحيي والمميت هو الله الذي تحقَّ له الربوبية.

﴿فَأَنِّي تُوفِّكُون﴾ فكيف تصرفون عنه وعن قوله إلى غيره.

و﴿الْإِصْبَاح﴾ مصدر سَمِّي به الصبح، والمعنى: فالفق ظلمة الإصباح وهي الغبش في آخر الليل، أو فالفق الإصباح الذي هو عمود الفجر عن بياض النهار، لأنَّ الظلمة هي التي تنفلق عن الصبح كما قال الشاعر:

تَفَرِّي لَيْلٍ عَنْ بَيَاضِ نَهَارٍ^(١)

وقرئ: وجعل الليل، لأنَّ اسم الفاعل الذي قبله بمعنى المضي، ولذلك عطف عليه ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: وجعل الشمس والقمر ﴿حُسْبَانًا﴾.

والسكن ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استرواحاً إليه من زوج أو حبيب، ومنه قيل للمرأة: سكن، لأنه يستأنس بها، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه. ويمكن أن يراد: وجعل الليل مسكوناً فيه من قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾^(٢).

والحُسبان - بالضم - مصدر حسب، والمعنى: وجعل الشمس والقمر على حساب، لأنَّ حساب الأوقات يعلم بدورها ومسيرهما، أو محسوبين حساباً.

﴿ذَلِكَ﴾ التفسير بالحساب المعلوم ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما بتسخيرهما

﴿الْعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما وتدويرهما ومسيرهما.

(١) ديوان أبي نؤاس: ٤١٠، وفيه عن أديم..، صدره: تردّت به ثم انفرت عن أديمه.

(٢) يونس: ٦٧.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ
 قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
 وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

يعني: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ الليل بـ ﴿اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾، وأضاف الظلمات إلى البر والبحر لملاستها إيّاهما، أو لتشبيه الطرق المشتبهة بالظلمات.

وقرى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ بفتح القاف وكسر ها: فمن فتح كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدرًا، ومن كسر كان اسم فاعل، والمستودع اسم مفعول. والمعنى: فلکم مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها، أو فمنكم مستقر في القبر ومنكم مستودع في الدنيا. وعن الحسن: (يا ابن آدم أنت ودیعة في أهلك ويوشك أن تلحق بصاحبك) ^(١)، وأنشد قول لبيد:

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ وَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ تَرَدَّ الْوَدَائِعُ ^(٢)

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ
 فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ
 مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ
 مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي
 ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

كل ما علاك فأظلك فهو سماء، وهو هنا السحاب.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نبت كل صنف من أصناف الحبوب.

(١) معالم التنزيل ج ١: ٣٢٦.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ٨٩.

يعني: إنّ السبب واحد وهو الماء والمسببات صنوف، وهو كقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضَلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾^(١).

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من النبات.

﴿خَضِرًا﴾ أي: نباتاً غضاً أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة.

﴿فُخِّرَ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ قد تراكب بعضه على بعض مثل سنبلة الحنطة والشعير وغيرهما.

و﴿قَنَوَانٌ﴾ رفع بالابتداء، و﴿مِنَ النَّخْلِ﴾ خبره، و﴿مِنْ طَلْعِهَا﴾ بدل منه، كأنه قيل: وكائنة من طلع النخل قنوان. ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة أخرجنا عليه، تقديره: ومخرجة من طلع النخل قنوان. والقنوان: جمع قنو كصنوان وصنو.

﴿دَانِيَةً﴾ سهلة المجتنى قريبة التناول، وعن الحسن: (قريب بعضها من بعض)^(٢).

﴿وَجَنَّتِ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ بالنصب عطف على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: وأخرجنا به جنات من أعناب. وقرئ: وجنات - بالرفع - على معنى: وحاصلة أو مخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب أي: من نبات أعناب، أو يراد: وثم جنات من أعناب أي: مع النخل.

﴿وَالزَّيْتُونُ﴾ أي: وأخرجنا به الزيتون ﴿وَالرُّمَّانَ﴾، والأحسن أن يكون

(١) الرعد: ٤.

(٢) تفسير الماوردي ج ٢: ١٤٩.

نصبهما على الاختصاص، كقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾^(١) لفضل هذين الصنفين.
 ﴿مُشْتَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ يقال: اشتبه الشيئان وتشابها، والافتعال والتفاعل
 يشتركان كثيراً، وتقديره: والزيتون متشابهاً وغير متشابهة والرمان كذلك، والمعنى:
 متشابهاً بعضه وغير متشابه بعضه في القدر واللون والطعم.

﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ أي: أخرج ثمره كيف يخرج ضئيلاً صغيراً،
 وانظروا إلى حال ينعه، أي: نضجه كيف يكون جامعاً لمنافع وملاذ، نظر اعتبار
 واستبصار واستدلال على اقتدار مقدّره وتدبير مدبره ينقله من حال إلى حال،
 يقال: ينعت الثمرة ينعاً ويُنْعاً.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ
 سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
 فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ
 وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ فهما مفعولا جعل، و﴿الْجِنَّ﴾ بدل من ﴿شُرَكَاءَ﴾،
 ويجوز أن يكون ﴿شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ مفعولين قدّم ثانيهما على الأول، أي: جعلوا الجن
 شركاء لله. وفائدة تقديم ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ استعظام أن يتخذ الله شريكاً من كان ملكاً
 أو جنياً أو إنسياً. والمراد بالجن: الملائكة جعلوهم لله أنداداً، ونحوه: ﴿وَجَعَلُوا
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾^(٢)، وقيل: هم الذين قالوا: إنّ الله خالق الخير وإبليس خالق

(١) النساء: ١٦٢.

(٢) الصافات: ١٥٨.

الشر^(١).

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وخلق الجاعلين لله شركاء، معناه: وإن علموا أنّ الله خالقهم دون الجن، ولم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق شريكاً للخالق، وقيل: الضمير لـ ﴿الْجِنَّ﴾.

﴿وَحَرَّفُوا لَهُ﴾ أي: واختلقوا لله ﴿بَيْنَ وَبَيْنَ﴾، فإنّ المشركين قالوا: الملائكة بنات الله، وقال أهل الكتابين: ﴿عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ و﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(٢). يقال: خلق الإلفك واختلقه وخرقه واخترقه بمعنى. وقرئ: وَحَرَّفُوا - بالتشديد - للتكثير.

﴿يَغَيِّرُ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه، ولكن جهلاً منهم بعظمة الله تعالى.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو مبدعها ومنشئها ابتداء لا من شيء ولا على مثال سبق، ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره ﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ﴾، وقيل: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، كقولك: فلان بديع الشعر، أي: بديع شعره؛ أو هو بديع في السماوات والأرض كقولك: فلان ثبت الغدر، أي: ثابت فيه، والمعنى: هو عديم النظير والمثل فيهما.

﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ﴾ أي: من أين يكون له ولد ولا يستقيم أن يوصف بالولادة، لأنّ الولادة من صفات الأجسام، وصانع الأجسام ليس بجسم حتى يكون والدًا، ولأنّ الولادة لا تكون إلا بين زوجين ولا يصح أن يكون له صاحبة تزوجه.

(١) عن الكلبي. معالم التنزيل ج ١: ٣٢٦.

(٢) التوبة: ٣٠.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن كان بهذه الصفة فهو غني عن كل شيء.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الموصوف بالصفات المتقدمة، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة له، وهي: ﴿اللَّهُ﴾، ﴿رَبُّكُمْ﴾، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: ذلكم الجامع لهذه الصفات ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ لأن من استجمعت له هذه الصفات حقت له العبادة.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ مدبر، ولكل شيء من الأرزاق والآجال مالك.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ البصر: الجوهر اللطيف الذي به تدرك المبصرات، والمعنى: إنه متعال أن يكون مبصراً في ذاته، فالأبصار لا تدركه، لأنها إنما تدرك ما كان في جهة أصلاً أو تابعاً كالأجسام والألوان.

﴿وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ وهو للطف إدراكه للمدركات، يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي ركبها الله في حاسة النظر وهي الأبصار ولا يدركها مدرك سواه.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ يلطف عن أن تدركه الأبصار ﴿الْخَفِيُّ﴾ بكل لطيف، فهو يدرك الأبصار ولا تلطف عن إدراكه. وهذا من باب اللف والنشر. وروي عن الرضا عليه السلام: ((إنها الأبصار التي في القلوب))^(١)، أي: لا يقع عليه الأوهام ولا يدرك كيف هو.

فَدَجَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْهَا

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيَقُولُوا
دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

البصيرة: البينة والدلالة التي يستبصر بها الشيء على ما هو به، وهي نور القلب كما أنَّ البصر نور العين، أي: ﴿جَاءَكُمْ﴾ من الوحي والتنبيه على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق وآمن ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر ولها نظر ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عنه فعلى نفسه عمى وإياها ضر.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم.

﴿وَلِيَقُولُوا﴾ جوابه محذوف تقديره: وليقولوا درست نصرّفها.

ومعنى ﴿دَرَسْتَ﴾: قرأت وتعلّمت ذلك من اليهود، وقرئ: دارست، أي: دارست أهل الكتاب وذاكرتهم؛ ودَرَسْتَ أي: عفت هذه الآيات؛ وفي قراءة عبد الله: درس، أي: درس محمد.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ الفرق بين هذا اللام واللام في ﴿لِيَقُولُوا﴾ أنَّ هذا حقيقة وذاك مجاز، وذلك لأنَّ الآيات صرّفت للتبيين ولم تصرّف ليقولوا دارست، ولكن لما حصل هذا القول بتصرف الآيات كما حصل التبيين شبه به. والضمير في ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ للآيات لأنها في معنى القرآن، أو يعود إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلوماً، أو إلى الكتاب المقدّر في قوله: درست ودارست.

أَنبِغْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تخالطهم ولا تلاطفهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لا ضطرهم إلى الإيثار قسراً وإجباراً.

﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ آلهة ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ أي:

ظلماً وعدواناً. كان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله. وفيه دلالة على أن النهي عن المنكر - الذي هو من أجل الطاعات - إذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر ينقلب معصية، فصار النهي عن ذلك النهي من جملة الواجبات.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: على جهالة بالله.

﴿كَذَلِكَ زَيْنًا﴾ أي: مثل ذلك التزيين زيناً ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من أمة الكفار

﴿عَمَلُهُمْ﴾ أي: خليئانهم وما عملوا ولم تمنعهم حتى حسن عندهم عملهم

السيئ.

﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ فيؤنبخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

أي: حلفوا ﴿بِاللَّهِ﴾ مجدين مجتهدين ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من الآيات التي

اقترحوها ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو قادر عليها، ولكنه لا ينزلها إلا على مقتضى الحكمة، أو إنها الآيات عند الله لا عندي فكيف آتيكم بها.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أي: وما يدريكم أن الآية التي تقترحونها ﴿إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها، يعني: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك. وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم عند مجيء تلك الآية ويتمنون مجيئها، فأخبرهم سبحانه أنهم لا يدرون ما سبق علمه به من أنهم لا يؤمنون بها، ألا ترى إلى قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وقيل: إنَّ ﴿أَنهَآ﴾ بمعنى لعلها^(١) من قول العرب: إئت السوق أنك تشتري لحماً، أي: لعلك، ويقوئها قراءة أبي: لعلها إذا جاءتهم لا يؤمنون، وقرئ: إنها - بالكسر - على أن الكلام قد تم قبله. والمعنى: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال: إنها إذا جاءت لا يؤمنون بها البتة. ومنهم من جعل (لا) مزيدة في قراءة الفتح.

﴿وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ ... وَنَذَرُهُمْ﴾ عطف على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ داخل في حكم ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، بمعنى: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون وما يشعركم أننا نقَلَبْ ﴿أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ أي: نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا أولاً، لا يؤمنون بها لكونهم مطبوعاً على قلوبهم، وما يشعركم أننا نذرهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه.

(١) عن الخليل بن أحمد. الدر المنثور ج ٣: ٣٩.

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفَعِدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَقْرَبُنَّ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ﴾ يشهدون لنبينا بالرسالة، وأحيينا ﴿الْمَوْتُ﴾ حتى يشهدوا له، وهذا كقولهم: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ﴾^(١)، ﴿فَأْتُوا بِآبَاتِنَا﴾^(٢). ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَايِكَةِ قَبِيلًا﴾^(٣)، ومعنى قوله: ﴿قُبُلًا﴾ كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا، أو جماعات، أو مقابلة، وقرئ: قبلاً، أي: عياناً.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ مشية إكراه وقسر.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون طوعاً ولو أتوا بكل آية.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ وكما خلينا بينك وبين أعدائك، كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم، لم نمنعهم عن العداوة لما فيه من الامتحان

(١) الفرقان: ٢١.

(٢) الدخان: ٣٦.

(٣) الإسراء: ٩٢.

الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر.

و﴿شَيْطَانٍ﴾ بدل من ﴿عَدُوًّا﴾، أو هما مفعولا ﴿جَعَلْنَا﴾.

و﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، وبعض الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾ ما يزيّنه من القول والإغراء على المعاصي ويموّهه.

﴿غُرُورًا﴾ أخذاً على غرّة وخدعاً.

﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ الله ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما عادوك، أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفّهم عنه اضطراراً.

﴿وَلِيَصْغَى﴾ جوابه محذوف تقديره: وليكون ذلك الإصغاء ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ

نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ على أنّ اللام لام الصيرورة، والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ وفي ﴿فَعَلُوهُ﴾ واحد، أي: ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين ﴿أَفَعِدَّةُ﴾ الكفار ﴿وَلَا يَرْضَوهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

أَفَعِيرَ اللَّهِ أَبْتَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

أي: أطلب غير الله حاكماً يحكم بيني وبينكم، ويميّز المحقّ منا من المبطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ﴾ المعجز ﴿مُفَصَّلًا﴾ مبيناً فيه الحلال

والحرام والكفر والإيمان، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة والإنجيل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أنّ القرآن

﴿مَنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ هو من باب التهيج والإلهاب كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، أي: فلا تشكَّن في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق وإن جحدته أكثرهم، ويجوز أن يكون ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ خطاباً لكل أحد، على معنى أنه إذا تظاهرت الحجج على صحته فلا ينبغي أن يمتري فيه أحد.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: حجة ربك وأمره ونهيه ووعدته ووعدته ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، وقيل: هي القرآن^(٢).

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أي: لا أحد يبدل شيئاً من ذلك بما هو أصدق وأعدل.

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ نصب على الحال. وقرئ: كلمات ربك.

وإن تُطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

أي: ﴿وإن تُطِيعَ أَكْثَرَ﴾ الناس أضلوك، لأن الأكثر في الغالب يتبعون الأهواء، ثم قال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا محققين فهم يقلدوهم. وفيه: أنه لا عبرة في معرفة الحق بالكثرة وإنما الاعتبار بالحجة. و﴿يَخْرُصُونَ﴾ يقدرون أنهم على شيء، أو يكذبون.

﴿مَنْ يَضِلُّ﴾ يجوز أن يكون استفهاماً فيكون تعليقاً، ويجوز أن يكون

(١) الأنعام: ١٤.

(٢) تفسير الطبري ج ٨: ٧.

منصوباً بفعل مضمر يدلّ عليه قوله: ﴿اعْلَمُ﴾ لأنّ (أَفْعَل من كذا) لا يتعدّى إلى المفعول به، ويجوز أن يكون على حذف الباء ليقابل قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِشَايئِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهَرَ الْآثِمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْآثِمَ سَيَجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٠﴾

﴿فَكُلُوا﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحلّون الحرام ويجرّمون الحلال، وذلك أنّهم قالوا للمسلمين: أأأكلون ما قتلتم أنتم ولا تأكلون ما قتل ربّكم؟! ف قيل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ خاصة دون ما ذكر عليه اسم غيره أو مات حتف أنفه، وما ذكر اسم الله عليه هو المذكى بـ(بسم الله).

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ [وأي شيء عرض^(١) لكم في أن لا تأكلوا] وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) مما لم يحرم على لسان الرسول. وقرئ: ﴿فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل.

﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم فإنّه يحلّ لكم في حال الضرورة. ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ﴾ فيجرّمون ويحلّلون ﴿بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ وشهواتهم. ومن قرأ بالضم أراد يضلّون أشياعهم.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير تعلّق بشرع.

﴿وَذَرُوا ظَهَرَ الْآثِمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي: ما أعلتتم منه وما أسررتهم، وقيل:

(١) في ب، ج: وأي غرض.

ما عملتم بجوارحكم وما نويتم بقلوبكم^(١)، وقيل: الظاهر الزنا والباطن اتخاذ الأخدان^(٢).

و﴿يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ يرتكبون القبيح. والافتراء: الاكتساب.

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الضمير يرجع إلى مصدر الفعل، أي: وإنَّ الأكل منه لفسق، أو إلى ﴿مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ على: وإنَّ أكله لفسق. وفيه دلالة على تحريم ذبائح أهل الكتاب أيضاً، لأنه لا يصح منهم القصد إلى ذكر اسم الله تعالى، وأما المسلم فإذا لم يسم الله تعالى متعمداً لم تحل ذبيحته، وإذا كان ناسياً حلَّ أكلها.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ أي: يوسوسون ﴿إِلَى أَوْلِيَاءِهِمْ﴾ من المشركين ﴿لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ﴾ بقولهم: ولا تأكلون مما قتله الله.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأنَّ من اتبع غير الله في دينه فقد أشرك به.

ثم مثل سبحانه من هداه بعد الضلالة بـ ﴿مَنْ كَانَ مِيتًا﴾ فأحياه وجعل ﴿لَهُ نُورًا﴾ يستضيء به بين ﴿النَّاسِ﴾، ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لا يخرج منها، وقوله: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ معناه: كمن صفته هذه وهي قوله: ﴿فِي﴾

(١) عن مجاهد. معالم التنزيل ج ١: ٣٣٠.

(٢) عن السدي. تفسير الطبري ج ٨: ١١.

أَظْلَمَتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴿١﴾ [بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج] ^(١)، كقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ﴾ ^(٢) أي: صفتها هذه وهي قوله: فيها أنهار.
﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾ عن الحسن: (زيّنه - والله - لهم الشيطان وأنفسهم) ^(٣).

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمَّكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

المعنى: خليناهم وشأنهم ﴿لِيَمَّكُرُوا فِيهَا﴾ ولم نكفهم عن المكر، وخصّ الأكابر لأنهم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس، وهو كقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ ^(٤) تقول: هو أكبر قومه، وهم أكابر قومهم.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأنّ مكرهم يحيق بهم، روي: أنّ أبا جهل قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبيّ يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت ^(٥).

(١) ساقطة من ب.

(٢) محمد: ١٥.

(٣) التبيان ج ٤: ٢٨١.

(٤) الإسراء: ١٦.

(٥) عن مقاتل. معالم التنزيل ج ١: ٣٣١.

ونحوها قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾^(١).

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ كلام مستأنف للإنكار عليهم، أي: إن الله لا يصطفي للرسالة إلا من علم أنه يصلح لها وهو أعلم بموضعها.

﴿سَيُصِيبُ﴾ أكابر الذين أجرموا ﴿صَغَارٌ﴾ وقمأة^(٢) بعد كبرهم وعظمتهم ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدارين.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ أي: يلطف به ويوفقه، ولا يفعل ذلك إلا بمن يعلم أن له لطفاً ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ بأن يثبت عزمه عليه ويقوي دواعيه على التمسك به، لطفاً له بذلك ومتناً عليه حتى يحبّ الدخول فيه وتسكن نفسه إليه.

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ أي: يخذله ويخليه وشأنه وهو الذي لا لطف له ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بأن يمنعه اللطافة حتى يقسو قلبه وينبو من قبول الحق، وينسد فلا يدخله الإيمان. وقرئ: حرجاً - بفتح الراء وكسرهما -، فالفتح على الوصف بالمصدر.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ أي: الخذلان ومنع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب، أو أراد الفعل الذي يؤدي إلى الرجس وهو العذاب.

(١) المدثر: ٥٢.

(٢) قمؤ الرجل صار قمياً: هو الصغير الذليل. (الصحاح: مادة قمأ)

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٦﴾
لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ وَيَوْمَ
يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ
أُولِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا
الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٨﴾

﴿وَهَذَا﴾ طريق ﴿رَبِّكَ﴾ وعادته في التوفيق والخذلان.
﴿مُسْتَقِيمًا﴾ عادلاً مطرداً لا اعوجاج فيه، وانتصب على أنه حال مؤكدة
نحو قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾^(١).
﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ أي: للذين تذكروا وعرفوا الحق دار الله يعني الجنة،
أضافها إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من كل آفة وبلية.
﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: هي مضمونة لهم عند ربهم يوصلهم إليها لا محالة، كما
تقول: لفلان عندي حق لا ينسى.
﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ مواليهم ومحبيهم.
﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون.
﴿وَيَوْمَ﴾ نحشروهم، منصوب بمحذوف، أي: واذكر يوم نحشروهم
﴿جَمِيعًا﴾ قلنا: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ﴾، أو يوم نحشروهم وقلنا: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ﴾
كان ما لا يوصف لفظاعته، والجن هم الشياطين.
﴿قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أضللتهم منهم كثيراً، كما يقال: استكثر فلان

من الأشياء.

﴿وَقَالَ أُولِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ الذين اتبعوهم وأطاعوهم: ﴿رَبَّنَا أَسْتَمِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع الإنس بالشياطين حيث دلّوهم على الشهوات وما يوصل إليها، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم.
﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ يعنون يوم البعث.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم: ﴿النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ﴾ أي: مقامكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مؤبدين ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ من أوقات حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم في محاسبتهم. وقيل: إن الاستثناء لغير الكفار من عصاة المسلمين، فإنهم في مشيئة الله إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنه، أو لمن آمن من الكفار.

وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمَعَشَرُ
الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

أي: مثل ذلك ﴿نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضاً، كما فعل الشياطين وغواة الإنس.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي.
﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ اختلف في أن الجن هل بعث إليهم رسل منهم؟ فقال بعضهم: بعث إليهم رسول من جنسهم، وتعلّق بظاهر هذه الآية^(١)، وقال الآخرون: الرسل من الإنس خاصة^(٢). وإنما قيل: ﴿رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ لأنّه لما جمع

(١) عن الضحاك. تفسير الطبري ج ٨: ٢٧.

(٢) عن ابن جريج. تفسير الطبري ج ٨: ٢٧.

الثقلان في الخطاب صح ذلك وإن كان من أحدهما، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(١) وإن كان اللؤلؤ يخرج من الملح دون العذب، وعن ابن عباس: (إنما بعث الرسول من الإنس، ثم كان هو يرسل إلى الجن رسولا منهم)^(٢).

﴿يَقْضُونَ﴾ أي: يتلون ﴿عَلَيْكُمْ﴾ حججي ودلائلي ويخوفونكم ﴿لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ هذا حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله، وإقرارهم بأن حجة الله لازمة لهم.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ ﴿١٣١﴾
وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا
أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا
تُوعَدُونَ لَأْتِيَنَّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا
عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ
عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من بعثه الرسل إليهم، وتقديره: الأمر ذلك ﴿أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ﴾ تعليل، أي: الأمر ما قصصنا عليك لانتفاء كون ربك ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ أي: بسبب ظلم أقدموا عليه، أو ظالماً على معنى: إنه لو أهلكهم من غير تنبيه برسول وكتاب لكان ظالماً، وهو متعال عن الظلم.

(١) الرحمن: ٢٢.

(٢) تفسير الطبري ج ٨: ٢٧.

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المكلفين ﴿دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي: مراتب من أعمالهم على حسب ما يستحقونه، وقيل: أراد درجات ودركات من جزاء أعمالهم فغلب منازل أهل الجنة.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ﴾ أي: ساه ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه مقاديره وما يستحق عليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ عن عباده وعن عبادتهم.

﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع العظيمة التي لا يحسن إيصالهم إليها إلا بالاستحقاق لاقتранها بالتعظيم والإجلال.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها العصاة.

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أي: وينشئ من بعد إهلاككم وإذهابكم خلقاً غيركم يطيعونه يكونون خلفاء لكم ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ تقدّموكم.

﴿إِنَّ مَا تُوَعَّدُونَ﴾ من الحشر والثواب والعقاب وتفاوت أهل الجنة والنار في الدرجات والدركات ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُمْ﴾ بخارجين عن ملكه.

﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ المكانة تكون مصدراً لـ (مكن): إذا تمكّن أبلغ التمكّن، وتكون بمعنى المكان يقال: مكان ومكانة ومقام ومقامة، أي: اعملوا على تمكّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو اعملوا على حالكم التي أنتم عليها.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكاني التي أنا عليها. والمعنى: اثبتوا على كفركم

وعداوتكم فإنّي ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيّنا تكون له العاقبة المحمودّة، وهذا نحو قوله:

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(١) في أنّه على طريق التهديد والتسجيل على المأمور بأنّه لا يأتي منه إلا الشر، فكأنّه واجب عليه وهو مأمور به ليس له أن يعمل بخلافه.

﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ﴾ إن كان بمعنى (أي) فمحلّه الرفع ويكون تعليقاً، وإن كان بمعنى (الذي) فمحلّه النصب.

و﴿عَقِبَةُ الدَّارِ﴾ العاقبة الحسنی التي خلق الله هذه الدار لها، وهو وعيد.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا
فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ
لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصُلُّ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصُلُّ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

يعني: كفار مكة وأسلافهم، كانوا يعيّنون أشياء ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ﴾ لله وأشياء منهما لألهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه لله نامياً زاكياً رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زكا ما جعلوه للآلهة تركوه لها، واعتلّوا لذلك بأنّ الله غني. وقوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ فيه أنّ الله هو الذي ذرأه وزكاه، فكان أولى بأن يجعل له الزاكي.

وقرئ: بزعمهم - بضم الزاي وفتحها - أي: زعموا أنّه لله، والله لم يأمرهم بذلك.

وسمّى الأوثان شركاءهم لأنّهم أشركوهم في أموالهم وفي أنعامهم.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في إشار آلهتهم على الله، وعملهم على ما لم يشرع لهم.

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ
دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾
وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمُ وَأُنْعَمُ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ
يَرْعِيهِمْ وَأَنعَمُ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ
عَلَيْهَا أَفْتَرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

أي: ومثل ذلك التزيين الذي هو تزيين الشرك في قسمة القربات بين الله وآلهتهم ﴿زَيْنَ﴾ لهم ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ من الشياطين، أو من سدنة الأصنام ﴿قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ بالوآد^(١) خيفة العيلة أو العار. وقرئ: (زَيْنَ) على البناء للمفعول الذي هو قتل أولادهم - بالنصب - شركائهم - بالجر - على إضافة قتل إلى شركائهم، والفصل بينهما بغير الظرف كما جاء في الشعر:

فَرَجَجْتُهَا بِمَزَجَةٍ زَجَّ الْقُلُوصِ أَبِي مَزَادَةَ^(٢)

والتقدير: زَيْنَ لهم أن قتل شركائهم أولادهم.

﴿لِيُرْذُوهُمْ﴾ أي: ليهلكوهم بالإغواء.

﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوه عليهم ويشبهوه، ودينهم هو ما كانوا عليه من دين إسماعيل، وقيل: دينهم الذي كان يجب أن يكونوا عليه.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ مشيئة قسر ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما فعل المشركون ما زَيْنَ

(١) وأد ابنته وأد: أي دفنها في القبر وهي حية. (الصحاح: مادة وأد)

(٢) لم أعثر على قائله في المصادر المتوفرة.

لهم من القتل.

﴿فَذَرَّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: وافترأؤهم أو ما يفترونه من الإفك.

﴿حَجَرٌ﴾ فعل بمعنى مفعول كالذبح والطحن بمعنى المذبوح والمطحون، ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، لأنَّ حكمه حكم الأسماء غير الصفات، وعن ابن مسعود وأبي: حرج، وهو من التضيق.

وكانوا إذا عَيَّنوا شيئاً من حرثهم وأنعامهم لأهتهم قالوا: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ﴾ يعنون خدم الأصنام والرجال دون النساء.

﴿يَرْعِمُهُمْ﴾ من غير حجة لهم فيه.

﴿وَأَنْعَمُ حَرَمَتَ ظُهُورِهَا﴾ هي البحائر والسوائب والحوامي.

﴿وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ في الذبح والنحر، وإنَّما يذكرون عليها أسماء الأصنام، وقيل: لا يحجَّون عليها ولا يلَبِّون على ظهورها^(١). والمعنى: إنَّهم قسموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعام حجر، وهذه أنعام محرمة الظهور، وهذه أنعام لا يذكر عليها اسم الله، فجعلوها أجناساً بدعواهم الباطلة، ونسبوا ذلك التقسيم إلى الله.

﴿أَفْتَرَاءَ عَلَيْهِ﴾ أي: فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء، فهو مفعول له أو

حال.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا
وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ
سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ

(١) عن أبي وائل. تفسير الطبري ج ٨: ٣٥.

الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ
أَفِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب: إن ما ولد منها حياً فهو خالص للذكور، وما ولد منها ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث.

وَأَنْتَ ﴿خَالِصَةٌ﴾ للحمل على المعنى، لأنَّ ﴿مَا﴾ في معنى الأجنة، وذكر ﴿مُحَرَّمٌ﴾ للحمل على اللفظ. ويجوز أن يكون التاء للمبالغة كالتاء في رواية الشعر، وأن يكون مصدراً وقع موقع الخالص كالعافية أي: ذو خالصة، ويدل عليه قراءة من قرأ: خالصة - بالنصب - على أن قوله: ﴿لَنُكُونَنَّ﴾ هو الخبر و﴿خَالِصَةٌ﴾ مصدر مؤكد.

﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيِّتَةً﴾ وإن يكن ما في بطونها ميتة، وقرئ: وإن تكن، على: وإن تكن الأجنة ميتة. وقرئ: وإن تكن - بالتأنيث - ميتة - بالرفع - على كان التامة. وذكر الضمير في قوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ [لأن الميتة لكل ميت ذكراً أو أنثى، فكأنه قيل: وإن يكن ميت فهم فيه شركاء]^(١).

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحریم من قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾^(٢)، ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾^(٣).
﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جهلاً وخفة حلم وذهاباً عن الصواب، جهلوا أن الله هو رازق أولادهم لا هم. وقرئ: قتلوا - بالتشديد..

(١) ساقطة من أ.

(٢) النحل: ٦٢.

(٣) النحل: ١١٦.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمْ﴾ من البحائر والسوائب وغيرهما.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ
وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتَ مُتَشَكِّبًا
وغيرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ
حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

ثم ذكر سبحانه إنشاء الأشياء فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ من
الكروم ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مسموكات مرفوعات بالدعائم.
﴿وغيرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش.
﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ أي: وأنشأ النخل والزرع.

﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ في اللون والطعم والحجم والرائحة [وقرئ: أكله
بالضم والسكون]^(١) وهو ثمره الذي يؤكل. والضمير للنخل، والزرع داخل في
حكمه لكونه معطوفاً عليه، و﴿مُخْتَلِفًا﴾ حال مقدرة، لأنه لم يكن وقت الإنشاء
كذلك، وأنشأ الزيتون ﴿وَالرُّمَّاتَ مُتَشَكِّبًا﴾ في الطعم واللون والحجم ﴿وغيرَ
مُتَشَكِّبٍ﴾ فيها.

وإنما قال: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ ليعلم أن وقت إباحة الأكل ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ وقت
الإطلاع، ولا يتوهم أنه غير مباح أكله قبل وقت الإيناع.
﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وهو ما تيسر إعطاؤه المساكين من الضغث
بعد الضغث والحفنة بعد الحفنة وهو المروي عنهم عليهم السلام^(٢)، وقيل: إنه الزكاة: العشر

(١) ساقطة من أ، ب، ط.

(٢) ينظر: الوسائل ج ٦ باب ١٣، ١٤ من أبواب زكاة الغلات.

أو نصف العشر^(١)، أي: لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بأن تتصدقوا بالجميع ولا تبقوا للعيال شيئاً.

وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَبْغُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ مِنَ الضَّكَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

عطف ﴿حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾ على ﴿جَنَاطٍ﴾. أي: وأنشأ ﴿مِنَ الْأَنْعَمِ﴾ ما

تحمل عليه الأثقال وما يفرش للذبح، أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش، وقيل: الحمولة: الكبار التي تصلح للحمل، والفرش: الصغار لدنوها من الأرض فهي كالفرش المفروش عليها^(٢).

﴿ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ﴾ بدل من ﴿حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾.

﴿اثْنَيْنِ﴾ أي: زوجين اثنين، يريد الذكر والأنثى كالكبش والنعجة، والئيس والعنز، والجمال والناقة، والثور والبقرة، فإن الواحد يسمى فرداً إذا كان وحده، وإذا كان معه غيره من جنسه فهما زوجان، يدل عليه قوله: ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ

(١) عن ابن عباس وغيره. تفسير الطبري ج ٨: ٤٠.

(٢) عن ابن مسعود وغيره. تفسير الطبري ج ٨: ٤٦.

وَالْأُنْثَى ﴿١﴾ وقوله: ﴿ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ﴾.

ثم فسرها بقوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ و﴿مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾. والضأن والمعز جمع ضائن وماعز.

والهمزة في ﴿الذَّكَرَيْنِ﴾ للإنكار، والمراد بالذكرين: الذكر من الضأن ومن المعز، وبالأثنين: الأنثى من الضأن ومن المعز. والمعنى: إنكار أن يحرم الله من جنسي الغنم - ضأنها ومعزها - شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها، ولا مما تحمل إناث الجنسين.

وكذلك القول في ﴿الذَّكَرَيْنِ﴾ من جنسي الإبل والبقر و﴿الْأُنْثَيْنِ﴾ منهما وما تحمل إناثها. وذلك أنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادها كيفما كانت ذكراً أو إناثاً أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون: قد حرمها الله، فأنكر ذلك عليهم.

﴿يَعُوذُنِي بِعَلَمٍ﴾ أخبروني بأمر معلوم من جهة الله يدلّ على تحريم ما حرّمتم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنّ الله حرّمه.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ بل أكنتم شهداء حين أمركم ربكم بهذا التحريم؟! ومعناه: أعرّضتم توصية الله به مشاهدين، لأنكم لا تؤمنون بالرسول وتقولون: إنّ الله حرّم هذا الذي تحرّمونه؟!

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ وهو عمرو بن لحي بن قمعة الذي بحر البحائر وسيب السوائب.

فقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ تمامه عند قوله: ﴿وَصَصَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾.
 وقوله: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ إلى قوله: ﴿المُسْرِفِينَ﴾ اعتراض، وكذلك قوله:
 ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ و﴿تَبِعُونِي بِعِلْمٍ﴾ إلى تمام الآيتين. والاعتراضات
 لتأكيد التحليل والاحتجاج على من ذهب إلى التحريم.

قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ
 يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ
 فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

ثم أخذ في بيان المحرمات، وقوله: ﴿فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ إيدان بأن التحريم إنما
 يثبت بوحى من الله لا بما تهواه النفوس.

﴿مُحَرَّمًا﴾ أي: طعاماً محرماً من المطاعم التي حرّمتموها.
 ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ أي: إلا أن يكون الشيء المحرّم ميتة.
 ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ مصبوباً سائلاً كالدم في العروق لا كالكد أو المختلط
 باللحم لا يمكن تخليصه منه.

﴿أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي: نجس.
 ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطف على المنصوب قبله و﴿أَهْلًا﴾ صفة له.
 ﴿فَمَنْ اضْطَرَّ﴾ فمن دعت الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات.
 ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطر مثله و﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوز قدر حاجته من
 تناوله.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ
وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا
أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا
لَصَدِيقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

ذو الظفر: كل ماله إصبع من دابة أو طائر ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ هو كقولك: من زيد أخذت ماله، تريد بالإضافة زيادة الربط،
والمعنى: إنه حرم عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه، ولم يحرم عليهم
من البقر والغنم إلا الشحوم الخاصة وهي الشروب وشحوم الكلى.
وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ معناه: إلا ما اشتمل على الظهور
والجنوب.

﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ أو ما اشتمل على الأمعاء.
﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو شحم الإلية.
﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء ﴿جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ فيما
أوعدنا به العصاة، وفي الإخبار عن بغْيهم.
﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فيما تقول ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لا يعجل
بالعقوبة، ولا يدفع عذابه إذا جاء وقته.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا
حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا
بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا

الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ
لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ
اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَاِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

هذا إخبار بما سوف يقولونه، ثم لما قالوه قال: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا
عَبَدْنَاهُمْ﴾^(١)، وزعموا أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما حرّموه بمشيئة الله
وإرادته، ولولا أنه شاء ذلك لم يكن شيء منه، وهذا مذهب المجبرة^(٢) بعينه.
﴿كَذَلِكَ﴾ جاء ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بالتكذيب المطلق، لأن الله سبحانه
ركّب في العقول ما دلّ على علمه بالقباح، وبغناه عنها وبراءته عن مشيئة القباح
وإرادتها، وأخبر أنبياءه بذلك، فمن علّق وجود الكفر بمشيئته فقد كذب التكذيب
كله، وهو تكذيب الله وكتبه ورساله، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره.
﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التكذيب الذي صدر من هؤلاء ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم.
﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم
﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾، وهذا من التهمك والشهادة بأنّ مثل قولهم محال أن يكون له
حجّة.

(١) الزخرف: ٢٠.

(٢) الجبر: هو نفي الفعل حقيقة من العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والمجبرة أصناف. ينظر: الملل
والنحل ج ١: ١١٢.

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتبعون في قولكم هذا ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾.

﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تقدرون أن الأمر كما تزعمون، أو تكذبون.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي: فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله، فله الحجة البالغة عليكم على قود مذهبكم، فإنه يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئة الله.

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ منكم ومن مخالفكم في الدين، فينبغي أن توالوهم ولا تعادوهم، لأن المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وما هم عليه.

﴿هَلُمُّ﴾ يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وبنو تميم تؤنث وتجمع، والمعنى: هاتوا ﴿شُهَدَاءَ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ بصحة ما تدعونه من ﴿أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾.

﴿إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: لا تسلّم لهم ما شهدوا به ولا تصدّقهم، لأنه إذا سلّم لهم فكأنّه شهد مثل شهادتهم وكان واحداً منهم.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٌ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

﴿مَا حَرَّمَ﴾ منصوب بـ ﴿أَتْلُ﴾ بمعنى: أتل الذي حرّمه ربكم، أو بـ ﴿حَرَّمَ﴾

بمعنى: أتل أي شيء حرّم ربكم لأن التلاوة من القول.

وأن في ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ مفسرة و(لا) للنهي، وإن جعلت أن الناصبة

للفعل كان ﴿لَا تُشْرِكُوا﴾ بدلاً من ﴿مَا حَرَّمَ﴾، إلا أنّ القول الأول أوجه ليكون (لا تشركوا)، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ نواهي، وتنعطف الأوامر عليها وهي قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ فإنّ التقدير: وأحسنوا بالوالدين إحساناً ﴿وَأَوْفُوا﴾، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾.

ويجوز أن تقف على قوله: ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ ثم تبدئ فتقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ أي: عليكم ترك الإشراك، على أن تكون (أن) الناصبة للفعل.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ﴾ أي: من أجل إملاق وخشيته، وهو الفقر. ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ المعاصي والقبائح ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ مثل قوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾^(١)، وعن الباقر (عليه السلام): ((ما ظهر هو الزنا، وما بطن هو المخالة))^(٢).

وأعاد ذكر النهي عن القتل وإن كان داخلاً في الفواحش تعظيماً لأمره.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقصاص والقتل على الردة والرجم.

و﴿النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ هي نفس المسلم والمعاهد.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا
قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ
وَصَدَّقْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

(١) الأنعام: ١٢٠.

(٢) التبيان ج ٤: ٣٤١.

فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ
وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

المراد بالقرب التصرف فيه.

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [بالخصلة التي هي أحسن]^(١) ما يفعل بهال اليتيم، وهي حفظه وتثميته، والمعنى: احفظوه عليه ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ وهو بلوغ الحلم وكمال العقل، ثم ادفعوه إليه.

﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالتسوية والعدل.

﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وهو ما يسعها ولا تعجز عنه، وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والوزن ذلك، لأن مراعاة التعديل فيهما على الحد الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يتعذر، فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفو عنه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ أي: فقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها ﴿ذَاقُرْبَى﴾ من القائل، أي: من أهل قرابته.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ قرئ بالفتح على تقدير: ولأن هذا صراطي مستقيماً ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾، وهذا على قياس قول سيبويه^(٢) في نحو قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا﴾^(٣) و﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ... فَلْيَعْبُدُوا﴾^(٤) فيكون - على هذا - قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ علة للاتباع. وقرئ: وأن هذا - بالتخفيف - على: وأنه هذا صراطي، على أن (الهاء) ضمير الشأن، وقرئ: وإن - بالكسر -

(١) ساقطة من ج.

(٢) الكتاب ج ٣: ١٢٧.

(٣) الجن: ١٨.

(٤) قریش: ١-٣.

فيكون كأنه قيل: واتبعوا صراطي إنه مستقيم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الطرق المختلفة في الدين من اليهودية والنصرانية

والمجوسية وسائر البدع والشبهات.

﴿فَنَفَرَقَ بَيْنَكُمْ﴾ أصله تفرّق، أي: ففترّقكم أيادي سبأ.

﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام، وقرئ: فتفرّق

- بإدغام التاء في التاء.. وروي: أَنَّ النبي ﷺ خَطَّ خطاً ثم قال: ((هذا سبيل الرشَد،

ثم خَطَّ عن يمينه وعن شماله خطوطاً ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان

يدعو إليه، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾^(١).

وعن ابن عباس: (هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب)^(٢).

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَقْصِيلاً
لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا
كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ
تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ
دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى الْكِتَابِ لَكُنَّا
أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَايِدَتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

عطف ﴿ثُمَّ آتَيْنَا﴾ على ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ [والمعنى: ذلكم وصاكم به]^(٣)

(١) مسند أحمد ج ١: ٤٣٥.

(٢) معالم التنزيل ج ١: ٣٣٨.

(٣) ساقطة من ج.

يابني آدم قديماً وحديثاً، ثم إِنَّا آتَيْنَا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾، وقيل: هو عطف على ما تقدّم من قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^(١).

﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: تماماً للكرامة والنعمة على من كان محسناً صالحاً يريد جنس المحسنين، أو أراد به موسى ﷺ أي: تتمّة للكرامة على [العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به، أو تماماً على]^(٢) الذي أحسن موسى من العلم والشرائع، من أحسن الشيء: إذا أجاد معرفته، أي: زيادة على علمه على وجه التتميم.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ يريدون اليهود والنصارى.

﴿وَإِنْ كُنَّا﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، أي: وإنّه ﴿كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ والهاء ضمير الشأن، والدراسة: القراءة، أي: لم نعرف مثل دراستهم.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ في المبادرة إلى قبوله والتمسك به، لجودة أذهاننا وثقابة أفهامنا، فإنّ العرب كانوا يدلون بحدّة الذهن وذكاء الحدس، وحفظ أيامهم ووقائعهم وخطبهم وأشعارهم.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تبكيت لهم، وهو على قراءة من قرأ: يقولوا - بالياء - على لفظ الغيبة أحسن لما فيه من الالتفات. والمعنى: إن صدقتم فيما كنتم تعدّونه من أنفسكم فقد جاءكم بيّنة من ربكم، فحذف الشرط.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَايَةِ اللَّهِ﴾ بعد ما عرف صحتها وصدقها، أو

(١) الأنعام: ٨٤.

(٢) ساقطة من ج.

تمكّن من معرفة ذلك.

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ الناس فضل وأضلّ.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ
بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا
إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

أي: ما ينتظر هؤلاء ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ﴾ ملائكة الموت أو العذاب.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: كل آيات ربك بدلالة قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ
رَبِّكَ﴾ يريد آيات القيامة والهلاك الكلي، وبعض الآيات أشراف الساعة كطلوع
الشمس من مغربها وغير ذلك.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [التي يزول التكليف عندها] ^(١).

﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ﴾ أي: لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير
مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، ولا ينفع الكسب للخيرات في الإيمان حينئذ
نفساً غير كاسبة لها ﴿فِي إِيمَانِهَا﴾ من قبل ظهورها. وفي هذا دلالة على أنّ كسب
الخير الذي هو عمل الجوارح، غير الإيمان الذي هو عمل القلب، ألا ترى أنّه
عطف هذا على ذاك، والشيء لا يعطف على نفسه وإنّما يعطف على غيره.

﴿قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ وعيد وتهديد. وقرئ: تأتيهم الملائكة - بالتاء

والياء..

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا
أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ
فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بأن جعلوه أدياناً.

﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ أي: أحزاباً وفاقاً يكفر بعضهم بعضاً، كل فرقة تشيع إماماً لها. وفي الحديث: ((افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وافترت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وتفرقت أممي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة))^(١). وقرئ: فارقوا دينهم، أي: تركوه.

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: من السؤال عنهم وعن تفرقهم، وقيل: معناه: إنك على المباحة التامة من الاجتماع معهم في شيء من مذاهبهم الفاسدة.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ﴾ والحكم بينهم في اختلافهم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾.

﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أقيمت الصفة مقام الموصوف، تقديره: عشر حسنات أمثالها، وقرئ: عشر أمثالها - برفعها جميعاً - على الوصف، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف، فقد وعد بالواحد سبعمائة، ووعد أضعافاً مضاعفة بغير حساب. ومضاعفة الحسنات فضل ومكافأة السيئات عدل.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقص من ثوابهم ولا يزداد على عقابهم.

(١) سنن ابن ماجه ج ٢: ١٣٢٢ ح ٣٩٩٢، أمالي الشيخ الطوسي ج ٢: ١٣٦ عن علي عليه السلام.

قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
 حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ
 وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ
 الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

﴿دِينًا﴾ بدل من موضع قوله: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فإن المعنى: هداني
 صراطاً، والقيم فيعمل من قام كالسيد والهيئ، وقرئ: ﴿قِيمًا﴾ وهو مصدر بمعنى
 القيام وصف به.

و﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان، و﴿حَنِيفًا﴾ حال من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: هداني
 وعرفني ملة إبراهيم في حال حنيفيته.

﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: عبادتي وتقربي كله، وقيل: وذبحي فجمع بين
 الصلاة والذبح^(١)، ونحوه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾^(٢)، وقيل: ومناسك حجج^(٣).

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما آتية في حال حياتي وأموت عليه من الإيمان والعمل
 الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالصة لوجهه.

﴿وَبِذَلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم
 لإسلام أمته.

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِئِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا
 عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَزَرُ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
 كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ

(١) عن سعيد بن جبیر وغيره. تفسير الطبري ج ٨: ٨٣.

(٢) الكوثر: ٢.

(٣) عن مقاتل. معالم التنزيل ج ١: ٣٤٠.

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ
الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

هذا جواب عن دعائهم إيّاه إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار، أي: منكر أن
﴿أَتَّبِعِي رَبًّا﴾ غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فكل من دونه مربوب، ليس في الوجود من
له الربوبية غيره، ونحوه: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾^(١).

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ جواب عن قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ﴾^(٢).

﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزِرَ أُخْرَى﴾ معناه: لا تؤخذ نفس آثمة بإثم نفس أخرى.
﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ يخلف أهل كل عصر أهل العصر الذي قبله،
كلما مضى قرن خلفهم قرن، يجري ذلك على انتظام واتساق إلى يوم القيامة، وقيل:
المراد بذلك أمة نبينا محمد ﷺ لأنه خاتم النبيين فخلفت أمته سائر الأمم^(٣).

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الشرف والرزق، وقيل: في الصورة
والعقل والمال والعمر.

﴿لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ كيف تشكرون نعمه، وكيف يصنع الشريف
بالوضيع والغني بالفقير.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ بمن كفر نعمته ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن قام
بشكرها، ووصف العقاب بالسرعة لأن كل ما هو آت قريب.

(١) الزمر: ٦٤.

(٢) العنكبوت: ١٢.

(٣) عن السدي. تفسير الطبري ج ٨: ٨٤.

سورة الأعراف

مكية، مائتان وست آيات كوفي، خمس بصري، عدّ الكوفي ﴿المص﴾ و﴿كما﴾
بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴿، وعدّ البصري ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

في حديث أبي: ((من قرأ (سورة الأعراف) جعل الله بينه وبين إبليس ستراً
وكان آدم له شفيعاً يوم القيامة))^(١)، الصادق عليه السلام: ((من قرأها في كل شهر كان يوم
القيامة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإن قرأها في كل جمعة كان ممن
لا يحاسب يوم القيامة))^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ١ كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ

بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا

تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣

أي: هو ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ بأمر الله تعالى ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾

أي: من تبليغه، والخرج: الضيق، لأنه عليه السلام كان يخاف تكذيب قومه له وإعراضهم
عن قبول قوله وأذاهم له، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له، فأمنه الله

(١) الكشف والبيان ج ٤: ٢١٤.

(٢) ثواب الأعمال: ١٠٥.

سبحانه وأمره بترك المبالاة بهم.

﴿لِنُنْذِرَ بِهِ﴾ تعلق بـ ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: أنزل إليك لإذارك به، ﴿وَذِكْرِي﴾ يحتمل النصب على معنى: لتنذر به وتذكر تذكيراً، فإن الذكرى في معنى التذكير؛ والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو عطف على ﴿كِتَابٌ﴾؛ والجر للعطف على محل (أن تنذر) أي: للإذار والذكرى.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن والوحي.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ﴾ الضمير لـ ﴿مَا أُنْزِلَ﴾ أي: ولا تتبعوا من دون دين الله دين أوليائكم، أو لـ ﴿رَبِّكُمْ﴾. أي: ولا تتبعوا من دون الله ﴿أَوْلِيَائِهِ﴾، أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الإنس والجن، فيحملوكم على الأهواء والبدع، ويضلوكم عن دين الله وعمّا أمركم باتباعه، وعن الحسن: (يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة نبيه، والله ما أنزلت آية إلا ويجب أن تعلم فيما أنزلت وما معناها)^(١).

﴿فَلْيَلَا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتذكرون فأدغم، وقرئ: تذكرون - خفيفة الذال بحذف التاء -، وقرئ: يتذكرون - بياء وتاء - أي: يتذكرون تذكراً قليلاً حيث يتركون دين الله ويتبعون غيره.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

﴿فَجَاءَهَا﴾ أي: فجاء أهلها.

﴿بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا.

﴿بَيِّنًا﴾ مصدر وضع موضع الحال، أي: بائتين أو قائلين. ويجوز أن لا يقدر

حذف المضاف في القرية ويكون الضمير في ﴿أَهْلَكْنَهَا﴾ للقرية، لأن القرية تهلك كما يهلك أهلها، فلا حاجة بنا إلى الإضمار.

وقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ لم يحتج فيه إلى الواو، لأن الضمير العائد قد أغنى عنه، ولأنها إذا عطفت على حال قبلها يحذف الواو استثقلاً لاجتماع حرفي عطف، لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل. والمعنى: وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها عذابنا في هذين الوقتين: وقت البيات ووقت القيلولة، لأنها وقتا الغفلة والدعة فيكون نزول العذاب فيها أشد.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوُهُمْ﴾ ما كانوا يدعون من دينهم إلا اعترافهم ببطلانه وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فيما كنا عليه، أو فما كان دعاؤهم ربهم إلا اعترافهم بظلمهم وتحسرهم على ما كان منهم.

و﴿دَعْوُهُمْ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿أَن قَالُوا﴾ رفع لأنه اسمه، ويجوز العكس.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعَلَمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَأَلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

أي: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ المرسل ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وهم الأمم، نسألهم عما أجابوا به رسلهم.

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيبوا به وعما عملت أممهم فيما جاؤوا به.

﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم.

﴿بِعَلَمٍ﴾ أي: عالين بأحوالهم الظاهرة والباطنة ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم

وعما وجد منهم. وأما المعنى في سؤالهم مع علمه بأحوالهم، فالتويخ والتقيرير عليهم، وازدياد سرور المثابين بالثناء عليهم، وغم المعاقبين بإظهار قبائحهم.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ يعني: وزن الأعمال والتمييز بين خفيفها وراجحها. ورفعها على الابتداء و﴿الْحَقُّ﴾ صفته، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبر المبتدأ، أي: والوزن يوم يسأل الله الأمم ورسلمهم الوزن الحق، أي: العدل. واختلف في كيفية الوزن: ف قيل: إنّه عبارة عن القضاء الحق والحكم العدل^(١)، وقيل: توزن صحف الأعمال بميزان له كفتان تأكيداً للحجة وإظهاراً للنصفة^(٢).

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ جمع ميزان أو موزون، فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها قدر ووزن وهي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم.

﴿بِعَايِنَتْنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي: يكذبون بها ظلماً كقوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾^(٣).

وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾

﴿مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لكم فيها مكاناً، أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾ جمع معيشة، وهي ما يعاش به من أنواع الرزق

(١) عن مجاهد. تفسير الطبري ج ٨: ٩١.

(٢) عن ابن عباس وغيره. الدر المنثور ج ٣: ٧٠.

(٣) الأعراف: ١٠٣.

ووجوه النعم والمنافع، أو ما يتوصل به إلى ذلك. والوجه التصريح بالياء، وقرأ بعضهم بالهمزة على التشبيه بصحائف.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوّر ﴿ثُمَّ﴾ صورناه بعد ذلك ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

و(لا) في قوله: ﴿أَلَا تَسْجُدُ﴾ صلة بدليل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾^(١)، والفائدة في زيادتها تأكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه، كأنه قيل: ما منعك أن تحقّق السجود وتلزّمه نفسك ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، لأنّ أمري لك بالسجود قد أوجبت عليك لا بد لك منه، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ﴾ وعن ابن عباس: (قاس إبليس فأخطأ القياس، وهو أوّل من قاس)^(٢).

وإنّما دخلت الشبهة عليه من حيث ظن أنّ النار أشرف من الطين، ومن حقّ الأشرف أن لا يؤمر بالسجود للأدون، فكأنّه قال: من كان على مثل صفتي يستبعد أن يؤمر بما أمرت به.

قَالَ فَأَهِيطَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ
 ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ
 فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِنْ بَيْنِ
 أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ
 ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
 مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

﴿فَأَهِيطَ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، أو من السماء، أو من الدرجة أو المنزلة التي

(١) ص: ٧٥.

(٢) معالم التنزيل ج ٢: ٣.

أنت عليها.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ﴾ عن أمر الله ﴿فِيهَا﴾.

﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ أي: من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك، وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس لباس الصغار. وفي الحديث: ((من تكبر وضعه الله، ومن تواضع رفعه الله))^(١).

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي﴾ أي: أمهلني وأخرني في الأجل.

﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ أي: بعث الخلق من قبورهم.

﴿قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: بسبب إغوائك إياي، وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي ولم يثبت كما ثبتت الملائكة، وعن بعضهم: أمرتني بالسجود فحملتني الأنفة على معصيتك^(٢). فسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم. والباء يتعلّق بفعل القسم المحذوف أي: فسبب إغوائك إياي أقسم.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: لأعرضن لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على المارة. وانتصب ﴿صِرَاطَكَ﴾ على الظرف.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم على كل وجه يقدر عليه، وعن الباقر عليه السلام: ((مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)): أهوّن عليهم أمر الآخرة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أمرهم بجمع الأموال ومنعها عن الحقوق لتبقى لورثتهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾: أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على

(١) تحف العقول: ٣٢، مسند الشهاب ج ١: ٢١٩.

(٢) عن الاصم. الكشاف ج ٢: ٩١.

قلوبهم))^(١).

﴿وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قاله تظنياً بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾^(٢)، وقيل: سمعه من الملائكة بإخبار الله لهم.

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ من ذأمه: إذا ذمّه.

﴿مَذْخُورًا﴾ مطروداً.

﴿لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام فيه موطئة للقسم، و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب القسم وقد سدّ مسدّ جواب الشرط ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: منك ومنهم فغلب ضمير المخاطب كما في قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^(٣).

وَيَتَّكِدُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

أي: وقلنا: ﴿يَتَّكِدُمْ﴾.

﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي: تكلم كلاماً خفياً يكرره، ومنه: (وسوس

(١) تفسير القمي ج ١: ٢٢٤ بالمعنى.

(٢) سبأ: ٢٠.

(٣) الأعراف: ١٣٨.

الحَلِيِّ^(١)، وهو فعل غير متعدّ، ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال: موسوس بالفتح ولكن موسوس له أو إليه، ومعنى وسوس له: فعل الوسوسة لأجله، وسوس إليه: ألقاها إليه.

﴿يُبْدِي لَهَا﴾ جعل ذلك غرضاً له ليسوؤهما إذا رأيا ما يؤثران ستره مكشوفاً، وفيه دليل على أنّ كشف العورة لم يزل مستقبحاً في العقول. والمؤارة: جعل الشيء وراء ما يستره، ولم يهمز الواو المضمومة في (وري) كما همز واو (أويصل) لأنّ الواو الثانية مدّة.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا﴾ إلا كراهة أن تكونا ﴿مَلَكَيْنِ﴾ أو همهما أنّهما إذا أكلا من هذه الشجرة تغيّرت صورتها إلى صورة الملك.

﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة.

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ وأقسم لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: المخلصين النصيحة في دعائكما إلى تناول من هذه الشجرة، ولذلك تأكّدت شبهتهما إذ ظنا أنّ أحداً لا يقسم بالله كاذباً.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ من تدلية الدلو وهو إرساها في البئر، أي: نزلها إلى الأكل من الشجرة بما غرّهما به من القسم بالله عزّ وجل. وعن قتادة: (وإنّما يخدع المؤمن بالله)^(٢)، وعن ابن عمر: (إنّه كان إذا رأى من عبده حسن صلاة أعتقه، ف قيل له: إنهم يخدعونك، فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له)^(٣).

﴿فَلَمَّا ذَاكَ أَشْجَرَةً﴾ وجدا طعمها آخذين في الأكل منها.

(١) الحلي: نبات يخرج على أطرافه مثل السنبيل. (لسان العرب: مادة جمع)

(٢) تفسير الطبري ج ٨: ١٠٥.

(٣) طبقات ابن سعد ج ٤ ق ١: ١٢٣.

﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَ مُنْمَا﴾ ظهرت لهما عوراتهما.

﴿وَطَفِقَا﴾ يقال: طفق يفعل كذا بمعنى جعل يفعل.

﴿يَخْصِفَانِ﴾ ورقة فوق ورقة على عوراتهما كما يخصف النعل.

﴿مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل: كان ورق التين^(١).

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ عتاب من الله وتنبية على الخطأ حيث لم يحذرا ما حذرهما الله

من عداوة إبليس ومكره.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ

مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا

تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

سميّا خطأهما ظلماً لأنفسهما وقالوا: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وإن كان ذلك

تركاً للمندوب عندنا، لأنّ الأنبياء معصومون منزّهون عن ارتكاب القبائح، على

عادة أولياء الله في استعظام الصغير من الزلات، واستصغار العظيم من الحسنات.

﴿أَهْطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس.

و﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في محلّ النصب على الحال، أي: متعادين يعاديها

إبليس ويعاديانه.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: موضع استقرار، أو استقرار.

﴿وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿فِيهَا﴾ في الأرض ﴿تَحْيَوْنَ﴾ تعيشون ﴿وَفِيهَا﴾

(١) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ٨: ١٠٦.

تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٣٦﴾ عند البعث.

يَبْنِيْ ءَادَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَءَ تِكْمٍ وَرِيشًا وَلِبَاسُ
التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٦﴾
يَبْنِيْ ءَادَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ
يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَءَ تِهْمًا اِنَّهُ يَرِنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَاءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

جعل ما في الأرض منزلاً من السماء لأنه ثم قضي وكتب، ومنه: ﴿وَأَنْزَلَ
لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾^(١).

والريش: لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته، والمعنى:
﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ لباسين: ﴿لِبَاسًا يُؤَرِّى﴾ عوراتكم، ولباساً يزينكم.

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ وهو الورع والخشية من الله، وهو مبتدأ، وخبره الجملة
التي هي ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، كأنه قيل: هو خير، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر
فيما يرجع إلى عود الذكر. وقيل: لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف أي: وهو لباس
التقوى، ثم قيل: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، وقيل: المراد بلباس التقوى ما يلبس من الدروع
والمغافر^(٢) وغيرهما مما يتقى به في الحرب^(٣). وقرئ: وَلِبَاسَ التَّقْوَى - بالنصب -
عطفاً على لباساً وريشاً.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللّٰهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده، يعني: إنزال
اللباس عليهم.

(١) الزمر: ٦.

(٢) المغافر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة. (الصحاح: مادة غفر)

(٣) عن زيد بن علي معالم التنزيل ج ٢: ٥.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه. وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوات، إظهاراً لنعمته فيما خلق من اللباس.

﴿لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يضلنكم عن الدين ولا يصرفنكم عن الحق بأن يدعوكم إلى المعاصي التي تميل إليها نفوسكم، ولا يمحنتكم بأن لا تدخلوا الجنة كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها.

﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ في موضع نصب على الحال، أي: أخرجهما نازعاً لباسهما عنهما بأن كان السبب في نزع لباسهما عنهما.

﴿إِنَّهُ يَرْتَكُمْ هُوَ﴾ تعليل للنهي والتحذير من فتنة الشيطان بأنه بمنزلة العدو المداجي الذي يكيدكم من حيث لا تشعرون.

﴿وَقِيلَهُ﴾ وجنوده من الشياطين ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، عن ابن عباس: (إن الله تعالى جعلهم يجرون من بني آدم مجرى الدم، وصدور بني آدم مساكن لهم)^(١)، وعن قتادة: (والله إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤونة إلا من عصم الله)^(٢).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: خلينا بينهم وبينهم، لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سؤلوا لهم من مخالفة الله.

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَى

(١) تفسير ابن عباس ج ٢: ٨٧.

(٢) الدر المنثور ج ٣: ٧٦.

وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

أي: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾ معصية كبيرة اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها، وكلاهما عذر باطل، لأن أحدهما تقليد والآخر كذب وافتراء على الله.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ لأنه لا يفعل القبيح فكيف يأمر بفعله.
﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة عليهم بالجهل.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل وبما يشهد العقل أنه مستقيم حق حسن، وقيل بالتوحيد^(١).

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي وقل: أقيموا وجوهكم، أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها.

﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود وهو الصلاة.

﴿وَادْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الطاعة مبتغين بها وجهه خالصاً.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة.

﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ وهم المؤمنون وفقهم للإيمان.

(١) عن الضحاك. معالم التنزيل ج ٢: ٥.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: الخذلان إذ لم يقبلوا الهدى ولم يكن لهم لطف فهم يضلون ولا يهتدون. وانتصب قوله: ﴿وَفَرِيقًا﴾ بفعل مضمر يفسره ما بعده، والتقدير: وخذل فريقاً حق عليهم الضلالة.

﴿إِنَّهُمْ﴾ إن الفريق الذين حق عليهم الضلالة ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أطاعوهم فيما أمروهم به.

يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

أي: ﴿خُذُوا﴾ ثيابكم التي تتزينون بها ﴿عِنْدَ كُلِّ﴾ صلاة. وروي: إن الحسن بن علي عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له في ذلك، فقال: ((إن الله جميل يحب الجمال فأتجمل لربي، وقرأ الآية))^(١). وقيل: هو أمر بلبس الثياب في الصلاة والطواف، وكانوا يطوفون عراة، وقالوا: لا نعبد الله في ثياب أذننا فيها^(٢)، وقيل: أخذ الزينة هو التمشيط عند كل صلاة^(٣).

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ عن ابن عباس: (كل ما شئت واللبس ما شئت

(١) تفسير العياشي ج ٢: ١٤.

(٢) عن ابن عباس وغيره. تفسير الطبري ج ٨: ١١٩.

(٣) ينظر: الوسائل ج ١ باب ٧١ من أبواب آداب الحمام.

ما أخطأتك خصلتان: سرف، ومخيلة^(١).

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ أي: من حرّم الثياب التي يتزيّن بها الناس وكل ما يتجمل به مما أخرجه الله من الأرض ﴿لِعِبَادِهِ﴾.

﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ المستلذات من المأكّل والمشارب. ومعنى الاستفهام إنكار تحريم هذه الأشياء.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم، لأنّ المشركين يشركونهم فيها.

﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لهم لا يشركهم فيها أحد. ولم يقل: هي للذين آمنوا ولغيرهم في الحياة الدنيا، لينبّه على أنّها خلقت للذين آمنوا، وأنّ الكافرين تبع لهم. وقرئ: خالصة - بالنصب - على الحال، وبالرفع على أنّها خبر بعد خبر.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ أي: لم يحرم ربّي إلا الفواحش، والفاحشة: ما تزايد قبحه.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ما علن منها وما خفي.

﴿وَالْإِثْمَ﴾ عام في كل ذنب، وقيل: شرب الخمر^(٢).

﴿وَالْبَغْيَ﴾ الظلم والكبر ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تأكيد.

﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ فيه تهكم، لأنّه لا يجوز أن ينزل سلطاناً وبرهاناً بأن يشرك به غيره.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ أي: تقولوا على الله وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

(١) الكشف والبيان ج ٤: ٢٢٩.

(٢) عن الكاظم عليه السلام. تفسير العياشي ج ٢: ١٧، وعن الحسن. الكشف والبيان ج ٤: ٢٣١.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَبْنِي ۖ ءَادَمُ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ۖ فَمَنْ
اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ
يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا
أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ
أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وعيد لكفار قريش بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم قبلهم.

﴿يَبْنِي ۖ ءَادَمُ﴾ خطاب لجميع المكلفين من بني آدم.

﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ إن يأتكم ﴿رُسُلٌ﴾ من جنسكم، وإنما ضممت (ما) إلى (إن) الشرطية تأكيداً لمعنى الشرط، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة، وجزاء الشرط الفاء وما بعده من الشرط والجزاء. والمعنى: ﴿فَمَنْ اتَّقَى﴾ منكم، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ منكم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: فمن أشنع ظلماً ﴿مِمَّنِ﴾ قال ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ ما لم يقله ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾ ما قاله.

﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أي: مما كتب لهم من الأعمار والأرزاق. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا﴾: ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم إيَّاه، أي: إلى وقت وفاتهم، وهي التي يبتدأ بعدها الكلام، والمستأنف هنا الجملة

الشرطية، و﴿يَتَوَقَّوْنَهُمْ﴾ حال من الرسل، والمراد بالرسل هنا: ملك الموت وأعوانه.

﴿قَالُوا﴾ أي: الرسل ﴿أَيْنَ﴾ الآلهة التي كنتم تدعونها.

﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أي: غابوا عنا فلا نراهم ولا ننتفع بهم، اعترافاً منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

أي: يقول الله جل جلاله للكفار يوم القيامة: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي: كائنين في جملة ﴿أُمَمٍ﴾ وفي غمارهم مصاحبين لهم، والمعنى: ادخلوا في النار مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وتقدم زمانهم زمانكم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ من هذه الأمم النار ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلت بالافتداء

بها.

﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا﴾ أي: تداركوا ﴿فِيهَا﴾ بمعنى: تلاحقوا واجتمعوا في

النار ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ منزلة وهي الأتباع والسفلة ﴿لأُولَهُمْ﴾ منزلة وهي القادة والرؤساء، ومعنى ﴿لأُولَهُمْ﴾ لأجل أولاهم، لأن خطابهم مع الله لا معهم.

﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ أي: دعونا إلى الضلال وحملونا عليه ﴿فَتَاتِهِمْ عَذَابًا

ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفاً.

﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ أي: لكل من رؤساء الضلالة وأتباعهم عذاب مضاعف، لأن جميعهم كانوا ضالين مضلين ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. قرئ بالتاء والياء.

﴿وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ﴾ أي: وقال الرؤساء للأتباع: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله سبحانه للأتباع: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ أي: فقد ثبت أن لا فضل ﴿لَكُمْ عَلَيْنَا﴾ فإننا قد استويناه في استحقاق الضعف.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ من قول الرؤساء، أو من قول الله لكلا الفريقين جميعاً. ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ تكسبونه باختياركم لا باختيارنا لكم.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَمِّ الْحَيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: لا يصعد لهم عمل صالح، ونحوه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾^(١)، وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين^(٢)، وقيل: لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون كما قال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ

(١) فاطر: ١٠.

(٢) عن ابن عباس وغيره. تفسير الطبري ج ٨: ١٢٩.

السَّمَاءِ ﴿١﴾. وقرئ: لا تفتح بالتشديد والتخفيف والتاء والياء.

[﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾] ﴿٢﴾ أي: لا يدخلون الجنة

حتى يكون مالا يكون أبداً من ولوج الجمل - الذي لا يلج إلا في باب واسع - في ثقب الإبرة، والخياط والمخيط: ما يخاط به وهو الإبرة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك الجزء الفطيع ﴿نَجْزِي﴾ سائر ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾.

وقد كرهه فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ عن ابن عباس: (يريد الذين

أشركوا به واتخذوا من دونه إلهاً) ﴿٣﴾. والمهاد: الفراش، والغواشي: الأغطية.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في

اكتساب مالا يبلغه وصف الوصف من النعيم الدائم مع الإجلال والتعظيم بما هو في الوسع، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ قلوبهم ﴿مِنْ غِلٍّ﴾ على إخوانهم في الدنيا،

فسلمت قلوبهم وطهرت من الحقد والحسد والشحناء، ولم يكن بينهم إلا التعاطف والتراحم والتواد.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي: وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم والذخر

الجسيم.

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: وما يصح لنا أن نهتدي ﴿لَوْلَا﴾

هداية الله وتوفيقه. وقرئ: ما كنا لنهتدي - بغير واو - على أنها جملة موضحة للأولى.

﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾ من جهة الله تعالى، ونبهونا على الاهتداء

(١) القمر: ١١.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) مجمع البيان ج ٣-٤: ٤١٩.

فاهتدينا باتباع قولهم، يقولون ذلك سروراً واعتباطاً بما نالوا وتلذذاً بالتكلم به لا تعبدًا.

﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ﴾: (أن) مخففة من الثقيلة، تقديره: ﴿وَنُودُوا﴾ بأنه تلکم الجنة، والضمير ضمير الشأن، ويجوز أن يكون بمعنى (أي) لأن المناداة من القول كأنه قيل: وقيل لهم: تلکم الجنة ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ بسبب أعمالکم.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا
فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ
لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا
عُوجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴿٤٥﴾

﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾ يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، وأن تكون مفسرة كالتي ذكرت قبل، وكذلك ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وإنما قالوا لهم ذلك ابتهاجاً واعتباطاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار، ولتكون هذه الحكاية لطفاً لمن سمعها، وكذلك قول المؤذن بينهم: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وقيل: هو مالك خازن النار يأمره الله تعالى بذلك، فينادي نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار^(١). وروي عن علي عليه السلام أنه قال: ((أنا ذلك المؤذن))^(٢). وقرئ: أَنْ - بالتشديد - لَعْنَةُ اللَّهِ - بالنصب - وقرئ: نَعَمْ - بكسر العين - كل القرآن.

ولم يقل: وعدكم ربكم كما قيل: ﴿وَعَدْنَا﴾ وأطلق، ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب، لأنهم كانوا مكذّبين بذلك أجمع.

﴿يَصُدُّونَ﴾ أي: يعرضون عن دين الله وشريعته، أو يصرفون غيرهم عنها.

(١) الكشف ج ٢: ١٠٦.

(٢) شواهد التنزيل ج ١: ٢٠٢، معاني الأخبار: ٥٧.

﴿وَيَعْنُونَهَا عَوَجًا﴾ أي: يطلبون لها الاعوجاج بالشبه التي يتوهمون أنها قاذحة فيها.

﴿وَهُمْ﴾ بالدار ﴿الْآخِرَةِ﴾ وهي القيامة جاحدون.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

وبين الجنة والنار أو بين أهليهما ﴿حِجَابٌ﴾ أي: ستر، ونحوه: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورٍ﴾^(١).

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ أي: وعلى أعراف الحجاب - وهو السور المضروب بين الجنة والنار - وهي أعاليه، جمع عرف مستعار من عرف الفرس والديك ﴿رِجَالٌ﴾ قال الصادق عليه السلام: ((الأعراف: كثنان بين الجنة والنار، يوقف عليها كل نبي وكل خليفة نبي مع المذنبين من أهل زمانه، كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده، وقد سيق المحسنون إلى الجنة، فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سيقوا إلى الجنة، فيسلم عليهم المذنبون، وذلك قوله: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أن يدخلهم الله إيّاها بشفاعته النبي والإمام، وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا ... إلى آخره﴾^(٢)، وقيل: إنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم [فحالت حسناتهم بينهم وبين النار، وحالت سيئاتهم بينهم وبين الجنة]^(٣) فجعلوا هنالك حتى يقضي الله

(١) الحديد: ١٣.

(٢) تفسير القمي ج ١: ٢٣١ باختلاف.

(٣) ساقطة من ج.

فيهم ما يشاء ويدخلهم الجنة^(١).

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من زمر السعداء والأشقياء.

﴿بِسْمِئِهِمْ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله بها.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب استعاذوا بالله و﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ منهم، وفي هذا أنّ صارفاً يصرف أبصارهم [لينظروا فيستعيذوا. الصادق عليه السلام]: وإذا قلبت أبصارهم^(٢) تلقاء أصحاب النار قالوا: عائداً بك أن تجعلنا مع القوم الظالمين، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمِئِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ
وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ
أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

[الصادق عليه السلام]^(٣): وينادي أصحاب الأعراف وهم الأنبياء والخلفاء ﴿رَجُلًا لَا﴾ من أهل النار ورؤساء الكفار يقولون لهم - مقررعين -: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ واستكباركم.

﴿أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستضعفونهم ويحتقرونهم لفقرهم، ويستطيّلون عليهم بدنياهم، ويقسمون أنّ الله لا يدخلهم الجنة.

﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يقول أصحاب الأعراف لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله عز وجل لهم بذلك: ادخلوا الجنة.

(١) عن حذيفة وغيره. تفسير الطبري ج ٨: ١٣٧.

(٢) ساقطة من ج.

(٣) ساقطة من أ، ج.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: لا خائفين ولا محزونين. وروى الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((نحن نوقف يوم القيامة بين الجنة والنار، فمن نصرنا عرفناه بسيماه فأدخلناه الجنة، ومن أبغضنا عرفناه بسيماه فأدخلناه النار))^(١).

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ
أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ
﴿٥٨﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا
كَانُوا بِعَائِنِنَا يُجْحَدُونَ ﴿٥٩﴾

﴿أَفِضُوا عَلَيْنَا﴾ فيه دليل على أن الجنة فوق النار.

﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الأطعمة والفواكه.

﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ حرم شراب الجنة وطعامها ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي كان يلزمهم التدين به ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾

فحرموا ما شاؤوا واستحلوا ما شاؤوا.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ﴾ أي: نعاملهم معاملة المنسي في النار فلا نجيب لهم

دعوة، ولا نرحم لهم عبدة.

﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فلم يخطر به بالهم ولم يهتموا به.

و(ما) في الموضعين مصدرية، والتقدير: كنسيانهم وكونهم جاحدين

﴿بِعَائِنِنَا﴾.

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ ذُنُوبُهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿بِكِتَابٍ﴾ يعني: القرآن.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالين، كيف نفصل أحكامه ومواعظه وجميع معانيه، حتى جاء قوماً غير ذي عوج. و﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حال من (الهاء) في ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾، كما أنَّ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من (نا) في ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾.

﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إلا عاقبة أمره، وما يؤول إليه من تبين صدقه، وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد.

﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ عاقبة ما وعدوا به.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ ذُنُوبُهُ﴾ أي تركوا العمل به ترك الناسي له ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ اعترفوا بأنهم جاؤوا بالحق.

﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ في إزالة العقاب.

﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾. وارتفع

﴿نُرَدُّ﴾ لوقوعه موقعاً يصلح للاسم، كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

﴿٥٥﴾ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ
اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ سيدكم ومالككم ﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ أنشأ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
وأوجدهما.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، لأنَّ إنشاء الشيء بعد
الشيء على ترتيب، أدلَّ على كون فاعله عليماً حكيماً يدبِّره على مقتضى حكمته، أو
لأنَّه أراد تعليم خلقه الثبَّت والتأني في الأمور.

﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ﴾ وقرئ بالتخفيف، أي: يلحق الليل بالنهار والنهار
بالليل، بأن يأتي أحدهما عقيب الآخر.

﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ﴾ [بأن يأتي في أثره كما يأتي الشيء في أثر الشيء طالباً له] ^(١)،
و ﴿حَيْثُ شَاءَ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أو منهما جميعاً، ومثله ﴿تَحْمِلُهُ﴾ في قوله:
﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ ^(٢).

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتٌ﴾ قرئ الجميع بالنصب حملاً على
﴿خَلَقَ﴾ أي: خلقهن جاريات على حسب تدبيره، وقرئ - أيضاً - جميعاً بالرفع
على الابتداء والخبر.

﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي: بمشيئته وتصريفه، وسمَّى ذلك أمراً على التشبيه كأنهن
مأمورات بذلك.

(١) ساقطة من ج.

(٢) مريم: ٢٧.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: هو الذي خلق الأشياء وهو الذي صرّفها على حسب إرادته.

﴿تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً﴾ نصب على الحال، أي: ذوي تضرّع وخفية، وكذا قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، والتضرّع من الضراعة وهي الذل أي: تذللًا وتملقًا، وقرئ: خُفْيَةً - بكسر الخاء - وهما لغتان.

﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المجاوزين الحد المرسوم في جميع العبادات والدعوات. وقيل: التضرّع: رفع الصوت، والخفية: السر^(١) أي: ادعوه علانية وسراً، وقيل: معناهما تخشعاً وسراً^(٢).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالعمل بالمعاصي.

﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد أن أصلحها الله بالكتب والرسل.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إنما ذكر ﴿قَرِيبٌ﴾ على معنى الترحّم، أو لأنّه صفة موصوف محذوف، أي: شيء قريب، أو لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقي. والمحسن: فاعل الإحسان.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

قرئ: نشرًا مصدر نشر، لأنّ أرسل ونشر متقاربان فكأنّه قال: ينشر الرياح

(١) عن قتادة. الدر المنثور ج ٣: ٩٢.

(٢) تفسير الطبري ج ٨: ١٤٧.

نشراً، ويجوز أن يكون واقعاً موقع الحال بمعنى منشرات^(١)، ونشراً جمع نشور، ونشراً بتخفيفه كرسل ورسل، وقرئ: بشراً جمع بشيرة، و﴿بُشْرًا﴾ بتخفيفه. ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: أمام نعمته وهي الغيث الذي هو من أحسن النعم أثراً وأجلها قدراً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ أي: حملت ورفعت.

﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء جمع سحابة.

﴿سُقْنَتُهُ﴾ الضمير للسحاب على اللفظ.

﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لأجل بلد ليس فيه حيا^(٢) ولسقيه.

﴿فَأَنْزَلْنَاهُ﴾ بالبلد أو بالسحاب ﴿الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بهذا الماء ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات نحوي الأموات بعد موتها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيؤدبكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين، إذ كل منهما إعادة للشيء بعد إنشائه.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الأرض العذبة^(٣) الكريمة التربة.

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ زرعه خروجاً زاكياً نامياً بأمر ﴿رَبِّهِ﴾.

﴿وَالَّذِي حَبِطَ﴾ وهو السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته

(١) في ب، ج، ط: منشرات.

(٢) الحيا - مقصور -: المطر والخصب. (الصحاح: مادة حيا)

(٣) العذبة: الطيبة التربة. (الصحاح: مادة عذا)

﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ فحذف المضاف الذي هو النبات، وأقيم المضاف إليه مقامه فاستكن في الفعل، أو يكون التقدير: ونبات الذي خبث، والنكد: العسر الممتنع من الخروج.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التصريف.

﴿نُصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ نرددها ونكررها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله تعالى.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعِجْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف. هو نوح بن ملك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو إدريس النبي ﷺ. وقرئ: غَيْرِهِ - بالجر - على اللفظ، وبالرفع على محلّ ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بيان لوجه اختصاصه بالعبادة.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بيان للداعي إلى عبادته بأنّه هو الذي يحذر عقابه دون من كانوا يعبدونه من دونه. واليوم العظيم: هو يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم.

و﴿الْمَلَأُ﴾: السادة والأشراف.

﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي: ذهاب عن الحق والصواب. والمراد بالرؤية رؤية القلب الذي هو العلم، وقيل: رؤية البصر أي: نراك بأبصارنا على هذه الحال^(١).

﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي: ليس بي شيء من الضلال.

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بيان لكونه رسول رب العالمين، وهي جملة مستأنفة.

﴿وَسَلَّاتِ رَبِّي﴾ ما أوحى إليّ في الأوقات المتطاولة، وفي المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي.

﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ في زيادة اللام دلالة على إحاض النصيحة للمنصوح له.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من صفاته وأحواله وشدة بطشه على أعدائه مالا تعلمونه.

﴿أَوْعَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قال: أكذبتُم وعجبتم من ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ أي: موعظة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ على لسان رجل ﴿مِنْكُمْ﴾ مثل قوله: ﴿مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾^(٢). وذلك أنهم تعجبوا من نبوة نوح وقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾^(٣).

﴿يُنْذِرْكُمْ﴾ ليحذركم عاقبة الكفر.

﴿وَلِنَنْقُضَ﴾ ولتوجد منكم التقوى وهي خشية الله بسبب الإنذار.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

(١) التبيان في إعراب القرآن: ٥٧٧.

(٢) آل عمران: ١٩٤.

(٣) المؤمنون: ٢٤.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: كانوا عشرة: بنوه: سام وحام ويافث وستة ممن آمن به^(١).

وتعلق قوله ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ بـ﴿مَعَهُ﴾ كأنه قال: والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه فيه، أو بـ(أنجينا) أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان.

﴿قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: عمي القلوب غير مستبصرين.

وَالِإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ
فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ لَيْسَ
بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ
رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ
مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا
ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٦٩﴾

﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب يعني واحداً منهم من قولك: يا أخا العرب للواحد منهم، وإنما جعل واحداً منهم، ليكونوا به أسكن وبحاله أعرف في صدقه وأمانته، وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

وعطف ﴿أَخَاهُمْ﴾ على ﴿نُوحًا﴾، و﴿هُودًا﴾ عطف بيان له، وحذف العاطف من قوله: ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ لأنه على تقدير سؤال سائل سأل فقال: ما قال لهم هود؟ ف قيل: ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وكذلك قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

(١) عن ابن اسحاق. الكشف والبيان ج ٤: ٢٤٥.

والسفاهة: خفة الحلم وسخافة العقل، وصفوه بالسفه حيث هجر دينهم إلى دين الله، وقالوا: ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ جعلوا السفاهة ظرفاً على طريق المجاز، يريدون أنه متمكن فيها غير خال عنها، وفي إجابة نوح وهود وغيرهما من الأنبياء ﷺ من نسبوهم إلى الضلالة والسفاهة بالكلام الصادر عن الإغضاء والمجاملة - مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الخلق وأسفهم - أدب حسن، وحكاية الله ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ويدارونهم.

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ فيما أدعوكم إليه من توحيد الله وطاعته.

﴿أَمِينٌ﴾ ثقة مأمون في تأدية الرسالة فلا أكذب ولا أغتر.

﴿إِذْ جَعَلَكُمْ﴾ أي: وقت جعلكم.

﴿خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: خلفتموهم في الأرض من بعد هلاك قوم

نوح بالعصيان.

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ فيما خلق من أجرامكم ذهاباً في الطول

والبدانة، قال الباقر ﷺ: ((كانوا كالنخل الطوال، وكان الرجل منهم ينحو الجبل بيده فيهدّ منه قطعة))^(١).

﴿فَاذْكُرُواْ آلَاءَ اللَّهِ﴾ في استخلافكم وبسطة أجسامكم وما سواهما من

نعمه، وواحد الآلاء إلى، ونحوه: إنّي وآناء.

قَالُواْ أَحِثَّنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ

ءَابَاؤُنَا فَأَننَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ

قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي

فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ
وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

أنكروا اختصاصه الله بالعبادة وتركه دين آبائهم في ترك عبادة الأصنام إلفاً
منهم بما نشأوا عليه.

﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ استعجال منهم بالعذاب.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وجب عليكم أو نزل عليكم، فجعل
المتوقع بمنزلة الواقع.

﴿رَجَسُ﴾ أي: عذاب، من الإرجاس وهو الاضطراب.

﴿أَتَجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ أي: في أشياء ما هي إلا أسماء
ليس تحتها مسميات، لأنكم سميتوها آلهة ومعنى الإلهية فيها معدوم، ونحوه
قوله: ﴿مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١).

﴿فَأَنْظِرُوا﴾ عذاب الله فإنه نازل بكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لنزوله
بكم.

﴿وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ أي: دمرناهم واستأصلناهم عن آخرهم.

وَالِإِيَّائِي ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمْ صَالِحٌ قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ
اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا

بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ
مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا
قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

أي: وأرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ﴾. قرئ بمنع الصرف على تأويل القبيلة، وهو
ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وصالح من ولد ثمود.
﴿قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيِّنَةٌ﴾ أي: دلالة معجزة وآية ظاهرة شاهدة على
صحة نبوتي.

﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ كأنه قيل: ما هذه البيئة؟ فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾
أضافها إلى ﴿اللَّهُ﴾ لأنه خلقها بلا واسطة، وخرجت من صخرة ملساء تمخضت
بها تمخض التتوج بولدها، ثم انصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء لا يعلم
ما بين جنبيها إلا الله عظماً وهم ينظرون، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم، وكان
لها شرب يوم تشرب فيه ماء الوادي كله، وتسقيهم اللبن بدله، ولهم شرب يوم
يخصهم لا تقرب فيه ماءهم.

و﴿آيَةً﴾ نصب على الحال، والعامل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة التي
هي ﴿هَذِهِ﴾ من معنى الفعل، كأنه قيل: أشير إليها آية، و﴿لَكُمْ﴾ بيان لمن
هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود، لأنهم عاينوها وسمع غيرهم
خبرها وليس الخبر كالمعاينة، فكأنه قال: لكم خصوصاً.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي: الأرض أرض الله والناقة ناقة الله
فذروها تأكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من

إنباتكم.

﴿وَلَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ﴾ أي: بعقر أو نحر أو شيء من الأذى إكراماً لآية الله.
﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ في الأرض بأن مكنكم فيها ﴿مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾.

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ ونزلكم وجعل لكم فيها مساكن تأوون إليها.
﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنيونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من اللبن والآجر.

﴿وَنَجِّحُونَ الْجِبَالَ يُوْتًا﴾ تسكنونها في الشتاء.
و﴿يُوْتًا﴾ نصب على الحال، كما يقال: خط هذا الثوب قميصاً، وهي من الحال المقدرة لأنَّ الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، ولا الثوب قميصاً في حال الخياطة.

﴿فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه عليكم بما أعطاكم من القوة والتمكّن في الأرض.

﴿وَلَا تَعْتُوا﴾ أي: ولا تبالغوا في الفساد.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَتَا يَمَاتِعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى

عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَفَضَحْتُ لَكُمْ
وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٩﴾

قرأ ابن عامر^(١): وقال الملاء - بإثبات الواو -.

و﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تعظموا وأنفوا من اتباع الرسول الداعي إلى الله.

﴿الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾ للذين استضعفوه واستذلوهم.

و﴿لَمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾، والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾

يعود إلى ﴿قَوْمِهِ﴾ أو إلى ﴿الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ إنما قالوه على سبيل السخرية.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أسند العقير إلى جميعهم لأنه كان برضاهم وإن لم يعقرها

إلا بعضهم، وهو قدار بن سالف مع أصحابه، وكان أحمر أزرق قصيراً، وكانوا

تسعة رهط. وقال النبي ﷺ: ((يا علي من أشقى الأولين؟ قال: الله ورسوله أعلم،

قال ﷺ: عاقر الناقة، أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال:

الذي يخضب هذه من هذا، وأشار إلى لحيته - أي لحية علي - ورأسه))^(٢).

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ تولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين، وأمر

ربهم هو ما أمر به على لسان صالح من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أو

شأن ربهم وهو دينه.

﴿أَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا﴾ أي: من العذاب، وإنما استعجلوه لتكذيبهم به، ولذلك

(١) عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي إمام أهل الشام في القراءة والذي انتهت إليه مشيخة الاقراء

بها، ولي القضاء بدمشق وتوفي بها يوم عاشوراء سنة ١١٨ هـ. ينظر: غاية النهاية في طبقات القراء

ج ١: ٤٢٣.

(٢) مسند أبي يعلى ج ١: ٣٧٧.

علقوه بها كانوا به كافرين وهو كونه ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي: بلادهم ومساكنهم.

﴿جَنِيمِينَ﴾ أي: ميتين هامين لا يتحركون، يقال: الناس جثم، أي: قعود

لا حراك بهم.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ تولى متحسر على ما فاتته من إيمانهم متحزن لهم.

﴿وَقَالَ يَتَقَوْمٌ لَقَدْ﴾ بذلت فيكم وسعي ولم آل جهداً في النصيحة لكم.

والظاهر يدل على أنه كان مشاهداً لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم

موتى صرعى.

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ

مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ

النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ

قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ

يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ

الْغَايِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ

عَنْقَبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

أي: وأرسلنا ﴿لُوطًا﴾، و﴿إِذْ﴾ ظرف لـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾.

﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ أفعلون السيئة المتبادية في القبح وهي إتيان الرجال في

أدبارهم.

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ أي: ما عملها قبلكم أحد، والباء للتعدي، ومنه قوله ﷺ:

((سبقك بها عكاشة))^(١)، و(من) في ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ مزيدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق، و(من) الثانية للتبعية.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ من أتى المرأة: إذا غشيها.

﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له أي: للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر، ويجوز أن يكون حالاً أي: مشتتهين تابعين للشهوة.

﴿مِنْ دُوبِ النِّسَاءِ﴾ في موضع الحال أيضاً، أي: تاركين إتيان النساء اللاتي أباح الله إتيانهن.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون الحد في الفساد حتى تتجاوزتم المعتاد إلى غير المعتاد.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ يعني: ما أجابوا لوطاً عما كلمهم به بما يكون جواباً، ولكنهم جاؤوا بما لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم.

﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِئُونَ﴾ من الفواحش والخبائث.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: فخلصنا لوطاً ﴿وَأَهْلَهُ﴾ المختصين به من الهلاك.

﴿إِلَّا أَمْرًا أَنَّهُ كَانَتْ مِنْكَ الْغَيْرِينَ﴾ الذين غبروا في ديارهم أي: بقوا فيها فهلكوا، أو كانت كافرة موالية لأهل سدوم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي: أرسلنا عليهم الحجارة إرسال المطر نحو

قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾^(٢)، والمعنى: وأمطرنا عليهم نوعاً من

(١) صحيح مسلم ج ١: ١٣٧.

(٢) الحجر: ٧٤.

المطر عجبياً، ونحوه قوله: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾^(١).

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَؤُا عِبَادُ اللَّهِ
مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ
رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا
بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن
ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ
قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ
﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ
بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

وأرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وكان يقال لشعيب: خطيب الأنبياء،
لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكيال والميزان.

﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ أي: معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجب
عليكم الإيمان بي.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أريد بالكيل آلة الكيل وهو المكيال، أو
سمي ما يكال به بالكيل كما قيل العيش لما يعاش به، أو أريد أوفوا الكيل ووزن
الميزان، أو يكون الميزان بمعنى المصدر كالميعاد والميلاد.

﴿وَلَا تَبْخُسُوا﴾ ولا تنقصوا، وإنما قيل: ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبيعاتهم.

﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد الإصلاح فيها، أي: ﴿لَا نَفْسِدُوا﴾ فيها ﴿بَعْدَ﴾ ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم، فتكون هذه الإضافة كما في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾^(١) أي: مكرهم في الليل والنهار، أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف.

﴿ذَلِكَكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض.

﴿حَيْرَ لَكُمْ﴾ في الإنسانية وحسن الأحداث وما تطلبونه من الربح، لأن الناس إذا عرفوا منكم النصفة والأمانة رغبوا في متاجرتكم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين لي في قولي.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ﴾ منهج من مناهج الدين مقتدين بالشیطان في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) تتوعدون من آمن بالله ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وكانوا يجلسون على الطرق فيقولون لمن يمر بها: إن شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم، كما كان تفعل قريش بمكة.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتطلبون لسبيل الله عوجاً، والمعنى: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة لتصدوهم عن سلوكها والدخول فيها.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾: ﴿إِذْ﴾ مفعول به غير ظرف، أي: واذكروا على وجه الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم. قالوا: إن مدين بن إبراهيم

(١) سبأ: ٣٣.

(٢) الأعراف: ١٦.

تفسير سورة الأعراف/ الآيات ٨٨-٨٩ ٢٠٧

الخليل تزوج بنت لوط فولدت له، فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا^(١)، ويجوز: إذ كنتم فقراء مقلّين فجعلكم أغنياء مكثرين.

﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ من أفسد قبلكم كقوم نوح وهود وصالح ولوط، وكانوا قريبي العهد بهم.

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ جماعة ﴿مِّنْكُمْ ءَامِنُوا﴾ وصدقوا ﴿بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وقبلوا قولي، وجماعة لم يصدقوني.

﴿فَأَصْبِرُوا﴾ فترَبَّصوا وانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بين الفريقين بأن ينصر المحقّ على المبطّل، وهذا [وعد للمؤمنين و]^(٢) وعيد للكافرين.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ ﴿٨٩﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الذين رفعوا أنفسهم فوق مقدارها من قوم شعيب: ليكونن أحد الأمرين: إما إخراجكم من بلدتنا، أو عودكم في الكفر، وقد يكون العود بمعنى الصيرورة كما في قول الشاعر:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا فَعْبَانَ مِنْ لَبَنِ شِيْبًا بِبَاءٍ فَعَادًا بَعْدَ أَبْوَالَا^(٣)

(١) تفسير السمرقندي ج ١: ٥٤٦.

(٢) ساقطة من أ، ب، ط.

(٣) أمية بن أبي الصلت حياته وشعره: ٣٥٠.

﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿أُولَؤُا كُنَّا كَرِهِينَ﴾ الواو واو الحال، والهمزة للاستفهام، أي: أتعيدوننا في ملتكم وتردوننا إليها في حال كوننا كارهين للدخول فيها؟ يريد أنّا مع كراهتنا لذلك لما عرفناه من بطلانه لا نرجع، وأنّكم لا تقدرون على ردّنا إلى دينكم على كره منا، فيكون ﴿كَرِهِينَ﴾ على هذا بمعنى: مكرهين.

﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ معناه: إن عدنا في ملتكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ بأن أقام لنا الدلائل على بطلانها وأوضح الحقّ لنا، فقد افترينا على الله كذباً فيما دعوناكم إليه.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ أي: وما ينبغي لنا وما يصح لنا ﴿أَنْ نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ خذلاننا ومنعنا الألفاف بأن يعلم أنّها لا تنفع فينا فيكون فعلها بنا عبثاً، والله عزّ اسمه متعال عن فعل العبث، ويدلّ على هذا قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: هو عالم لذاته، يعلم كل شيء مما كان ويكون، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول وقلوبهم كيف تتقلب.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويوفّقنا لازدياد الإيقان. ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تعليقاً لما لا يكون بما علم أنّه لا يكون على وجه التبعيد، لأنّ مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة. ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [أي: احكم بيننا]^(١) ﴿وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ والفتاحة: الحكومة، أو أظهر أمرنا حتى يفتح ما بيننا وبين قومنا وينكشف، بأن تنزل عليهم عذاباً يبين معه أنّا على الحقّ وأنهم على الباطل.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ الحاكمين.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ
 ٩٠ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ
 كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
 رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ
 ٩٣ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ
 وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ
 حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً
 وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ للذين دونهم يشبطونهم
 عن الإيمان: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ لاستبدالكم الضلالة بالهدى،
 وقيل: تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف، لأنه ينهاكم عنها ويحملكم
 على الإيفاء والتسوية^(١). واللام في ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ﴾ موطئة للقسم، وجواب القسم
 ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ وقد سدّ مسدّ جواب الشرط.

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا﴾ مبتدأ، وخبره ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، وكذلك ﴿كَانُوا
 هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾. وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين كذبوا
 شعيباً هم المخصوصون بالهلاك والاستئصال كأن لم يقيموا في دارهم، لأنّ الذين
 اتبعوا شعيباً أنجاهم الله.

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا﴾ هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه
 لأنهم الراحون. وفي هذا الابتداء والتكرير تسفيه لرأي الملأ وردّ لمقاتلتهم ومبالغة

في ذلك.

﴿فَنَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ شعيب لما رأى إقبال العذاب عليهم.

﴿وَقَالَ يَقَوْمٍ لَقَدْ﴾ أعذرت إليكم في النصيحة وإبلاغ الرسالة والتحذير مما حلّ بكم فلم تصدّقوني.

﴿فَكَيْفَ ءَاسَى﴾ أي: فكيف أحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم العذاب النازل بهم.

و﴿الْبَاسَاءِ﴾: البؤس والفقر، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: الضرّ والمرض.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أي: ليتضرّعوا ويتوبوا ويتذلّلوا.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: رفعنا السيئة يعني: ما كانوا فيه من البلاء والمحنة، ووضعنا الحسنة مكانها يعني: الرخاء والسعة والصحة.

﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ أي: كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم من قولهم: عفا النبات، وعفا الشحم والوبر: إذا كثرت، ومنه قوله ﷺ: ((واعفوا للحي))^(١).

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ يريد أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا: هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء، وقد مَسَّ آباءنا نحو ذلك فلم ينتقلوا عما كانوا عليه، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آبائكم كذلك.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً﴾ فجأة، عبرة لمن بعدهم.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّ العذاب نازل بهم إلا بعد حلوله.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

(١) معاني الأخبار: ٢٧٧، سنن البيهقي الكبرى ج ١: ١٤٩.

﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ
 ﴿٩٧﴾ وَأَوَّامِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ
 يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا
 الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾

اللام في ﴿الْقُرَىٰ﴾ إشارة إلى القرى التي دلّ عليها قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ﴾، فكأنه قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ﴾ تلك ﴿الْقُرَىٰ﴾ الذين كذبوا وأهلكوا ﴿ءَامَنُوا﴾ بدل كفرهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي ﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ﴾ أي: خيرات نامية ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بإنزال المطر وإخراج النبات. والمعنى: لآتيناهم بالخير من كل وجه.

﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِسُوءِ كَسْبِهِمْ﴾

ومعنى فتح البركات: تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المغلقة بفتحها، ومنه قولهم: فتحت على القارئ: إذا تعذرت عليه القراءة فيسرها عليه بالتلقين.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ المكذبون لنبينا^(١).

﴿أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ عذابنا ﴿بَيِّنًا﴾ أي: بائتين أو وقت بيات، ويجوز أن يكون البيات بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم فيكون - أيضاً - حالاً أو ظرفاً.

و﴿ضُحًى﴾ نصب على الظرف، وهو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت. والفاء والواو في ﴿أَفَأَمِنَ﴾ و﴿أَوَّامِنَ﴾ حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار، والمعطوف عليه قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ وما بينهما اعتراض. أي: أبعد ذلك آمن ﴿أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا﴾ وأمِنوا ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا

(١) في ب، ج: لنبينا.

ضَحَى ﴿١٠٠﴾. وقرئ: أو آمن - بسكون الواو - على العطف بد (أو).

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَى﴾. و﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر، ولا استدراجه إياه بالصحة والسلامة وظاهر النعمة، وعن الربيع بن خيثم^(١): (إن ابنته قالت له: مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ قال: يا بنتاه إن أباك يخاف البيات)^(٢).

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فيه تنبيه على ما يجب أن يكون عليه المكلف من الخوف لعقاب الله، فيكون كالمحارب الذي يخاف من أعدائه البيات والغيلة، ليسارع إلى الطاعة واجتناب المعصية، ولا يستشعر الأمن من ذلك، فيكون قد خسر دنياه وآخرته بالوقوع في المعاصي.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ
أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠١﴾
تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ
وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٣﴾

المعنى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثونهم أرضهم هذا الشأن، وهو أننا ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصبنا من قبلهم

(١) أبو يزيد الربيع بن خيثم الثوري الكوفي، الزاهد المشهور، من كبار التابعين، توفي زمن يزيد بن معاوية. ينظر: تذكرة الحفاظ ج ١: ٥٧، معجم رجال الحديث ج ٧: ١١٧.

(٢) شعب الإيمان ج ١: ٥٤٣.

وأهلكناهم كما أهلكنا أولئك. وقد قرئ: أو لم نهد - بالنون - وعلى ذلك فيكون ﴿أَنْ لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ﴾ منصوب الموضع، بمعنى: أو لم نبين لهم هذا الشأن، ولذلك عدّي الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين.

﴿وَنَطِيعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ معطوف على ما دلّ عليه معنى ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾، فكأنه قيل: يغفلون عن الهداية ونطيع على قلوبهم.

﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ مبتدأ وخبر، و﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ حال؛ ويجوز أن يكون ﴿الْقُرَى﴾ صفة لـ ﴿تِلْكَ﴾، و﴿نَقُصُّ﴾ خبراً، أي: تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها لتخبر قومك بها فيعتبروا ويحذروا عن الإصرار على مثل حالهم.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيء الرسل بالبينات ﴿بِمَا كَذَّبُوا﴾ به من قبل مجيئهم، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب إلى أن ماتوا مصرين. ومعنى اللام تأكيد النفي وأن الإيمان كان منافياً لحالهم.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الشديد نطع ﴿عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾. ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ الضمير للناس على الإطلاق، [أي: ما وجدنا لأكثر الناس من عهد]^(١) فإن الأكثر ينقض عهد الله في الإيمان والتقوى. ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا﴾ وإن الشأن والحديث وجدنا ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ فاسقين خارجين عن الطاعة، والآية اعتراض.

ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين، وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله في

ضر: لئن أنجيتنا لنؤمنن، ثم لما نجاها نكثوا. والوجود بمعنى العلم من قولك: (وجدت زيدا ذا الحفاظ).

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾ معناه: فكفروا ﴿بِآيَاتِنَا﴾، أجرى الظلم مجرى الكفر كما قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١)، أو ظلموا الناس بسببها حين صدوهم عنها وآذوا الذين آمنوا بها.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ﴾ جازئ أن يكون ضمّن ﴿حَقِيقٌ﴾ معنى حريص، كما ضمّن هيّجني معنى ذكرني في بيت النابغة:

إِذَا تَغَنَّى الْحَمَامُ الْوُرُقُ هَيَّجَنِي وَلَوْ تَغَرَّيْتُ عَنْهَا أُمَّ عَمَّارٍ^(٢)

ويجوز أن يكون موسى عليه السلام أغرق في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام، فقال: أنا حقيق على قول الحق، أي: واجب على قول الحق أن أكون أنا قائله، ولا يرضى إلا مثلي ناطقاً به. وقرأ نافع: حقيق عليّ أن لا أقول، ومعناه: واجب عليّ.

(١) لقمان: ١٣.

(٢) ديوان النابغة الذبياني: ٥١، وفيه: وإن تغربت...

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: خلّهم حتى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم، وذلك أنّ فرعون والقبط كانوا قد استعبدوا بني إسرائيل واستخدموهم في الأعمال الشاقة، فأنقذهم الله بموسى، وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمئة عام.

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ حِجَّتَ﴾ من عند من أرسلك ﴿بَنِيَّائِهِ فَأَتِ بِهَا﴾ لتصح دعواك ويثبت صدقك.

﴿فَأَلْقَى﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر أمره لا يشك في أنّه ثعبان، وروي: أنّه كان ثعباناً ذكراً أشعر فاغراً فاه بين لحييه كذا ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر، فوثب فرعون من سريره وهرب وأحدث وصاح: يا موسى خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصا^(١).

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ بياضاً نورانياً غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم فيما يروى^(٢).

﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾ أي: للنظارة هناك.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا

(١) تاريخ الطبري ج ١: ٢٠٩.

(٢) عن مجاهد. تفسير الطبري ج ٩: ١١.

يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ
الْقَوَّا فَلَِمَّا الْقَوَّا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا
بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾^(١)، وهنا ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ ويمكن أن يكون قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله هنالك وقولهم هنا، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعله الملوك يبلغ خواصهم ما يرونه من الرأي إلى العامة، ويدلّ عليه أنهم أجابوه في قولهم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾. وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من أمرته فأمرني بكذا: إذا شاورته فأشار عليك برأي.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ﴾ أي: أخره ﴿وَأَخَاهُ﴾ وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما. وقرئ: أرجئه - بالهمزة - وأرجأه وأرجاه لغتان.

﴿قَالُوا إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ﴾ أي: جعلاً على الغلبة. وقرئ: ﴿إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ﴾ على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتنكير للتعظيم، قالت العرب: إنَّ له لإبلاً، يقصدون الكثرة.

وقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ معطوف على محذوف سدّ مسدّه حرف الإيجاب، أي: نعم إنَّ لكم لأجراً وإنَّكم لمن المقربين، يعني لا أقصر بكم على الأجر وحده وإنَّ لكم مع الأجر ما يقلّ عنده الأجر وهو التبجيل والتقريب. وروي أنّه قال لهم: تكونون أوّل من يدخل وآخر من يخرج^(٢).

وتخير السحرة موسى ﷺ مراعاة منهم لأدب حسن معه، كما يفعل أهل

(١) الآية: ٣٤.

(٢) عن الكلبي. معالم التنزيل ج ٢: ٢١.

الصناعات إذا التقوا، وقولهم: ﴿وَلِمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله، وهو تأكيد الضمير المستكن بالمنفصل وتعريف الخبر، وقد سَوَّخ لهم موسى ما رغبوا فيه قلة مبالاة بهم، وثقة بما كان بصدده من المعجز الإلهي والتأييد السماوي.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ بما أروهم من الحيل والشعوذة، فقد روي أنهم ألقوا حبلاً غلاظاً وخشباً طوالاً، فإذا هي أمثال الحيات قد ملأت الأرض وركب بعضها بعضاً^(١).

﴿وَأَسْرَهُبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم استدعوا رهبتهم.

﴿وَجَاءَ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ أي: عظيم في باب السحر، وذلك أنهم جعلوا في حبالهم وخشبهم ما يوهم الحركة وخيل إلى الناس أنها تسعى.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
 ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ
 وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا
 بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ
 بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لَخُجْرُؤٌ
 مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ
 خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ
 ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنْقُمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِتَايَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا
 أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

معناه: فألقاها فصارت حيّة عظيمة.

﴿إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (ما) مصدرية أو موصولة، أي: تلقف إفكهم تسمية للمأفوك بالإفك، أو ما يافكونه، أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزورونه. وروي: أنها تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال ورفعها موسى فعادت عصا كما كانت^(١)، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة أو فرقها أجزاء لطيفة، وكلا الأمرين يعلم كل عاقل أنه لا يدخل تحت مقدور البشر.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ فحصل وثبت.

﴿وَأَنفَلَبُوا صَنَعِينَ﴾ أي: صاروا أذلاء مبهوتين.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ أي: وخرّوا سجداً كأنها ألقاهم ملقٍ لشدة خروورهم، وقيل: إنهم لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْنَتُمْ بِهِ﴾ على الإخبار، أي: فعلتم هذا الفعل، وقرئ: آأمتم - بحرف الاستفهام - ومعناه الإنكار.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ قبل أن آمركم بالإيمان به وأذن لكم فيه.

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ إن صنعكم هذا حيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء، وتواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل، وكان ذلك الكلام من فرعون تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيثار.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد مجمل. وقد فصل الإجمال بقوله: ﴿لَأُفْطِنَنَّ

أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ أي: من كل شق طرفاً، وعن الحسن: (هو أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى)^(٢)، وقيل: إن أول من قطع من خلاف وصلب

(١) تاريخ الطبري ج ١: ٢١١.

(٢) التبيان ج ٤: ٥٤٢.

فرعون^(١).

﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي: لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته، أو
إننا جميعاً ننقلب إلى الله فيحكم بيننا.

﴿وَمَا نَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا﴾ أي: وما تعيب منا إلا الإيـمان ﴿رَبَّائِنَا﴾
الله، وهو أصل كل منقبة وخير، ومثله قول الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ^(٢)

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أفض علينا صبراً واسعاً كثيراً حتى يغمرنا كما يفرغ
الماء إفراغاً.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَلَسْتَحْيَىٰ نِسَاءَهُمْ
وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا
وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

لما أسلم السحرة قال الملأ ذلك تحريضاً لفرعون على موسى.

﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطف على ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم وكان ذلك

(١) عن ابن عباس تفسير الطبري ج ٩: ١٦.

(٢) ديوان النابغة الذبياني: ١١.

مؤدياً إلى تركه وترك أهله، فكأنه تركهم لذلك. وروي عن علي عليه السلام أنه قرأ: ويذكر وإلهتك، أي: عبادتك. وعن ابن عباس: (إنه لما آمن السحرة أسلم من بني إسرائيل ستمائة ألف نفس)^(١). فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك، وخافوا أن يغلبوا على الملك، وقيل: إن فرعون صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه^(٢)، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٣).

﴿سَنُقِيلُ أَسْبَاطَهُمْ﴾ أي: سنعيد عليهم ما كنا نفعله بهم من قتل الأبناء، ليعلموا أننا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر، وأنهم مهجورون تحت أيدينا كما كانوا، وأن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا.

﴿قَالَ مُوسَى﴾ عند ذلك ﴿لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ يسكنهم ويسليهم ويعدهم النصر من الله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ يجوز أن يكون اللام للعهد ويعني: أرض مصر خاصة، ويجوز أن يكون للجنس فيتناول أرض مصر أيضاً. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتمسكين بالتقوى، وأن المشيئة متناولة لهم.

﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى، وإعادته عليهم من بعد نبوته وتأيده بالمعجزات.

وقوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ﴾ تصريح بما أشار إليه من البشارة ورمز به قبل، وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر.

(١) تفسير الطبري ج ٩: ١٩.

(٢) عن السدي. معالم التنزيل ج ٢: ٢٢.

(٣) النازعات: ٢٤.

﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقيحه

ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ
تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا يَمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۖ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ
اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

أي: عاقبنا قوم ﴿فِرْعَوْنَ﴾ الذين يؤول أمرهم إليه.

﴿بِالسِّنِينَ﴾ بسني القحط. والسنة من الأسماء الغالبة كالذابة والنجم،
وقالوا: أسنت القوم: أقحطوا. وعن ابن عباس: (إِنَّ السنين كانت لباديتهم وأهل
مواشيهم، وكان نقص الثمرات في أمصارهم) (١).

﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ فيتبينوا أَنَّ ذلك لإصرارهم على الكفر.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ من الخصب والرخاء.

﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها، واللام مثلها في
قولك: الجلّ للفرس.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من جذب وضيقة.

﴿يَطَّيِّرُوا﴾ أي: يتطيروا ﴿يَمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ ويتشاءموا بهم ويقولوا: لولا
مكائهم لما أصابتنا، كما قال الكفار لرسول الله ﷺ: ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ (٢).

﴿أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: سبب خيرهم وشرهم عند الله وهو

(١) الكشف ج ١: ١٤٤.

(٢) النساء: ٧٨.

حكيمته ومشيتته، والله هو الذي يشاء ما يصيبهم وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه، كقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(١).

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
 (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ
 آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ
 عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِئِنْ
 كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
 (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ
 يَكْذِبُونَ (١٣٥) فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)

﴿مَهْمَا﴾ هي (ما) المتضمنة معنى الجزاء ضُمَّت إليها (ما) المزيدة المؤكدة للجزاء في نحو: ﴿أَيُّنَا تَكُونُوا﴾^(٢)، و﴿وَأِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾^(٣) إلا أنَّ الألف قلبت هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين. ومحلّ ﴿مَهْمَا﴾ الرفع بمعنى: أيُّ شيء تأتينا به، أو النصب بمعنى: أيُّ شيء تحضرنا تأتينا به، و﴿مِنْ آيَةٍ﴾ تبين لـ ﴿مَهْمَا﴾ وذكر الضمير في ﴿بِهِ﴾ على اللفظ وفي ﴿بِهَا﴾ على المعنى، وقد رجع كلاهما إلى ﴿مَهْمَا﴾ وهو في معنى الآية، ونحوه قول زهير:

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ^(٤)

(١) النساء: ٧٨.

(٢) النساء: ٧٨.

(٣) يونس: ٤٦.

(٤) شعر زهير بن أبي سلمى: ٢٨، وفيه: ومهما تكن

والمعنى: إنهم قالوا لموسى: أي شيء ﴿تَأْتِنَا بِهِ مِنْ﴾ الآيات ﴿لِتَسْحَرَنَا﴾ لتموّه علينا ﴿بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ﴾ بمصدقين، أرادوا أنهم مصرّون على تكذيبه وإن أتى بجميع الآيات.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ وهو ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل، قيل: إنه أرسل عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، إذ امتلأت بيوتهم ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم فمن جلس غرق، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة^(١)، وقيل: الطوفان: الجدري^(٢)، وهم أوّل من عذبوا بذلك فبقي في الأرض، وقيل: هو الموت الذريع^(٣).

فقالوا لموسى ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فرفع، فلم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامة زرعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء، ففزعوا إلى موسى، فدعا فكشف عنهم، فما آمنوا.

فسلّط الله عليهم القمل وهو الحمنان كبار القردان، وقيل: الدبا وهو أولاد الجراد^(٤)، وقيل: البراغيث^(٥)، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصّه، ففزعوا إلى موسى، فرفع عنهم، فقالوا: قد تحقّقنا الآن أنّك ساحر.

(١) معالم التنزيل ج ٢: ٢٣.

(٢) عن أبي قلابة معالم التنزيل ج ٢: ٢٣.

(٣) عن مجاهد. تفسير الطبري ج ٩: ٢١.

(٤) عن ابن عباس وغيره. تفسير الطبري ج ٩: ٢٢.

(٥) عن ابن زيد. تفسير الطبري ج ٩: ٢٢.

فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلاأت منها أبنيتهم^(١) وأطعمتهم، وكان الرجل منهم إذا أراد أن يتكلّم وثب الضفدع إلى فيه، فضجّوا وفزعوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة ونتوب ولا نعود، فدعا فكشف عنهم، ولم يؤمنوا.

فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دمًا، وإذا شربه الإسرائيلي كان ماء، وكان القبطي يقول للإسرائيلي: خذ الماء في فيك وصبّه في فيّ، فكان إذا صبّه في فم القبطي تحوّل دمًا، وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك فكان يمص الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً أجاجاً، وروي: أنّ موسى ﷺ مكث فيهم بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات^(٢).

﴿إِذْ لَبِيتُ مُفَصَّلَتٍ﴾ مبيّنات ظاهرات، أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم وينظر أيوفون بما وعدوا من أنفسهم أم ينكثون، إلزاماً للحجّة عليهم.

﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ (ما) مصدرية أي: بعهدك وهو النبوة، والباء: إما أن يتعلّق بقوله: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ على وجهين: أحدهما: أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحقّ ما عندك من عهد الله، أو ادع الله متوسلاً إليه بعهدك عندك؛ وإما أن يكون قسماً أي: أقسمنا بعهد الله عندك ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾.

وقوله: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُم بَلِغُوهُ﴾ لا محالة فيعذبون فيه.

﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب (لما)، يعني: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ فاجأوا

(١) في ب، ج: أنيتهم.

(٢) الكشف ج ٢: ١٤٨.

النكت وبادروه ولم يؤخروه.

﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأردنا الانتقام منهم.

﴿فَأَعْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: البحر الذي لا يدرك قعره، وقيل: هو لجة البحر.

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم ﴿بِعَايِنِنَا﴾ وغفلتهم

عنها.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ
وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي
إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ
وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا
عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا
كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالِ إِنَّا أَنَا قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ
وَبَطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾

﴿الْقَوْمَ﴾ هم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه.

و﴿الْأَرْضِ﴾ أرض مصر والشام، ملكها بنو إسرائيل بعد العمالة والفراعنة،

فتصرّفوا في نواحيها الشرقية والغربية كيف شاءوا.

﴿الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ بأنواع الخصب من الزروع والثمار والعيون والأنهار.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ وهو قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ

اسْتَضَعُّوْا...﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(١)، و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ تأنيث (الأحسن)

صفة للكلمة ومعنى تمت على بني إسرائيل: مضت عليهم، من قولك: تم على الأمر: إذا مضى عليه واستمر.

﴿يَمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم.

﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ ما كانوا يعملونه من العمارات وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات. وقرئ: يعرشون - بضم الراء وكسرهما .. وهذا آخر ما اقتص الله سبحانه من نبأ فرعون والقبض وتكذيبهم بآيات الله.

ثم اقتص سبحانه نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من فرعون ومعاينتهم الآيات العظام.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ يعني: النيل نهر مصر.

﴿فَأَنزَلْنَا﴾ فمروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَكْفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ لَهُمْ﴾ قرئ بضم الكاف وكسرهما، يواظبون على عبادتها، وقيل: كانت تماثيل بقر^(١)، وذلك أول شأن العجل.

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ أَجْعَلْ لَّنَا﴾ صنماً نعكف عليه ﴿إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءِلَٰهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها. و(ما) كافة للكاف ولذلك وقعت الجملة بعدها.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فوصفهم بالجهل المطلق، لتعجبه من قولهم عقيب ما رأوا من الآيات الباهرة.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة التماثيل.

﴿مُتَّبِعٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مدمر مكسر ما هم فيه من عبادة الأصنام، أي: يتبر

(١) عن ابن جريج. تفسير الطبري ج ٩: ٣١.

الله دينهم ويهدمه على يدي، ويحطم أصنامهم هذه ويجعلها رضاءاً.

﴿وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا

وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به.

﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغَيْكُمْ إِلَهًا﴾ أغير الله المستحق للعبادة أطلب لكم

معبوداً، وهو فعل بكم ما فعل من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحداً غيركم لتخصّوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره؟! ومعنى الهمزة الإنكار والتعجب من طلبهم عبادة غير الله مع كونهم مغمورين في نعمة الله.

وَإِذْ أَبْحَنَّاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ
فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ
اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

وقرئ: أنجاكم.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: ييغونكم شدة العذاب، من سام

السلعة: إذا طلبها، وهي جملة في موضع الحال من المخاطبين، أو من آل فرعون، أو جملة مستأنفة لا محل لها.

﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى الإنجاء أو العذاب، والبلاء: النعمة أو المحنة.

وقرئ: يَقْتُلُونَ - بالتخفيف ..

كان موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب

من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه

الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين وهو شهر ذي القعدة، ثم أنزل عليه التوراة في العشر وكلمه فيها، وعن الحسن: (كان الموعد أربعين ليلة، فأجمل في سورة البقرة^(١) وفصل هاهنا)^(٢).

﴿مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ ما وقت له من الوقت وضربه له، و﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نصب على الحال، أي: تم الميقات بالغاً هذا العدد. و﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ وقت خروجه إلى الميقات. و﴿هَارُونَ﴾ جر عطف بيان لـ﴿لِأَخِيهِ﴾. ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ وكن مصلحاً، أو أصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل في حال غيبي، ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تطعه ولا تتبعه. وفي هذا دلالة على أن منزلة الإمامة غير داخلية في النبوة، إذ لو كانت داخلية فيها لما احتاج هارون إلى استخلاف موسى إياه في القيام بأمر أمته مع كونه نبياً.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ
قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ
تَرِنِي فَلَمَّا بَجَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا
فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ أي: لوقتنا الذي وقتنا له وحددناه، ومعنى اللام الاختصاص، فكأنه قال: واختص مجيئه لميقاتنا، كما تقول: أتيتك لخمس خلون من الشهر.

(١) الآية: ٥١.

(٢) التبيان ج ٤: ٥٦٥.

﴿وَكَلَّمَہُ رَبُّہٗ﴾ من غير واسطة كما يكلم الملك، وتكليمه أن ينشئ الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح، لأنّ الكلام عرض لا بد له من محلّ يقوم به، وروي: أنّه ﷺ كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة^(١).

﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ﴾ المفعول الثاني محذوف، يعني: أرني نفسك أنظر إليك، أي: اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك، وإنّما طلب الرؤية لقومه حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللّٰهَ جَهْرَةً﴾^(٢)، ولذلك دعاهم سفهاء وضلالاً، وقال - لما أخذتهم الرجفة -: ﴿اَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾^(٣)، ولم يسأل ذلك إلا بعد أن أنكر عليهم ونبّهم على الحقّ فلجّوا وتمادوا في لجاجهم، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة الرؤية عليه، وهو قوله: ﴿لَنْ تَرٰنِيْ﴾ ليتيقنوا وتزول شبهتهم.

ومعنى ﴿لَنْ﴾: تأكيد النفي الذي تعطيه (لا)، وذلك أنّ (لا) تنفي المستقبل، تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكّدت النفي قلت: لن أفعل غداً، والمعنى: إنّ فعله ينافي حالي، كقوله سبحانه: ﴿لَنْ يَخْلُقُوْا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوْا لَهٗ﴾^(٤). فقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْاَبْصَارُ﴾^(٥) نفي للرؤية فيما يستقبل، وقوله: ﴿لَنْ تَرٰنِيْ﴾ تأكيد وبيان أنّ الرؤية منافية لصفاته.

﴿وَلٰكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ﴾ معناه: إنّ النظر إلى محال فلا تطلبه، ولكن عليك

(١) عيون أخبار الرضا ج ١: ١٥٩ بالمعنى.

(٢) البقرة: ٥٥.

(٣) الأعراف: ١٥٥.

(٤) الحج: ٧٣.

(٥) الأنعام: ١٠٣.

بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به، وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية، لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه جلّ جلاله حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾^(١).

﴿إِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانُهُ﴾ كما كان مستقراً ثابتاً ﴿فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكاً ويسويه بالأرض.

﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته. ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: مذكوكاً، مصدر بمعنى مفعول، والدك والدق مثلان، وقرئ: دكاء، والدكاء: الربوة الناشزة من الأرض لا تبلغ أن تكون جبلاً، أو يريد أرضاً دكاء: مستوية، من قولهم: ناقة دكاء: مستوية السنام.

﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ من هول ما رأى، وصعق من باب فعلته ففعل، تقول: صعقته فصعق وأصله من الصاعقة، ومعناه: خرّ مغشياً عليه غشية كالموت. ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من صعقته ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ أنزهك مما لا يجوز عليك. ﴿بُتُّ إِلَيْكَ﴾ من طلب الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنك لا ترى.

وقيل: في الآية وجه آخر: وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ عرّفني نفسك تعريفاً واضحاً جلياً بإظهار بعض آيات الآخرة التي تضطر الخلق إلى معرفتك ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ أعرفك معرفة ضرورية كأنني أنظر إليك، كما جاء في

الحديث: ((سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر))^(١) بمعنى: ستعرفونه معرفة جليلة هي في الجلاء مثل إبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى بدرًا.
قال: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة، ولن تحمل قوتك تلك الآية.

﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ فَإِنِّي أورد عليه آية من تلك الآيات ﴿فَإِنْ﴾ ثبت لتجليها و﴿أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ﴾ تثبت لها وتطيقها.
﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ فلما ظهرت للجبل آية من آيات ربه ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ لعظم ما رأى.
﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مما اقترحت ﴿وَأَنَا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك.

قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي﴾ اتخذتك صفوة وفضلتك ﴿عَلَى﴾ أهل زمانك من ﴿النَّاسِ بِرِسَالَتِي﴾ وهي أسفار التوراة، وقرئ: برسالتني - على التوحيد..
﴿وَبِكَلِمِي﴾ وبتكليمي إياك.

﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أي: أعطيتك من شرف النبوة والحكمة.
﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم، وقيل:

(١) سنن الترمذي ج ٤: ٩٣، ينظر: المجازات النبوية: ٤٧.

خرّ موسى صعقاً يوم عرفة، وأُعطي التوراة يوم النحر^(١).

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾ يريد ألواح التوراة، واختلف في عددها وفي جوهرها: فقليل: كانت سبعة ألواح^(٢)، وقيل: عشرة^(٣)، وقيل: لوحين^(٤). وأنها كانت من زمرد^(٥)، وقيل: من زبرجدة خضراء^(٦) أو ياقوتة حمراء^(٧)، وقيل: كانت من خشب نزل من السماء^(٨).

﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في محلّ النصب مفعول ﴿وَكَتَبْنَا﴾، و﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً﴾ بدل منه، والمعنى: كتبنا له فيها كل شيء احتاجت إليه بنو إسرائيل في دينهم من المواعظ، وتفصيل الأحكام والحلال والحرام، وذكر الجنة والنار، وغير ذلك من العبر والأخبار.

﴿فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجهد واجتهاد وإقبال وعزيمة، فعل أولي العزم من الرسل، وهو عطف على ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ﴾. والتقدير: فقلنا له: خذها، [ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فَخَذَ مَا آتَيْنَاكَ﴾، والضمير في ﴿فَخَذَهَا﴾]^(٩) للألواح، أو لكل شيء لأنه في معنى الأشياء، أو للرسالات.

(١) عن الكلبي. العرائس: ١٢١.

(٢) عن ابن عباس. الدر المنثور ج ٣: ١٢١.

(٣) عن وهب بن منبه. معالم التنزيل ج ٢: ٢٨.

(٤) معاني القرآن وإعراجه ج ٢: ٣٧٥.

(٥) عن مجاهد الدر المنثور ج ٣: ١٢١.

(٦) عن الكلبي. معالم التنزيل ج ٢: ٢٨.

(٧) عن سعيد بن جبير. معالم التنزيل ج ٢: ٢٨.

(٨) عن الحسن. معالم التنزيل ج ٢: ٢٨.

(٩) ساقطة من ج.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن كالاقتصاص والعفو، والانتصار والصبر، فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب، كقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾^(١)، وقيل: يأخذوا بما هو واجب أو نذب، لأنه أحسن من المباح.

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: منازل القرون الماضية المخالفة لأمر الله لتعتبروا بها، وقيل: دار الفاسقين نار جهنم^(٢)، فلتكن منكم على ذكر لتحذروا أن تكونوا منهم.

سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

﴿سَاصِرُفٌ﴾ المتكبرين ﴿عَنْ ءَايَتِي﴾ بالطبع على قلوبهم وخذلانهم، فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وفي الحديث: ((إذا عظمت أمتي الدنيا نزعتم عنها هبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي))^(٣). وقيل: معناه: سَاصِرُفُهُمْ عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون في إبطال آية موسى فأبى الله إلا علو أمره.

(١) الزمر: ٥٥.

(٢) عن الحسن وغيره. تفسير الطبري ج ٩: ٤١.

(٣) الدر المنثور ج ٢: ٣٠٢.

﴿بَغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون حالاً أي: يتكبرون غير محققين، لأن التكبر بالحق لله وحده.

والآخر: أن يكون صلة للتكبر أي: يتكبرون بما ليس بحق.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ رفع أو نصب، أي: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم، أو صرفهم الله ذلك الصرف بسببه.

﴿وَلَفَكَءِ الْآخِرَةِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: ولقائهم الآخرة وما وعد الله فيها.

وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ
أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا
ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
قَالُوا لَنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد خروجه إلى الطور.

﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي استعاروها من قوم فرعون وبقيت في أيديهم بعد هلاك فرعون وقومه، فاتخذ السامري منها ﴿عِجَلًا جَسَدًا﴾ لا روح فيه. وهو بدل من عِجَلًا.

﴿لَهُ خُورٌ﴾ أي: صوت، والخلي جمع حلي، وقرئ: حليهم - بكسر الحاء - على الإتياع، ومن حليهم على التوحيد، وهو اسم ما يتحسن به من الذهب والفضة،

وقيل: كان جسداً ذا لحم ودم كسائر الأجساد^(١)، وعن الحسن: (إنَّ السامري قبض قبضة من تراب أثر حافر فرس جبرئيل يوم قطع البحر، فقذفه في فيّ العجل فكان عجلاً له خوار)^(٢).

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ حين اتخذوه إلهاً ﴿أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى كَلَامٍ وَلَا عَلَى هِدَايَةِ سَبِيلٍ حَتَّى لَا يَتَّخِذُوهُ مَعْبُوداً، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿أَتَّخِذُوهُ﴾ أي: أقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿وَكَاْنُوا ظَالِمِينَ﴾ في كل شيء، فلم تكن عبادة العجل أمراً بدعاً منهم.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ولما اشتد ندمهم على عبادة العجل، لأنَّ من شأن من اشتدت حسرته أن يعرض على يديه غماً فتصير يده مستقوطة فيها، لأنَّ فاه قد وقع فيها.

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ وتبينوا ضلالهم بعبادة العجل حين رجع إليهم موسى ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾. وقرئ: لئن لم ترحمنا - بالتاء - ربنا - بالنصب - على النداء - وتغفر لنا - بالتاء - أيضاً. وعن الحسن: (كلهم عبدوا العجل إلا هارون بدلالة قول موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾^(٣)، وقال غيره: لم يعبد الكَل^(٤)).

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ يَلْسَمَ خَلْقَتُونِي مِنْ بَعْدِي
أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ
ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ

(١) عن قتادة وغيره. معالم التنزيل ج ٢: ٢٩.

(٢) معالم التنزيل ج ٢: ٢٨.

(٣) التبيان ج ٤: ٥٨٠.

(٤) عن الجبائي. التبيان ج ٤: ٥٨٠.

الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي
وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

الأسف: الشديد الغضب، وقيل: الحزين^(١).

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُونِي﴾ أي: قمتم مقامي وكنتم خلفائي ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، وفاعل بئس مضمير يفسره ﴿مَا خَلَفْتُونِي﴾، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم. ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ تقول: عجلت عن الأمر: إذا تركته غير تام، وأعجلني عنه غيري، ويضمّن معنى سبق، فيقال: عجلت الأمر، فالمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لعهدده، فبنيتم الأمر على أنّ الميعاد قد بلغ آخره، وحدثتم أنفسكم بموتي ففعلتم ما فعلتم، وروي: أنّ السامري قال لهم: إنّ موسى لن يرجع وأنّه قد مات.

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي: طرحها لما لحقه من الضجر غضباً لله وحمية لدينه. ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي: بشعر رأسه ﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ﴾ لشدة ما ورد عليه من الأمر.

﴿قَالَ﴾ هارون ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ قرئ بالفتح تشبيهاً بخمسة عشر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة. وعن الحسن: (والله لقد كان أخاه لأبيه وأمه، وإنّا نسبه إلى الأم لأنّ ذكر الأم أبلغ وأنسب في الاستعطاف)^(٢).

﴿إِنَّ الْقَوْمَ﴾ الذين تركتني بين أظهرهم ﴿أَسْتَضَعُّونِي﴾ قهروني واتخذوني

(١) عن ابن عباس وغيره. تفسير الطبري ج ٩: ٤٤.

(٢) التبيان ج ٤: ٥٨٢.

ضعيفاً، ولم آل جهداً في كفّهم بالإنذار والوعظ.

﴿وَكَاذِبُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي: همّوا بقتلي لشدة إنكاري عليهم.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ فلا تفعل بي ما هو أمنيته من الإساءة بي.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قريناً لهم في إظهار المودة عليّ.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾ بيّن بهذا الدعاء أنّه لم يجر رأسه إليه لعصيان

وجد منه، وإنّما فعله كما يفعل الإنسان بنفسه عند شدة الغضب على غيره.

﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ أي: نعمتك وجنتك.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ
ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْخَتِهَا
هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ الغضب: ما أمروا به من قتل أنفسهم، والذلة:

خروجهم من ديارهم، لأنّ الغربة ذلة، وقيل: هي الجزية المضروبة عليهم^(١).

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري:

﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾^(٢).

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ رجعوا ﴿مِن بَعْدِهَا﴾ إلى الله وأخلصوا الإيمان.

(١) عن ابن عباس. معالم التنزيل ج ٢: ٢٩.

(٢) طه: ٨٨.

﴿لَإِنَّ رَبَّكَ مِنْ﴾ بعد تلك العظام ﴿لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ هذا مثل، كأنَّ الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: ألق الألواح وجرِّ برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك، والمعنى: ولما طفى غضبه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاَحَ﴾ التي ألقاها.

﴿وَفِي نُسخَتِهَا﴾ وفيما نسخ فيها وكتب، والنسخة فعلة بمعنى مفعول كالخطبة.

﴿هَذَى﴾ دلالة وبيان لما يحتاج إليها من أمور الدين.

﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة ومنفعة ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول، تقول: لك ضربت، ونحوه: ﴿لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾^(١).

وَإِخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

تقديره: ﴿وَإِخَارَ مُوسَى﴾ من قومه فحذف الجار ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربِّه، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى ودخل فيه ودخلوا وسجدوا فسمعوا كلام الله، ثم انكشف الغمام فطلبوا الرؤية فأنكر عليهم، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(٢) فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فأجيب بـ ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، ورجف بهم الجبل فصعقوا.

(١) يوسف: ٤٣.

(٢) البقرة: ٥٥.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي﴾

وهذا تمنّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية

﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ يعني: نفسه وإياهم ﴿بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾ لأنّه إنّما طلب الرؤية

زجراً للسفهاء وهم طلبوه سفهاً وجهلاً.

﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: محنتك وابتلاؤك حين كلمتني وسمعوا كلامك،

فاستدلّوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسداً حتى افتنوا وضلوا.

﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ بالمحنة الجاهلين أي: غير الثابتين في معرفتك ﴿وَتَهْدِي﴾

العالين بك. وجعل ذلك إضلالاً وهدى من الله، لأنّ محنته لما كانت سبباً لأن

ضلوا واهتدوا، فكأنّه أضلهم بها وهداهم.

﴿أَنْتَ وَلِيْنَا﴾ مولانا والقائم بأمورنا.

وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا
إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ
شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ
وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي
كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

أي: أثبت ﴿لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: عافية وحياة طيبة ﴿وَفِي

الْآخِرَةِ﴾ الجنة.

﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا إليك، من هاد إليه: إذا رجع وتاب، والهود جمع هائد وهو التائب.

﴿قَالَ عَذَابِي﴾ من صفته أني ﴿أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ ممن عصاني واستحقه بعصيان.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمتي.

﴿فَسَأَلْتُهَا﴾ هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يا بني إسرائيل.

﴿لِلَّذِينَ﴾ يكونون في آخر الزمان من أمة محمد ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ﴾ بجميع آياتنا وكتبنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لا يكفرون بشيء منها.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن.

﴿النَّبِيِّ﴾ المؤيد بالمعجزات.

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ أي: يجدون نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل

﴿مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ﴾ ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو

ما طاب في الشريعة.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ ما يستخبث نحو الميتة والدم ولحم الخنزير، أو

ما خبث في الحكم من المكاسب الخبيثة.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ والإصر: الثقل الذي يأصر صاحبه أي: يجبسه

من الحراك لثقله، وهو مثل لثقل تكليفهم نحو قتل الأنفس في التوراة، وكذلك

﴿الْأَغْلَالِ﴾ مثل لما كان في شرائعهم من التكاليف الشاقة، نحو قرض موضع

النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم السبت.

﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو، وأصل العزز: المنع، ومنه التعزيز للضرب دون الحد، لأنه يمنع من معاودة القبيح.
و﴿التَّوْرَ﴾ القرآن.

﴿أَنْزَلَ مَعَهُ﴾ أي: مع نبوته. أو تعلق ﴿مَعَهُ﴾ بـ ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي: واتبعوا القرآن الذي أنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته، أو واتبعوا القرآن كما اتبعه النبي تصاحبونه في اتباعه.

قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ
وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا
أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ ضَرِبَ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَنَبَجَسْتَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ
كُلُّ أَنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ
الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال من ﴿إِلَيْكُمْ﴾.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في موضع الجر على الوصف لله، أو
النصب على المدح بإضمار أعني، و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدل من الصلة التي هي ﴿لَهُ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وكذلك ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، وفي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيان

للجملة قبلها، لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة، وفي ﴿يُحْيِ وَيُمِيتُ﴾ بيان لاختصاصه بالإلهية، لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره.

﴿وَكَلِمَتِهِ﴾ يريد بها ما أنزل عليه وعلى من تقدّمه من الرسل.

﴿عَلَّكُم تَهْتَدُونَ﴾ إرادة أن تهتدوا.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾ هم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل.

﴿يَهْدُونَ﴾ الناس بكلمة ﴿الْحَقِّ﴾ ويدلّونهم على الاستقامة ويرشدونهم،

وبالحقّ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بينهم في الحكم لا يجورون. أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي ﷺ وآمن به من أعقابهم، وقيل: إنهم قوم من بني إسرائيل فتح الله لهم نفقاً في الأرض حتى خرجوا من وراء الصين، وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا^(١).

﴿وَقَطَعْنَهُمْ﴾ وصيّرناهم قطعاً أي: فرقاً، وميّزنا بعضهم من بعض.

والأسباط: أولاد الولد جمع سبط، والأسباط في ولد يعقوب بن إسحاق

بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل، وكانوا اثنا عشر سبطاً. وقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من ﴿اثنى عشر﴾ والمميز محذوف، والتقدير: اثنا عشرة فرقة.

و﴿أُمَمًا﴾ نصب على الحال، يعني: إنّ كل سبط من الأسباط كانت أمة

عظيمة وجماعة كثيرة.

﴿فَأَنْبَجَسَتْ﴾ فانفجرت وهو الانفتاح بسعة وكثرة، قال العجاج:

وَكَيْفَ غَزَبَى دَالِجٍ تَبَجَّسَا^(٢)

(١) عن ابن جريج. تفسير الطبري ج ٩: ٦٠.

(٢) ديوان العجاج ج ١: ١٨٥.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أي: كل أمة من تلك الأمم ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾، والأناس

جمع غير تكسير نحو: رخال^(١) وتؤام وأخوات لها.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ
خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْرًا
مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ
إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ
أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا
مَعَذرةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴿١٦٤﴾

﴿الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس. وقرئ: تغفر لكم خطيئاتكم وخطيئتكم أيضاً،

وقرئ: نغفر لكم - بالنون - خطيئاتكم وخطاياكم.

وسلهم واسأل اليهود، وقرئ: ﴿وَسَأَلَهُمْ﴾ وهو سؤال تقرير وتقريع

بقديم كفرهم وتجاوزهم لحدود الله.

﴿حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قريبة منه.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ إذ يتجاوزون حدَّ الله فيه، وهو اصطيادهم في

يوم السبت وقد نهوا عنه. والسبت مصدر سبتت اليهود: إذا عظمت سبتها بترك

الصيد والاشتغال بالتعب، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه: يوم تعظيمهم

(١) رخال جمع رخل وهي الأثنى من أولاد الضأن. (الصحاح: مادة رخل)

أمر السب، و﴿إِذْ يَعْدُوكَ﴾ محله جر بدل من ﴿الْقَرْيَةَ﴾ والمراد بالقرية أهلها. والتقدير: واسألمهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السب وهو بدل الاشتغال، ويجوز أن يكون منصوب المحل بـ﴿كَانَتْ﴾ أو بـ﴿حَاضِرَةً﴾، و﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ منصوب بـ﴿يَعْدُوكَ﴾، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل.

﴿شَرَعًا﴾ ظاهرة على وجه الماء، وعن الحسن: (تشرع الحيتان على أبوابهم كأنها الكباش البيض)^(١)، يقال: شرع علينا فلان: إذا دنا منا وأشرف علينا.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البلاء نبلوهم بسبب فسقهم.

﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ معطوف على ﴿إِذْ يَعْدُوكَ﴾ وإعرابه إعرابه.

﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: جماعة من أهل القرية من صلحائهم يؤسوا من قبولهم وعظهم لآخرين كانوا ينهونهم ويعظونهم.

﴿لَمْ يَعْظُوا قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مخترمهم في الدنيا بسبب معصيتهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة.

قال الواعظون: ﴿مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: موعظتنا معذرة إلى الله، وتأدية لفرضه في النهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوزُونَ﴾ ولطمعنا أن يتقوا ويرجعوا. وقرئ: معذرة - بالنصب - أي: وعظناهم معذرة، أو اعتذرنا معذرة.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْنَحْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا

الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا

عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ يعني: أهل القرية، أي تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي

لما ينساه ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد.

ولم يذكر الفرقة الثالثة التي قالت: ﴿لَمْ تَعْظُون﴾ أهي من الناجية أم من الهالكة. واختلف في ذلك: فقليل: هلكت الفرقتان ونجت الفرقة الناهية^(١)، وروي ذلك عن الصادق عليه السلام^(٢)، وقيل: نجت الفرقتان وهلكت الواحدة وهي الآخذة للحيثان^(٣)، لأن الناهي إذا علم أن النهي لا يؤثر في المنهي سقط عنه النهي. وقرئ: بعذاب بيس على تخفيف العين من بئس ونقل حركتها إلى الفاء، وقلب الهمزة ياء كذيب في ذئب، وقرئ - أيضاً - بالهمزة، وقرئ: بيئس، على وزن فيعل فيكون وصفاً كضيغم.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: تكبروا عن ترك ما نهوا عنه.

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ عبارة عن مسخهم قردة.

﴿خَسِيسِينَ﴾ مطرودين مبعدين، وقيل: إنهم بقوا كذلك ثلاثة أيام ينظر إليهم الناس ثم هلكوا ولم يتناسلوا^(٤).

وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُكُ لَيَبَعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ
دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

(١) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ٩: ٦٧.

(٢) الكافي ج ٨: ١٥٨.

(٣) عن السدي وغيره. تفسير الطبري ج ٩: ٦٤.

(٤) عن ابن عباس. الكشف والبيان ج ٤: ٢٩٨.

هو تفعل من الإيدان وهو الإعلام. ومعناه: واذكر ﴿إِذْ﴾ عزم ﴿رُبُّكَ﴾ لأن العازم على الأمر يحدث به نفسه ويؤذنها بفعله، وأجري مجرى فعل القسم كـ ﴿عَلِمَ اللَّهُ﴾^(١) وـ ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾^(٢)، ولذلك أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾، فكأنه قال: ﴿وَإِذْ﴾ كتب ﴿رُبُّكَ﴾ على نفسه وأوجب ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فكانوا يؤدون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث الله محمداً ﷺ [ثم ضربها عليهم]^(٣) فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر.

ومعنى ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾: ليسلطن عليهم كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾^(٤).
﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي: فرقناهم في البلاد فرقاً وجماعات شتى، فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم.

﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ وهم الذين آمنوا بالله ورسله.
﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: ومنهم ناس دون ذلك الوصف أي: منحطون عنه، فقوله: ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ في محلّ الرفع، لأنه صفة لموصوف محذوف، ونحوه قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾^(٥) أي: وما منا أحد إلا له مقام.
﴿وَيَكُونُهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالنعم والنقم والمنح والمحن.

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) آل عمران: ١٨.

(٣) ساقطة من ج.

(٤) الإسراء: ٥.

(٥) الصافات: ١٦٤.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينتهون فينبون^(١).

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى
وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ
مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ
الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّالَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المذكورين ﴿خَلْفٌ﴾ وهم الذين كانوا في
زمن رسول الله ﷺ. قال الفراء^(٢): يقال: خَلَفَ صدق، وخَلَفَ سوء - بالسكون -^(٣)،
قال لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ^(٤)

﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ بقيت التوراة في أيديهم بعد سلفهم يقرؤونها ويدرسونها
ولا يعملون بها.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: متاع هذا الشيء الأدنى، يريد الدنيا وما
يتمتع به منها. وفي قوله: ﴿هَذَا الْأَدْنَى﴾ تحقير وتخسيس، وهو: إما من الدنو
بمعنى القرب، وإما من الدناءة وسقوط الحال. والمراد: ما كانوا يأخذونه من
الرشا في الأحكام وعلى تحريف الكلم للتسهيل على العامة.

(١) في أ: يتنبهون فينتبهون.

(٢) أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الديلمي، إمام العربية، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي،
مات سنة ٢٠٧ هـ عن سبع وستين سنة. ينظر: بغية الوعاة ج ٢: ٣٣٣.

(٣) معاني القرآن للفراء ج ١: ٣٩٩.

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ٣٦.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُعْفِرُ لَنَا﴾ أي: لا يؤاخذنا الله بها أخذنا.

﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ الواو للحال، أي: يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين الميثاق في التوراة أن لا يكذبوا على الله ولا يضيفوا إليه إلا ما أنزله، كأنه قيل: ألم يقل لهم: أن لا تقولوا على الله إلا الحق.

﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ وقرأوا ما فيه فهم ذاكرون لذلك.

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الحقيقير ﴿لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ﴾ محارم الله.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قرئ بالياء والتاء.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ مرفوع بالابتداء، وخبره: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾، والمعنى: لا نضيع أجرهم، وضع الظاهر موضع المضمرة، لأن المصلحين في معنى ﴿الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾. ويجوز أن يكون مجروراً عطفاً على ﴿الَّذِينَ يَنْتَقُونَ﴾، ويكون قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ اعتراضاً.

وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

﴿نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ قلعناه ورفعناه كقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾^(١).

والظلة: كل ما أظلك من سقيفة.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وعلموا أنه ساقط عليهم، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم، وكان فرسخاً في

فرسخ، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خرّوا سجداً على أحد شقي وجوههم ينظرون إلى الجبل فرقاً من سقوطه.

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ على إرادة القول، أي: وقلنا: خذوا، أو قائلين:

خذوا ما آتيناكم من الكتاب بقوة أي: بجد وعزم على احتمال تكاليفه.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي ولا تنسوه.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ
إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ
قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾
وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

وقرى: ذرياتهم. ومن أفرد فللاستغناء عن جمعه لوقوعه على الجمع، ألا

ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾. ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من ﴿بَنِي
آدَمَ﴾ بدل البعض من الكل.

ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم، وقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ وقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ من باب التمثيل. والمعنى في
ذلك إنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته، وشهدت بها عقولهم التي ركبها فيهم وجعلها
مميزة بين الضلالة والهداية، فكانه أشهدهم ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ وقرّهم وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ﴾؟ وكأنهم ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أنت ربنا ﴿شَهِدْنَا﴾ على أنفسنا وأقرنا بربوبيتك.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ مفعول له، أي: نصبنا الأدلة التي تشهد العقول على صحتها

كراهة أن تقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ لم ننبه عليه، ﴿أَوْ﴾
كراهة أن ﴿نَقُولُوا﴾: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فافتدينا

بهم، لأنَّ نصب الأدلة على التوحيد قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على تقليد الآباء والافتداء بهم، [كما لا عذر لآبائهم]^(١) في الشرك وقد نصبت الأدلة لهم على التوحيد.

﴿فَنُهِّلْكُمْ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك لنا وتقدمهم فيه.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك التفصيل البالغ ﴿فُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ لهم.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفصلها، وقرئ: أن يقولوا - بالياء -.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ
الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا
وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ
إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾
سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ
﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

﴿وَاتْلُ﴾ على اليهود خبر ﴿الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ هو عالم من علماء بني إسرائيل أوتي علم بعض كتب الله، وقيل: هو من الكنعانيين، واسمه بلعم بن باعورا^(٢).

(١) ساقطة من ج.

(٢) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ٩: ٨٢.

﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره.
 ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريناً له، أو فأتبعه
 خطواته.

﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: من الضالين الكافرين. قال الباقري عليه السلام:
 ((الأصل فيه بلعم، ثم ضربه الله مثلاً لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل
 القبلة))^(١).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء
 بتلك الآيات.

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا ورغب فيها، وإنما علّق رفعه
 بمشيئة الله تعالى ولم يعلقه بفعله الذي يستحقّ به الرفع، لأنّ مشيئة الله رفعه تابعة
 للزومه الآيات، فذكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له، فكأنّه قيل: ولو لزمها
 لرفعناه بها. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فاستدرك المشيئة
 بإخلاده الذي هو فعله، فوجب أن يكون ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ في معنى ما هو فعله.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أي: فصفته كصفة الكلب في أحسن أحواله،
 وهي حال دوام اللهث به واتصاله، سواء حمل عليه أي: شدّ عليه وهيج فطرد
 أو ترك غير محمول عليه، وذلك أنّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج
 وحرك وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعاً. فكان حقّ الكلام أن
 يقال: ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه، ولكن تمثيله بالكلب
 في أحسن أحواله في معنى ذلك.

ومحلّ الجملة الشرطية النصب على الحال، كأنّه قيل: كمثّل الكلب ذليلاً دائماً الذلة لاهناً في الحالين. وقيل: إنّ بلعم طلب منه قومه أن يدعوا على موسى ومن معه، فأبى وقال: كيف أدعو على من معه الملائكة!، فألحوا عليه حتى فعل، فخرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب^(١).

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من اليهود بعد ما قرأوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، وبشّروا الناس بقرب مبعثه وكانوا يستفتحون به.

﴿فَأَقْصَصْ﴾ قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا بسيرته وزاغوا شبه زيغ، ويعلمون أنّك علمته من جهة الوحي فتزداد الحجّة لزوماً لهم.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ أي: مثل القوم ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ تقديم المفعول به للاختصاص، فكأنّه قيل: وخصّوا أنفسهم بالظلم لم يتعدّها إلى غيرها. ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾ فهو محمول على اللفظ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ محمول

على المعنى.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

أي: خلقنا ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ على أن مصيرهم إلى جهنم بسوء اختيارهم، وهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. جعلهم سبحانه في أنهم لا يتدبرون أدلة الله وبيّناته بعقولهم، ولا ينظرون إلى مخلوقاته نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من المواعظ والأذكار، ولا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار؛ مخلوقين للنار.

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ﴾ في عدم التدبّر والتفكر والنظر للاعتبار.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فإنّ البهائم إذا زجرت انزجرت، وإذا أرشدت إلى طريق اهتدت، وهؤلاء لا يهتدون إلى شيء من أمور الديانات مع ما ركب فيهم من العقول الدالة على الرشاد الصارفة عن العناد.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التي هي أحسن الأسماء، لأنها تتضمن معاني حسنة، بعضها يرجع إلى صفات ذاته كالعالم والقادر والحي والإله، وبعضها يرجع إلى صفات فعله كالخالق والرازق والبارئ والمصور، وبعضها تفيد التمجيد والتقديس كالقدّوس والغني والواحد.

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسمّوه بتلك الأسماء.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي: واتركوا الذين يعدلون بأسمائه عما هي عليه فيسمّون بها أصنامهم، أو يصفونه [بما لا يليق به ويسمّونه بما لا يجوز تسميته به] ^(١).

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا قرأها: ((هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾

أُمَّةٌ... الآية ^(١) ((٢))، وعن علي عليه السلام قال: ((والذي نفسي بيده، لتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة ومن خلقنا أمة يهدون بالحق... الآية، فهذه التي تنجو)) ^(٣). وعن الباقر والصادق عليهما السلام أنها قالا: ((نحن هم)) ^(٤).

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايُنِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوْلَمْ يَنْفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِهِمْ
مِّنْ حِجَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ
أَقْرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا
هَادِيَ لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

الاستدراج من الدرجة بمنزلة الاستصعاد والاستنزال درجة بعد درجة، والمعنى: سنستدينهم قليلاً قليلاً إلى الهلاك حتى يقعوا فيه بغتة ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يراد بهم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ عطف على ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ وهو داخل في حكم السين. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ سمّاه كيداً [لأنّه شبيه بالكيد] ^(٥)، لأنّه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان.

﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُّوْا﴾ هؤلاء الكفار فاعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ بمحمد ﷺ ﴿مِّنْ

(١) الأعراف: ١٥٩.

(٢) تفسير الطبري ج ٩: ٩٢.

(٣) تفسير العياشي ج ٢: ٤٣، الدر المنثور ج ٣: ١٤٩.

(٤) تفسير العياشي ج ٢: ٤٢، الكافي ج ١: ٤١٤.

(٥) ساقطة من ط.

جَنَّةٍ ﴿١﴾ أي: جنون، وكانوا يقولون: شاعر مجنون. وعن قتادة: (إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عَلَى الصِّفَا فِدْعَاهُمْ فَخْذًا فَخْذًا يَحْذَرُهُمْ بِأَسِ اللَّهِ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا لَمَجْنُونٌ بَاتَ يَهْوَتْ إِلَى الصَّبَاحِ) (١).

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿فِيمَا يَدْلُلُ عَلَيْهِ مِنْ عَظَمِ الْمَلِكِ﴾.

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس خلقه التي لا يحصرها العدد، وفي ﴿أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ ولعلمهم يموتون عن قريب، فيسارعوا إلى النظر فيما ينجيهم قبل مغافصة الأجل (٢). و﴿أَنْ﴾ هذه مخففة من الثقيلة، وأصله: وأنه عسى، على أَنَّ الضمير ضمير الشأن.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ ﴿أَي: بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. والمعنى: لعل أجلهم قد اقترب، فهاهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت؟! وبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا؟!.

وقرى: ويذرهم بالياء والنون، وبالرفع والجزم، والرفع على الاستئناف، والجزم عطف على محل ﴿فَكَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ كأنه قيل: من يضل الله لا يهده أحد ويذرهم.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا
لَوْفِقَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً
يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيفٌ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ

(١) تفسير الطبري ج ٩: ٩٣.

(٢) مغافصة الاجل: أخذه إياهم على غرة. (الصحيح: مادة غفص)

وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ
إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

الساعة: من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا، وسميت القيامة بـ﴿السَّاعَةِ﴾ لوقوعها بغتة، أو لأنها على طولها عند الله كساعة من ساعات الخلق.

و﴿يَآنَ﴾ بمعنى متى، وقيل: اشتقاقه من أي، لأن معناه أي وقت.

و﴿مُرَّسَنَهَا﴾ إرساؤها أو وقت إرسائها أي: إثباتها، ورسو كل شيء ثباته واستقراره، والمعنى: متى يرسبها الله؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحداً من خلقه ليكون العباد على حذر منه، وذلك أدعى لهم إلى الطاعة وأزجر عن المعصية، كما أخفى سبحانه وقت الموت لذلك.

﴿لَا يُجْلِيهَا لَوْفَنَهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تزال خفية لا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها.

﴿ثُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أهمّ شأن الساعة أهل السماوات والأرض من الملائكة والجن والإنس، فكل منهم يودّ أن يتجلى له علمها، وشق عليه خفاؤها وثقل عليه، أو ثقلت فيهما لأن أهلهما يتوقعونها ويخافون شدائدتها وأهوالها.

﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأة على غفلة منكم. وفي الحديث: ((إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه))^(١).

﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: كأنك عالم بها، وأصله: كأنك أحفيت في السؤال عنها

حتى علمتها، أي: استقصيت وألحفت، وقيل: إِنَّ ﴿عَنْهَا﴾ يتعلّق بـ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: يسألونك عنها [كأنّك حفي أي: عالم بها^(١)، وقيل: كأنّك حفي^(٢)] بالسؤال عنها تحبّه وتؤثّره، يعني: إنّ تكره السؤال عنها لأنّه من علم الغيب الذي استأثر الله به.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه المختصّ بالعلم بها.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ هو إظهار العبودية، أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ﴾ ربّي ومالكي من النفع لي والدفع عني.

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ لكانت حالي على خلاف ما هي عليه، فكنت أستكثر المنافع وأجتنب المضار، ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب، ورابحاً وخاسراً في المتاجر.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا﴾ عبد أرسلت بشيراً ونذيراً، وما من شأني علم الغيب.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾

(١) عن الضحاك. تفسير الطبري ج ٩: ٩٦.

(٢) ساقطة من ب.

﴿خَلَقَكُمْ﴾ خطاب لبني آدم.

﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي نفس آدم عليه السلام.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه، أو من جنسها كقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(١).

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن إليها ويأنس بها، لأنَّ الجنس إلى الجنس أميل وبه أنس، وذكر ﴿لِيَسْكُنَ﴾ ذهاباً إلى معنى النفس ليبين أنَّ المراد بها آدم، ولأنَّ الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، والتغشي كناية عن الجماع، وكذلك الغشيان والإتيان.

﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفًا﴾ وهو الماء الذي حصل في رحمها خفَّ عليها ولم تستثقله.

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت بالحمل على الخفة وقامت به وقعدت كما كانت قبل ذلك، لم يمنعها الحمل عن شيء من التصرف.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي: حان وقت ثقل حملها كما يقال: أقربت.

﴿دَعَا اللَّهَ﴾ أي: دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يلتجأ إليه فقالا: ﴿لَيْنِ أَتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ لئن وهبت لنا ولداً سوياً قد صلح بدنه وبرئ، وقيل: ولداً ذكراً^(٢)، لأنَّ الذكورة من الصلاح والجودة. والضمير في ﴿أَتَيْتَنَا﴾ و﴿لَنَكُونََنَّ﴾ لهما ولكل من تناسل من ذريتهما.

﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا﴾ ما طلباه من الولد الصالح السوي.

(١) الشورى: ١١.

(٢) عن الحسن. تفسير الطبري ج ٩: ٩٨.

﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فِيمَا أَتَاهُمَا﴾ أي: أتى أولادهما، وقد دلّ على ذلك قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزّى وعبد مناة وعبد يغوث وما أشبه ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن. وقرئ: جعلاً له شركاء، أي: ذوي شرك وهم الشركاء.

وفي الآية وجه آخر: وهو أن يكون الخطاب لقريش وهم آل قصي، أي: خلقتكم من نفس قصي وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلاً له شركاء فيما آتاهما حيث سمّيا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزّى وعبد قصي وعبد الدار.

﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا﴾ يقدر على خلق شيء ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ لأنّ عبدتهم يخلقونهم فهم أعجز من عبدتهم.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَبْصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعترها من الحوادث.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ أي: إلى ما هو هدى، أو إلى أن يهدوكم. ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم وطلبتكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ﴾ صمتم عن دعائهم في أنّه لا فلاح معهم.

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ

بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَّسْمَعُونَ بِهَآ قُلْ اَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ استهزاء بهم، أي: نهاية أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم.

﴿فَادْعُوهُمْ﴾ في مهماتكم ولصرف الأسواء عنكم.

ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم بقوله: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ اَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ثم كيدوني جميعاً أنتم وشركاؤكم.

﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ فإني لا أبالي بكم. وهذا لا يقوله إلا من هو واثق بعصمة الله، وكانوا قد خوّفوه بألهتهم فأمر أن يجيبهم بذلك.

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

﴿إِنَّ﴾ ناصري وحافظي ودافع شرّكم عني ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ﴾ القرآن وأعزّني برسالته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ومن عادته أن ينصر المطيعين له الصالحين من عباده.

﴿وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يشبهون الناظرين إليك، لأنهم صوّروا

أصنامهم بصورة من يقلب حدقته إلى الشيء ليراه.

﴿وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ وهم لا يدركون المرئي.

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما يأتي منهم من غير كلفة، ولا تذاقهم، واقبل الميسور منهم، ونحوه قوله ﷺ: ((يسرّوا ولا تعسّروا))^(١). أمر سبحانه بالتسامح وترك الاستقصاء في القضاء والاقتضاء.

﴿وَأُمِرُّ بِالْعَرَفِ﴾ بالمعروف والجميل من الأفعال والحميد من الخصال.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، وأعرض عما يسوؤك منهم. وقيل: إنه لما نزلت الآية سأل جبرئيل، فقال: لا أدري حتى أسأل، ثم أتاه فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك^(٢). وعن الصادق ﷺ: ((أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها))^(٣).

وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا جَعَلَتْهَا قُلٌّ إِنَّمَا آتَيْعٌ مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

﴿وَأِمَّا﴾ ينخسك ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ نخس في القلب يوسوسك على خلاف

(١) صحيح البخاري ج ١: ٢٤، رسائل الشريف المرتضى ج ٢: ٢٤٦.

(٢) تفسير الطبري ج ٩: ١٠٥.

(٣) الكشف والبيان ج ٤: ٣١٨.

ما أمرت به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ولا تطعه، وجعل النزغ نازغاً مثل قولهم: جدّ جدّه. والنزغ والنسغ والنخس بمعنى، كأنّه ينخس الإنسان حين يغريه على المعاصي. وقرئ: طيف و﴿طَلِيفٌ﴾ وهو مصدر قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً، أو هو تخفيف طيف فيعمل من طاف يطيف ك(لّين)، أو من طاف يطوف ك(هيّ). وهذا تأكيد وتقدير لما تقدّم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأنّ المتقين هذه عادتهم ﴿إِذَا﴾ أصابهم أدنى لمة ﴿مَنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ ما أمر الله به ونهى عنه، فأبصروا الرشد ودفعوا الوسوسة.

وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين فإنّ الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي: يكونون مدداً لهم ويزيدونهم فيه. وقرئ: يمدونهم، من الإمداد، وفي الشواذ: يمدونهم، والمعنى: يعاونونهم.

﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ أي: لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا. وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ كقول الشاعر:

قَوْمٌ إِذَا الْخَيْلُ جَالُوا فِي كَوَائِبِهَا فَوَارِسُ الْخَيْلِ لَا مِيلٌ وَلَا قَرْمٌ^(١)

في أنّ الخبر جرى على غير من هو له.

ويجوز أن يراد بالإخوان: الشياطين ويرجع الضمير إلى ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ فيكون الخبر جارياً على من هو له. والأوّل أوجه، لأنّ ﴿إِخْوَانَهُمْ﴾ في مقابلة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، وجاز جمع الضمير في ﴿إِخْوَانَهُمْ﴾ والشيطان مفرد لأنّ المراد به الجنس، فهو كقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾^(٢).

(١) البيت لزياد بن منقذ العبدي. ديوان الحماسة: ٤٣٥، وفيه: وهم إذا الخيل حالوا... .

(٢) البقرة: ٢٥٧.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِحَاجَةٍ﴾ مقترحة ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ اجتبى الشيء: إذا جباه لنفسه بمعنى جمعه، كقوله: اجتمعته، أو جبى إليه فاجتبه أي: أخذه، والمعنى: هلا اجتمعته افتعالاً من عند نفسك، لأنهم كانوا يقولون: إن هذا إلا إفك مفترى، أو هلا أخذتها منزلة عليك مقترحة.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ ولست بمفتعل للآيات، أو لست بمقترح لها.

﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ أي: هذا القرآن حجج بيّنة ودلائل واضحة يعود الناس بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾
وَأَذْكُرَ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾
رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

هذا الظاهر يوجب استماع القرآن والإنصات له وقت قراءته في الصلاة وغير الصلاة، وقيل: إنه في الصلاة خاصة خلف الإمام الذي يؤتم به إذا سمعت قراءته، وكان المسلمون يتكلمون في الصلاة فنزلت^(١)، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم في المجلس الذي يقرأ فيه القرآن. وقيل: معناه: إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له^(٢). قال الصادق عليه السلام: ((إذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات والاستماع))^(٣).

(١) أسباب النزول: ١٥٩.

(٢) عن الجبائي. التبيان ج ٥: ٨١.

(٣) تفسير العياشي ج ٢: ٤٤.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لترحموا بذلك.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هو عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء

والتسبيح والتهليل.

﴿تَضَرَّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: متضرعاً وخائفاً.

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ ومتكلماً كلاماً دون الجهر، لأن الإخفاء أدخل في

الإخلاص، وأبعد من الرياء، وأقرب إلى القبول.

﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ بالغدوات والعشيات لفضل هذين الوقتين. وقيل:

المراد به دوام الذكر واتصاله.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله اللاهين عنه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة، والمعنى في ﴿عِنْدَ﴾: دنو المنزلة

والزلفة والقرب من فضل الله ورحمته، لتوفرهم على طاعته.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ مع جلالة قدرهم وعلو أمرهم.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ ينزهونه عما لا يليق به.

﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ويختصونه بالسجود والعبادة، وهذا أول سجدة

القرآن.

سورة الأنفال

مدينة، وهي ست وسبعون آية بصري، خمس كوفي. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾
و﴿مَفْعُولًا﴾ الأول بصري، ﴿بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ كوفي.

في خبر أبي: ((ومن قرأ (سورة الأنفال وبراءة) فأنا شفيع له وشاهد له
يوم القيامة أنه بريء من النفاق، وأُعطي من الأجر بعدد كل منافق ومنافقة في
دار الدنيا عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وكان
العرش وحملته يصلون عليه أيام حياته في دار الدنيا))^(١)، قال الصادق عليه السلام: ((من
قرأهما في كل شهر لم يدخله نفاق أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين حقاً، ويأكل
يوم القيامة من موائد الجنة معهم حتى يفرغ الناس من الحساب))^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ



قرأ ابن مسعود وعلي بن الحسين زين العابدين والباقر والصادق عليه السلام: يسألونك

(١) الكشف والبيان ج ٤: ٣٢٤.

(٢) تفسير العياشي ج ٢: ٤٦.

الأنفال. وهذه القراءة مؤدية للسبب في القراءة الأخرى التي هي ﴿عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، وذلك أنهم إنَّما سألوه عنها استعلاماً لحالها، هل يسوغ طلبها؟. وفي القراءة بالنصب تصريح بطلبها، وبيان عن الغرض في السؤال عنها.

والنفل: الزيادة على الشيء، قال لبيد:

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلٌ وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلٌ^(١)

قال الصادق عليه السلام: ((الأنفال كل ما أخذ من دار الحرب بغير قتال، وكل أرض انجلى أهلها عنها بغير قتال أيضاً - وسماها الفقهاء فيئاً - والأرضون الموات، والآجام، وبطون الأودية، وقطائع الملوك، وميراث من لا وارث له، وهي لله والرسول ولمن قام مقامه بعده))^(٢).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ باتقاء مخالفة ما يأمركم هو ورسوله به.

﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ حقيقته أحوال بينكم، والمعنى: أصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة واتفاق ومودة، ونحوه: ذات الصدور، وهي مضمراتها.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾
أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٣٩.

(٢) ينظر: الوسائل ج ٦: باب ١ من أبواب الأنفال.

أي: ﴿إِنَّمَا﴾ الكاملون في الإيمان ﴿الَّذِينَ﴾ من صفتهم أنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ عندهم واقتداره وأليم عقابه على المعاصي ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي: ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة نفس، وتصديقاً إلى تصديقهم بها أنزل قبل ذلك من القرآن.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وإليه يفوضون أمورهم فيما يخافون ويرجون.

وخصّ الصلاة والزكاة بالذكر لعظم شأنها وتأكد الأمر فيهما.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المستجمعون لهذه الخصال ﴿هُمْ﴾ الذين استحقوا إطلاق اسم الإيمان على الحقيقة.

و﴿حَقًّا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: إيماناً حقاً، أو هو مصدر مؤكد للجمله التي هي ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كما تقول: هو عبد الله حقاً، أي: حق ذلك حقاً.

﴿دَرَجَاتٍ﴾ شرف وكرامة وعلو رتبة ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ وتجاوز لسيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ نعيم الجنة، أي: منافع دائمة، على سبيل التعظيم، وهذا

معنى الثواب.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ
إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ
أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾
لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

الكاف في محلّ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه الحال كحال

إخراجك، والمعنى: إنَّ حالهم في كراهة ما حكم الله في الأنفال مثل حالهم في كراهة خروجك من بيتك للحرب. ويجوز أن يكون في محلّ النصب على أنّه صفة لمصدر الفعل المقدّر في قولك: الأنفال لله والرسول، أي: الأنفال استقرت لله والرسول، وثبتت مع كراحتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك مع كراحتهم، فعلى هذا لا يكون الوقف من قوله: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ﴾ إلى قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾. وعلى الأوّل جاز الوقف على قوله: ﴿وَالرَّسُولِ﴾ وقوله: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾.

و﴿مَنْ بَيْتِكَ﴾ يريد بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها، لأنّها مهاجرة ومسكنه. ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: إخراجاً ملتبساً بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه، وهو الجهاد.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ في موضع الحال، أي: أخرجك في حال كراحتهم.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ فيما دعوتهم إليه، وهو تلقي النفير، وهو جيش قريش لا يثارهم عليه تلقي العير.

﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ بعد إعلام رسول الله بأنّهم ينصرون.

وجداهم أنّهم قالوا: ما خرجنا إلا للعير، وذلك: أنّ عير قريش أقبلت من الشام معها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمر بن العاص، فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقي العير، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة النجا النجا على كل صعب وذلول، عيركم، أموالكم، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً. وخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير، وفي المثل السائر: لا في العير ولا في النفير^(١)، فقل

له: إِنَّ الْعِيرَ أَخَذَتْ طَرِيقَ السَّاحِلِ وَنَجَتْ، فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا والله حتى ننحر الجزر ونشرب الخمر ببدر، فتسامع العرب بأنَّ مُحَمَّدًا لم يصب العير، وأنا أغضضناه، فمضى بهم إلى بدر - وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة - ونزل جبرئيل فقال: يا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ ﴿إِحْدَى الطَّائِفَيْنِ﴾: إما العير وإما قريشاً، فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: ما تقولون؟ إن القوم قد خرجوا من مكة فالعير أحب إليكم أم النفير؟ قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو. فتغيّر وجه رسول الله ﷺ وقال: إِنَّ الْعِيرَ قَدْ مَضَتْ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ وَهَذَا أَبُو جَهْلٍ قَدْ أَقْبَلَ، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فقام رجال من أصحابه وقالوا، ثم قام المقداد بن عمرو وقال: والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك المهراس لخضناه معك، ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(١) ولكننا نقول: امض لما أمرك ربك فإننا معك مقاتلون مادامت منا عين تطرف، وقام سعد بن معاذ وقال: يا رسول الله امض لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، ففرح رسول الله بقلوله، وقال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإنَّ الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم^(٢).

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ تشبيه حالهم بحال من يعتل^(٣) إلى القتل وهو ناظر إلى أسباب الموت لا يشك فيه.

(١) المائدة: ٢٤.

(٢) ينظر: مغازي الواقدي ج ١: ١٩ - ٤٩.

(٣) يعتل: يجذب جذباً عيفاً. (الصحاح: مادة عتل)

و﴿إِذْ﴾ منصوب بإضمار (اذكر)، و﴿أَنَّهُ لَكُمْ﴾ بدل من ﴿إِحْدَى الطَّائِفَيْنِ﴾.

و﴿غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ﴾ العير، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، والشوكة: الحدة، مستعارة من حدة الشوك، أي: تتمنون أن يكون العير لكم، ولا تريدون الطائفة الأخرى التي هي ذات الشدة والحدة.

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ أي: يثبت، بأن يعزّ الإسلام ويعلي كلمته، ويهلك وجوه قريش على أيديكم ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ بآياته المنزلة في محاربتهم ﴿وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ باستئصالهم وقتلهم وأسرهم وطرحهم في قليب بدر. والدابر: الآخر، من دبر: إذا أدبر. والمعنى: إنكم تريدون الفائدة العاجلة، والله يريد ما يرجع إلى علو أمور الدين ونصرة الحق، ولذلك اختار لكم الطائفة الأخرى ذات الشوكة، وغلب كثرتهم بقلبتكم، وأذلهم وأعزكم.

وقوله: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ تعلق بمحذوف، تقديره: ليحقق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُّمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
 لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾، وقيل: إنه يتعلق بقوله:
 ﴿لِيَحِقَّ الْحَقُّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلُ﴾. واستغاثتهم: إن رسول الله ﷺ لما نظر إلى المشركين
 وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، استقبل القبلة ومد يديه يدعو:
 ((اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض)) فما
 زال كذلك حتى سقط رداؤه من منكبهِ^(١).

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأغاثكم وأجاب دعوتكم ﴿أَنِّي مُبْعِدُكُمْ﴾ أصله:
 بآني ممدكم، فحذف الجار.

وقرى: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسر الدال وفتحها، من قولك: ردفه: إذا تبعه،
 وأردفته إياه: إذا أتبعته، ويقال: أردفته وأتبعته: إذا جئت بعده. فعلى الأول يكون
 معنى مردفين - بكسر الدال -: متبعين بعضهم بعضاً، أو متبعين أنفسهم المؤمنين.
 وعلى الثاني يكون معناه: متبعين بعضهم لبعض، أو متبعين للمؤمنين يحفظونهم.
 ومن قرأ بفتح الدال فمعناه: متبعين أو متبَّعين.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾
 أي: بشارة لكم بالنصر كالسكينة لبني إسرائيل. والمعنى: أنكم استغثتم ربكم
 وتضرعتم، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر، وتسكيناً منكم، وربطاً

على قلوبكم.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله، ينصر من يشاء، قلّ العدد أم كثر.
 ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ بدل ثان من ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾، أو منصوب بالنصر أو بما جعله الله، وقرئ: يغشيكم، بالتخفيف والتشديد، ونصب النعاس والضمير لله عزّ وجل.

و﴿أَمَنَةً﴾ مفعول له، و﴿مِنْهُ﴾ صفة لـ﴿أَمَنَةً﴾، أي: أمنة حاصلة لكم من الله. والمعنى: إذ تنعسون لأمنكم الحاصل من الله بإزالة الرعب من قلوبكم.
 ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً.
 و﴿جِزْ السَّيِّطِينَ﴾: وسوسته إليهم. وذلك أنّ المشركين قد سبقوهم إلى الماء، ونزل المسلمون في كتيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وناموا، فاحتلم أكثرهم، فتمثّل لهم إبليس وقال: يا أصحاب محمد أنتم تزعمون أنّكم على الحقّ وأنّتم تصلّون على جنابة وقد عطشتم، ولو كنتم على حقّ ما غلبكم هؤلاء على الماء، وهاهم الآن يمشون إليكم فيقتلونكم ويسوقون بقيتكم إلى مكة، فحزنوا لذلك. فأنزل الله المطر فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي، واغتسلوا وتوضأوا، واتخذوا الحياض على عدوة الوادي، وتلبّد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبت الأقدام عليه، وزالت وسوسة الشيطان.

والضمير في ﴿بِهِ﴾ للماء، أو ليربط، لأنّ الجرأة تثبّت [القدم]^(١) في مواطن الحرب.

(١) ساقطة من ج.

﴿إِذْ يُوحَىٰ﴾ يجوز أن يكون بدلاً ثالثاً من ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾، وأن ينتصب بـ ﴿وَيُثَبِّتَ﴾.

﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أعينكم على التثبيت فثبتوهم.

وقوله: ﴿سَأُلْقِي ... فَأَضْرِبُوا﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لقوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا﴾، ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفار، ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم، ويجوز أن يكون غير تفسير، وأن يراد بالتثبيت أن يظهروا ما يثقن به المؤمنون أنهم أمدوا بهم.

﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ التي هي المذابح، وقيل: أراد الرؤوس^(١). والبنان: الأصابع، يريد به الأطراف. والمعنى: ﴿فَأَضْرِبُوا﴾ المقاتل والأطراف من اليدين والرجلين. ويجوز أن يكون من قوله: ﴿سَأُلْقِي ...﴾ إلى قوله: ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ عقيب قوله: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تلقيناً للملائكة ما يثبتونهم به، أي: قولوا لهم قولي: ﴿سَأُلْقِي﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وقع بهم من القتل والعقاب العاجل، أي: ذلك العقاب وقع بهم بسبب مشاقتهم. والمشاقة مشتقة من الشق لأن كلا المتعادين في شق خلاف شق صاحبه. والكاف في ﴿ذَلِكَ﴾ لخطاب الرسول أو لخطاب كل أحد، وفي ﴿ذَلِكَ﴾ للكفرة على طريقة الالتفات. و﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿يَأْتِيهِمْ﴾ خبره.

و﴿ذَلِكَ﴾ في محلّ الرفع أيضاً، أي: ذلكم العقاب أو العقاب ذلكم ﴿فَذَوْقُوهُ﴾، ويجوز أن يكون في محلّ النصب على تقدير: عليكم ذلكم ﴿فَذَوْقُوهُ﴾، كقولك: زيداً فاضربه.

(١) عن عكرمة. تفسير الطبري ج ٩: ١٣٢.

﴿وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ﴾ عطف على ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ في الوجهين، أو نصب على أن (الواو) بمعنى (مع)، أي: ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة، فوضع الظاهر موضع الضمير.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَذْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ
مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا
رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ
بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

الزحف: الجيش الذي يرى لكثرته كأنه يزحف أي: يدب ديباً، من زحف الصبي: إذا دب على استه، سمي بالمصدر، والجمع زحوف. والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفروا، فضلاً عن أن تساووه في العدد أو تدانوه. فيكون ﴿زَحَفًا﴾ حالاً من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ويجوز أن يكون حالاً من الفريقين، أي: إذا لقيتموهم متزاحفين أنتم وهم، أو حالاً من المؤمنين، كأنهم أخبروا بما سيكون منهم يوم حنين^(١) حين ولّوا مدبرين وهم زحف اثنا عشر ألفاً. وفي قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ﴾ أمانة عليه.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ﴾ هو الكر بعد الفر، يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو نوع من مكائد الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّرًا﴾ أي: أو منحازاً ﴿إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها. وانتصابها على الحال و﴿إِلَّا﴾ لغو، أو على الاستثناء من المولين، أي: ومن يولهم إلا رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً.

(١) ينظر: مغازي الواقدي ج ٣: ٨٨٥ وما بعدها.

ووزن متحيز متفعل لا متفعل، لأنه من حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوز.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بأن أنزل الملائكة، وألقى الرعب في قلوبهم وقوى قلوبكم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ أنت يا محمد ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ وذلك أن قريشاً لما جاءت بخيلائها أتاه جبرئيل فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فقال لعلي عليه السلام: ((أعطني قبضة من حصباء الوادي)) فأعطاه، فرمى بها في وجوههم، وقال: ((شاهت الوجوه))، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ حيث أثرت الرمية ذلك الأثر العظيم. أثبت الرمي لرسول الله لأنه وجد منه صورة، ونفاه عنه معنى لأن أثره الذي لا يدخل في قدرة البشر فعل الله عزّوعلا، فكأنه فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من الرسول أصلاً. وقرئ: ولكن الله قتلهم، ولكن الله رمى.

﴿وَلِيُبَلِّغَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعطهم ﴿بَلَاءً﴾ عطاء ﴿حَسَنًا﴾ جميلاً، قال زهير:

وَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو^(١)

والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين والإنعام عليهم فعل ما فعل، ولم يفعله إلا لذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ

(١) شعر زهير بن أبي سلمى: ٤٠، وصدده: رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم.

وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
 ﴿١٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ
 وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ
 لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، ومحله الرفع، أي: الغرض ذلكم،
 ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ﴾ عطف على ﴿ذَلِكُمْ﴾ يعني: إنَّ الغرض إبلاء المؤمنين
 وتوهين كيد الكافرين. وقرئ: موهن - بالتشديد - وقرئ على الإضافة، وعلى
 الأصل الذي هو التوئين والإعمال.

﴿إِنْ تَسْتَفِينُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ خطاب لأهل مكة على طريق
 التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم
 انصر أعلى الجندين وأهدى الفتتين وأكرم الحزبين. وروي: أنَّ أبا جهل قال يوم
 بدر: اللهم أيُّنا كان أهجر وأقطع للرحم فأحنه^(١) اليوم^(٢)، أي: فأهلكه. وقيل:
 ﴿إِنْ تَسْتَفِينُوا﴾ خطاب للمؤمنين و﴿وَإِنْ تَنْهَوُا﴾ للكافرين^(٣)، أي: وإن تنتهوا
 عن عداوة رسول الله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لمحاربته ﴿نَعُدُّ﴾ لنصرته
 عليكم. وقرئ: وأنَّ الله - بالفتح - على: ولأنَّ الله مع المؤمنين كان ذلك، وبالكسر
 وهو الأوجه، ويقويه قراءة عبد الله: والله مع المؤمنين.

وقرئ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ بحذف التاء وإدغامها في التاء، والضمير في ﴿عَنْهُ﴾
 لرسول الله، لأنَّ المعنى: أطيعوا رسول الله، كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ

(١) أحنه: أهلكه. (الصحاح: مادة حين)

(٢) تاريخ الطبري ج ٢: ٢٨١.

(٣) الكشف والبيان ج ٤: ٣٤٠.

يُزْضَوْهُ ^(١)، ولأن طاعة الله وطاعة الرسول شيء واحد، ورجوع الضمير إلى أحدهما رجوع إليهما، كما تقول: الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان.

﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ دعاءه لكم.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ﴾ ادعوا السماع ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم ليسوا بمصدقين فكانهم غير سامعين.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ
 ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا
 وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ
 وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ
 بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا
 فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ
 اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

﴿إِنَّ شَرَّ﴾ من يدب على وجه الأرض، أو إن شر البهائم، جعلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرها ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ أي: الذين هم صم عن الحق لا يسمعون، بكم لا يقرّون به.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ﴾ في هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا﴾ أي: انتفاعاً باللفظ ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ للطف بهم حتى يسعوا سماع المصدقين ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا. وفي هذا دلالة على أنه سبحانه لا يمنع أحداً اللطف، وإنما لا يلطف لمن يعلم أنه لا ينتفع به. وقال الباقر عليه السلام: ((هم بنو عبد الدار لم يسلم منهم غير مصعب

بن عمير وسويد بن حرملة))^(١) كانوا يقولون: نحن صمُّ بكمِّ عما جاء به محمد، وقد قتلوا جميعاً بأحد، كانوا أصحاب اللواء.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وَّحْدَ الضمير، لأنَّ استجابة رسول الله استجابة الله، والمراد بالاستجابة: الطاعة والامتثال ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من علوم الدين والشرائع، لأنَّ العلم حياة والجهل موت. وقيل: لمجاهدة الكفار^(٢) وللشهادة^(٣) لقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٤).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي: يملك على المرء قلبه فيغيّر نيّاته ويفسخ عزائمه، ويبدله بالذكر نسياناً وبالنسيان ذكراً، وبالخوف أمناً وبالأمن خوفاً، وقيل: معناه: إنّ المرء لا يستطيع أن يكتُم الله بقلبه شيئاً^(٥) وهو يطّلع على ضمائره وخواطره، فكأنّه بينه وبين قلبه، وقيل: معناه: أنّه يميت المرء فتفوته الفرصة التي هو واجدها، وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه ورده سليماً كما يريد الله، فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم، واعلموا أنّكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة. وعن الصادق عليه السلام: ((يحول بين المرء وبين أن يعلم أنّ الباطل حق))^(٦).

(١) التبيان ج ٥: ١١٧.

(٢) عن ابن إسحاق. معالم التنزيل ج ٢: ٥٢.

(٣) عن القتيبي. معالم التنزيل ج ٢: ٥٢.

(٤) آل عمران: ١٦٩.

(٥) عن قتادة. تفسير الطبري ج ٩: ١٤٣.

(٦) كتاب التوحيد: ٢٩١.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ أي: بلية، وقيل: ذنباً^(١)، وقيل: عذاباً^(٢)، وقيل: هو إقرار المنكر بين أظهرهم^(٣).

وقوله: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ لا يخلو أن يكون جواباً للأمر، أو نهياً بعد أمر معطوفاً عليه بحذف الواو، أو صفة لـ ﴿فِتْنَةً﴾. فإذا كان جواباً فالمعنى: إن أصابتكم لا تصيب الظالمين ﴿مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ولكونها تعممكم، [وإنما جاز دخول النون في جواب الأمر لأن فيه معنى النهي]^(٤)، كما تقول: إنزل عن الدابة لا تطرحك، ويجوز: لا تطرحك. وإذا كانت نهياً بعد أمر فكأنه قيل: واحذروا بلية أو ذنباً أو عقاباً، ثم قيل: لا تتعرضوا للظلم فتصيب البلية أو العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة. وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول كأنه قيل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ مقولاً فيها: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾، ونظيره قول الشاعر:

حَتَّى إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَاخْتَلَطُ جَاءُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذُّنْبَ قَطُ^(٥)

أي: بمذق يقال فيه هذا القول، لأن فيه لون الزرقة التي هي للذنوب، ويعضده قراءة ابن مسعود: لتصيين، على جواب القسم المحذوف، وتكون (من) للتبيين على هذا، لأن المعنى: لا تصيينكم أو لتصيينكم خاصة على ظلمكم، لأن الظلم أقبح منكم من سائر الناس.

وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: ((من ظلم علياً

(١) الكشاف ج ٢: ٢١١.

(٢) عن الجبائي. التبيان ج ٥: ١٢١.

(٣) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ٩: ١٤٤.

(٤) ساقطة من ج.

(٥) لم أعثر على قائله في المصادر المتوفرة.

مقعدي هذا بعد وفاتي، فكانت جحد نبوتي ونبوة الأنبياء قبلي)) أورده الحاكم أبو القاسم الحسكاني^(١) في كتاب شواهد التنزيل مرفوعاً^(٢). وعن ابن عباس أيضاً: أنه سئل عن هذه الفتنة، فقال: (أبهمو ما أبهم الله)^(٣)، وعن السدي: (نزلت في أهل بدر فاقتلوا يوم الجمل)^(٤).

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ
يَخْطَفَكُمْ النَّاسُ فَغَاوَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ. وَرَزَقَكُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾
وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ معاشر المهاجرين ﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ أي: وقت كونكم أقلّة
أذلة، ف﴿إِذْ﴾ هنا مذكور مفعول به وليس بظرف.

﴿مُسْتَضْعَفُونَ﴾ تستضعفكم قريش ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مكة قبل
الهجرة ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخْطَفَكُمْ النَّاسُ﴾ أي: يستلبكم المشركون من العرب إن
خرجتم منها ﴿فَغَاوَكُمْ﴾ إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ أي: قواكم بمظاهر
النصر بإمداد الملائكة يوم بدر ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الغنائم ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن أحمد القرشي العامري الحنفي الحاكم، ويعرف بابن الحذاء،
شيخ متقن ذو عناية تامة بعلم الحديث، وكان معمرًا عالي الإسناد، توفي بعد سنة ٤٧٠ هـ. ينظر: تذكرة
الحفاظ ج ٣: ١٢٠٠.

(٢) شواهد التنزيل ج ١: ٢٠٦.

(٣) مجمع البيان ج ٣-٤: ٥٣٤.

(٤) تفسير الطبري ج ٩: ١٤٤.

نَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ إرادة أن تشكروا هذه النعم. وعن قتادة: (كانت العرب أذلّ الناس، وأشقاهم عيشاً، وأعراهم جلدأً، يؤكلون ولا يأكلون، فمكّن الله لهم في البلاد، ووسّع عليهم في الرزق والغنائم، وجعلهم ملوكاً)^(١).

ومعنى الخون: النقص، كما أنّ معنى الوفاء: التمام، ومنه تخونه أي: تنقصه، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه، والمعنى: لا تخونوا الله بترك أوامره، والرسول بترك سنته وشرائعه، و﴿أَمْنَتِكُمْ﴾ فيما بينكم بأن لا تحفظوها ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ذلك وعقابه، وقيل: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون^(٢)، يعني: إنّ الخيانة توجد منكم عن عمد. ويحتمل أن يكون ﴿وَتَخُونُوا﴾ جزماً داخلاً في حكم النهي، وأن يكون نصباً بإضمار (أن)، نحو: لا تأكل السمك وتشرب اللبن.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ جعلهم فتنة، لأنهم سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب، أو يريد: محنة من الله ليلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فعليكم أن تزهّدوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحبّ الولد، ولا تؤثروهما على نعيم الأبد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾
وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٢٨﴾

(١) تفسير الطبري ج ٩: ١٤٥.

(٢) عن ابن زيد. تفسير الطبري ج ٩: ١٤٧.

﴿فُرْقَانًا﴾ أي: فتحاً ونصراً، كقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾^(١) لأنه يفرق بين الحقِّ بإعزاز أهله والباطل بإذلال أهله، أو هداية ونوراً وتوفيقاً وشرحاً للصدور، أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم في أقطار الأرض.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما فتح الله عليه، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة لي شكر النعمة الجليلة في إنجائه منهم واستيلائه عليهم، أي: واذكر إذ يمكرون بك حين اجتمعوا في دار الندوة وتآمروا في أمرك، فقال بعضهم: نحسبه في بيت ونلقي إليه الطعام والشراب، وقال بعضهم: نحمله على جمل ونخرجه من بين أظهرنا، وقال أبو جهل: نأخذ من كل بطن غلاماً ونعطيه سيفاً صارماً فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه، فقال إبليس - وكان قد دخل عليهم في صورة شيخ من أهل نجد -: هذا الفتى أجودكم رأياً. فتفرقوا على رأيه مجمعين على قتله^(٢).

وعن ابن عباس: ﴿لِيُثَبِّتُوكَ﴾: ليقيدوك ويوثقوك^(٣)، وقيل: ليشخنوك بالضرب والجرح^(٤) من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به، وفلان مثبت وجعاً.

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويخفون المكائد ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة.

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام ج ٢: ١٢٤ - ١٢٦.

(٣) تفسير الطبري ج ٩: ١٤٨.

(٤) عن أبان بن تغلب وغيره. الكشف والبيان ج ٤: ٣٥٠.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل.

وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ قائله: النضر بن الحارث بن كلدة، وأسر يوم بدر فقتله النبي ﷺ صبراً بيد علي عليه السلام، وإنما قاله صلفاً ونفاجة، فإثمهم لم يتوانوا في مشيتهم لو استطاعوا ذلك، وإلا فما منعهم أن يشاؤوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالمعجز حتى يغلبوه مع فرط حرصهم على قهره وغلبته؟!.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قاله النضر أيضاً، وذلك أنه جاء بحديث رستم وإسفنديار من بلاد فارس، وزعم أن هذا مثل ذلك.

وهو القائل: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا﴾ أي: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر. ومراده أن ينفي كونه حقاً، وإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكره عذاباً، فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال.

﴿لِيُعَذِّبَهُمُ﴾ اللام لتأكيد النفي، والدلالة على أن تعذيبهم وهو بين أظهرهم

غير مستقيم في الحكمة، ومن قضية حكمة الله أن لا يعذب قوماً عذاب استئصال ونيهم بين أظهرهم. وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم بدلالة قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾، فكأنه قال: ما يعذبهم وأنت فيهم، وهو معذبهم إذا فارقتهم ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ في موضع الحال، أي: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون بين أظهرهم من المستضعفين الذين تخلفوا بعد خروج رسول الله ﷺ وهم على عزم الهجرة، وقيل: معناه نفي الاستغفار عنهم، أي: ولو كانوا ممن يؤمن بالله ويستغفر لما عذبهم، ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون^(١).

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ وأي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم، يعني: لاحظ لهم في ذلك ﴿وَهُمْ﴾ معذبون لا محالة، وكيف لا يعذبون وحالهم أتهم ﴿يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أوليائه ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: وما استحقوا مع شركهم بالله وعداوتهم لرسوله أن يكونوا ولاية أمره ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْأُمُتُونَ﴾ إنما يستحق ولايته من كان تقياً من المسلمين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كأنه استثنى من يعلم ويعاند، أو أراد بالأكثر الجميع كما يراد بالقلة العدم.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا

(١) عن قتادة. تفسير الطبري ج ٩: ١٥٥.

ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ
 جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
 الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ
 أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، وهو ضرب اليد على اليد، وهو تفعلة
 من الصدى، والمعنى: إنهم وضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة، كما أن الشاعر
 في قوله:

مَا كُنْتُ أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُوداً أَوْ مُحْدَرَجَةً سُمْراً^(١)

وضع القيود والسياط موضع العطاء.

وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون
 فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته يخلطون
 عليه.

﴿فَذَوْقُوا﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم.

﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر، وكان كل يوم يطعم واحد
 منهم عشر جزور، وقيل: إنهم قالوا لكل من كانت له تجارة في العير: أعينوا بهذا
 المال على حرب محمد لعننا ندرك منه ثأرنا بما أصيب منا ببدر^(٢)، [وقيل: نزلت
 في أبي سفيان وقد استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من

(١) شرح ديوان الفرزدق ج ١: ٢٢٧.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣: ٦٤.

العرب^(١) [٢].

﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: كان غرضهم في الإنفاق الصدّ عن اتباع محمد ﷺ:

وهو سبيل الله.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثم تكون عاقبة إنفاقها حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر يغلبهم المؤمنون، والكافرون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾ الفريق ﴿الْخَيْثَ مِنْ﴾ الفريق ﴿الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَيْثَ بَعْضُهُ﴾ فوق ﴿بَعْضِ﴾ في جهنم يضيّقها عليهم ﴿فَيَرْكُمُهُ﴾ عبارة عن الجمع والضم حتى يتراكموا، كقوله: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾^(٣)، وقيل: نفقة الكافر من نفقة المؤمن، ويجعل نفقة الكافر بعضها على بعض فوق بعض فيركمه ويجمعه جميعاً فيجعله في جهنم يعاقبهم به^(٤)، كما قال: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ... الْآيَةِ﴾^(٥). وقرئ: ﴿لِيَمِيزَ﴾ على التخفيف.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ
يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَلِيلُهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُفُّ عَنَّا اللَّهُ كُلُّهُ فَإِنِ انْتَهُوا
فَأِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ مُوَلِّكُمْ نَعَمَ الْمُؤْمِنُ وَالنَّعَمُ الْمُتَصِيرُ ﴿٤٠﴾

(١) عن سعيد بن جبير وغيره. تفسير الطبري ج ٩: ١٥٩.

(٢) ساقطة من أ، ب، ط.

(٣) الجن: ١٩.

(٤) عن مقاتل. تفسير السمرقندي ج ٢: ٢١.

(٥) التوبة: ٣٥.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قل لأجلهم هذا القول وهو ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾، ولو كان بمعنى خاطبهم به لقليل: إن تنتهوا - بالتاء - يغفر لكم، أي: إن ينتهوا عما هم عليه بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرَ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من الشرك وعداوة الرسول ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ لعداوته وقتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحزبوا على أنبياء الله في تدميرهم، فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا.

﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أي: إلى أن لا يوجد فيهم شرك ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ ويضمحل كل دين باطل ويبقى دين الإسلام وحده. قال الصادق عليه السلام: ((لم يحج تأويل هذه الآية، ولو قد قام قائمنا بعد سيري من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمد ﷺ ما بلغ الليل حتى لا يكون شرك على ظهر الأرض))^(١).

﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يشيهم على توبتهم وإسلامهم. وقرئ: تعملون - بالتاء - فيكون المعنى: فإن الله بما تعملون من الجهاد في سبيله ﴿بَصِيرٌ﴾ يجازيكم عليه أحسن الجزاء. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ولم ينتهوا فثقوا بولاية الله ونصرته.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ

لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَمَرَ كَانَتْ
مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

(ما) موصولة، و﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيانه، ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: فواجب، أو فحقَّ أَنَّ ﴿لِلَّهِ حُكْمُهُ﴾.

قال أصحابنا رضوان الله عليهم أجمعين: إنَّ الخمس يقسم على ستة أسهم - كما في الآية -: سهم لله، وسهم للرسول ﷺ، وسهم لذوي القربى، فهذه الأسهم الثلاثة اليوم للإمام القائم مقام الرسول ﷺ، وسهم ليتامى آل محمد، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم، لا يشركهم في ذلك غيرهم، لأنَّ الله سبحانه حرَّم عليهم الصدقة لكونها أوساخ الناس وعوضهم من ذلك الخمس^(١). وروى ذلك الطبري^(٢) عن علي بن الحسين زين العابدين ومحمد بن علي الباقر صلوات الله عليهما^(٣). ورووا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قيل له: إنَّ الله تعالى قال: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ﴾ فقال: ((أيتامنا ومساكيننا))^(٤).

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ تعلق بمحذوف يدلُّ عليه ﴿وَأَعْلَمُوا﴾، والمعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنَّ الخمس من الغنيمة يجب التقرب به،

(١) ينظر: الوسائل ج ٦ باب ١ من أبواب قسمة الخمس.

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التصانيف المشهورة في التفسير والتاريخ، ولد بآمل سنة ٢٢٤ هـ واستوطن بغداد وأقام بها الى حين وفاته سنة ٣١٠ هـ. ينظر: طبقات المفسرين ج ٢: ١٠٦.

(٣) تفسير الطبري ج ١٠: ٧، وفيه عن زين العابدين عليه السلام فقط.

(٤) الكشف والبيان ج ٤: ٣٦١.

فاقطعوا عنه أطعامكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ معطوف على ﴿بِاللَّهِ﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل ﴿عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يعني: يوم بدر.

و﴿الْجَمْعَانِ﴾: الفريقان من المسلمين والكافرين، والمراد: ما أنزل من الآيات والملائكة والفتح يومئذ.

﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، والعدوة: شط الوادي، بالكسر والضم، و﴿الدُّنْيَا﴾ و﴿الْقُصُوصِ﴾ تأنيث الأدنى والأقصى، والقياس أن تقلب الواو ياء كالعلياء، إلا أن القصوى جاءت على الأصل شاذاً كالقود. والعدوة الدنيا مما يلي المدينة، والعدوة القصوى مما يلي مكة.

﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يعني أبا سفيان والعير ﴿أَسْفَلَ﴾ نصب على الظرف، معناه: مكاناً أسفل من مكانكم يقودون العير بالساحل، ومحله رفع لأنه خبر المبتدأ.

والفائدة في ذكر هذه المراكز، الإخبار عن الحال الدالة على قوة المشركين وضعف المسلمين، وأن غلبتهم على مثل هذه الحال أمر إلهي لم يتيسر إلا بحوله وقوته، وذلك أن العدو القصوى كان فيها الماء، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار^(١) تسوخ فيها الأرجل، وكانت العير وراء ظهورهم مع كثرة عددهم، وكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم وتحملهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ويبدلوا نهاية نجدتهم، وفيه تصوير ما دبره عز اسمه من أمر وقعة بدر ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من إعزاز دينه وإعلاء كلمته.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون

(١) الخبار: الأرض الرخوة ذات الحجرة. (الصحاح خبر)

فيه للقتال، لخالف بعضهم بعضاً، فثبّطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبّطهم ما في قلوبهم من الرعب، فلم يتفق لكم من اللقاء ما وفقه الله.

﴿لَيَقْضَىٰ﴾ متعلّق بمحذوف، أي: ليقضي أمراً كان واجباً أن يفعل، دبّر ذلك، وقوله: ﴿لَيَهْلِك﴾ بدل منه، واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام، أي: ليصدر كفر من كفر عن وضوح بيّنة وقيام حجة عليه، ويصدر إسلام من أسلم عن يقين وعلم بأنّه الدين الحقّ الذي يجب التمسك به.

﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم كيف يدبر أموركم.

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَدْنَاكَ كَثِيرًا
لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ
قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيَ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا
وَالِلَّهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

﴿إِذْ﴾ نصب بإضمار اذكر، أو هو بدل ثان من ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، أو متعلّق بقوله: ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك.

﴿فِي مَنَامِكَ﴾ أي: في رؤياك، وذلك أنّ الله سبحانه أراهم إيّاه في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه فكان تشجيعاً لهم، وعن الحسن: ﴿فِي مَنَامِكَ﴾: في عينك لأنّها مكان النوم^(١). والفشل: الجبن، أي: لجبتهم وهبتم الإقدام، ولتنازعتهم في الرأي وتفرقت كلمتكم فيما تصنعون.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾

بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٥﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ أي: يبصركم إياهم، و﴿قَلِيلًا﴾ نصب على الحال. وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ. وعن ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً^(١).

﴿وَيَقِلُّ لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل منهم: إنما هم أكلة جزور^(٢)، وإنما قللهم في أعينهم ليجترئوا عليهم قبل اللقاء، ثم كثّرهم فيها بعد اللقاء لتفجأهم الكثرة فيها بوا، وتقل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم، وذلك قوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾^(٣)، ويمكن أن يكونوا قد أبصروا الكثير قليلاً بأن ستر الله عنهم بعض أولئك بساتر.

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ
كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا
تَنَزَّعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ
﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ
النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

أي: إذا حاربتم جماعة كافرة، وإنما لم يصفهم لأنّ المؤمنين لا يجاربون إلا الكفار، واللقاء اسم للقتال غالب.

(١) تفسير الطبري ج ١٠: ١٠.

(٢) القائل أبو جهل. تاريخ الطبري ج ٢: ٢٧٩.

(٣) آل عمران: ١٣.

﴿فَاقْبِتُوا﴾ لقتالهم ولا تفرّوا ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن القتال، مستعينين به مستظهرين بذكره ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ أي: تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة.

﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ أي: لا تتنازعوا فيما بينكم فتضعفوا عن قتال عدوكم، و﴿تَفْشَلُوا﴾ منصوب بإضمار (أن).

والريح: الدولة، شبّهت في نفوذ أمرها بالريح وهبوبها، قالوا: هبّت رياح فلان: إذا دالت له الدولة ونفذ أمره، وقيل: لم يكن قط نصر إلا بريح يبعثها الله^(١). وفي الحديث: ((نُصِرْتُ بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور))^(٢).

﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ هم أهل مكة خرجوا ليحموا غيرهم، فأتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة^(٣): أن ارجعوا فقد سلمت غيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدماء نشرب بها الخمر وتعزف علينا القيان، فذلك بطرهم، ورثاؤهم الناس إطعامهم، فوافوها فسقوا كأس الحمام مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان.

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ
مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقُسُتَانِ نَكَصَ
عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي
أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ



(١) عن ابن زيد. تفسير الطبري ج ١٠: ١٢.

(٢) صحيح مسلم ج ٣: ٢٧، الجعفریات ج ٢: ١٣٦.

(٣) الجحفة: قرية كبيرة على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وبينها وبين المدينة ست مراحل وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يَمروا على المدينة. معجم البلدان ج ٢: ١١١.

قيل: إنّ قريشاً لما اجتمعت للمسير ذكرت ما بينها وبين كنانة من الحرب فكاد ذلك يثنيهم، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم الكناني - وكان من أشرافهم - فقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ﴾ وإني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تنزل ﴿نَكَصَ﴾، ولما نكص قال له الحارث بن هشام - وكانت يده في يده -: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ ودفع في صدره وانطلق، وانهمزوا، فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقه، فبلغ ذلك سراقه، فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم^(١).

إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ الشاكون في الإسلام ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ يعنون المسلمين، أي: اغتروا بدينهم وأثم ينصرون من أجله، فخرجوا مع قلتهم إلى قتال المشركين مع كثرتهم. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب ينصر الضعيف على القوي، والقليل على الكثير.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أي: ولو عاينت وشاهدت، لأنّ (لو) يرد المضارع إلى معنى الماضي، كما أنّ (إن) تردّ الماضي إلى معنى الاستقبال، و﴿إِذْ﴾ نصب على الظرف، وقرئ: يتوفى - بالياء والتاء ..

و﴿يَضْرِبُونَ﴾ حال، وعن مجاهد: ﴿أَذْبَنَهُمْ﴾: أستاذهم ولكن الله كريم يكتي^(١)، وقيل: يضربون ما أقبل منه وما أدبر، والمراد به قتلى بدر^(٢). و﴿ذُوقُوا﴾ معطوف على ﴿يَضْرِبُونَ﴾ على إرادة القول، أي: ويقولون: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ بعد هذا في الآخرة. وقيل: كانت مع الملائكة مقامع من حديد كلما ضربوا بها التهبت النار في جراحاتهم^(٣).

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾: يحتمل أن يكون من كلام الله، ومن كلام الملائكة، و﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ﴾ خبره، ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ﴾ عطف عليه، أي: ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأن الله يعذب الكفار بالعدل، لأنه لا يظلم عباده في عقوبتهم. وقد بالغ في نفي الظلم عن نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ بِظُلْمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ
بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۖ
وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ
فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

الكاف في محل الرفع، أي: دأب هؤلاء مثل دأب ﴿ءَالٍ فِرْعَوْنَ﴾. ودأبهم: عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه، أي: داوموا عليه، و﴿كَفَرُوا﴾ تفسير لدأب آل

(١) تفسير الطبري ج ١٠: ١٧.

(٢) عن ابن عباس. تفسير الطبري ج ١٠: ١٧.

(٣) الكشف والبيان ج ٤: ٣٦٧.

فرعون.

و ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما حلّ بهم، أي: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب بسبب ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ لا يصحّ في حكمته أن يغيّر نعمته عند ﴿قَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا﴾ بهم من الحال، وعن السدي: (النعمة محمد ﷺ أنعم الله به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله إلى الأنصار)^(١).

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مكذبو الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.
﴿كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد. وفي قوله: ﴿بَايَعَتِ رَبَّهُمْ﴾ زيادة دلالة على كفران النعم. وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب.
﴿وَكُلُّهُمْ ظَالِمِينَ﴾ أي: وكل من غرقى آل فرعون وقتلى قريش كانوا ظالمين أنفسهم بكفرهم ومعاصيهم.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾
فَمَا تَتَّقِفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ
إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أصرّوا على الكفر فلا يتوقع منهم إيمان، وهم بنو قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ على أن لا يمالئوا عليه عدواً، فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدتهم فنكثوا ومالئوا عليه الأحزاب يوم الخندق.

(١) تفسير الطبري ج ١٠: ١٨.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين عاهدتهم من الذين كفروا، جعلهم شرّ الدواب لأن شرّ الناس الكفار، وشرّ الكفار المصرون منهم، وشرّ المصرين الذين ينقضون العهد.

﴿وَهُمْ لَا يَنْقُونَ﴾ أي: لا يخافون عاقبة الغدر، ولا يبالون ما فيه من العار والنار.

﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ﴾ أي: تصادفهم ﴿فِي الْحَرْبِ﴾، والمعنى: إن ظفرت بهم وأدركتهم ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ﴾ أي: ففرّق عن محاربتك ومناصبتك من وراءهم من الكفرة بقتلهم شرّ قتلة، حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد، اعتباراً بهم واتعاضاً بحالهم.

﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ ونكثاً للعهد ﴿فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: فاطرح إليهم العهد ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على طريق مقتصد مستو، وذلك بأن تخبرهم بنبد العهد إخباراً ظاهراً مكشوفاً، وتبين لهم أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تبدأهم بالقتال وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ فلا تخنهم بأن تناجزهم القتال من غير إعلامهم بالنبد، وقيل: معناه على استواء في العلم بنقض العهد. والجار والمجرور في موضع الحال، كأنه قيل: فانبد إليهم ثابتاً على طريق قصد سوي، أو حاصلين على استواء في العلم على أنها حال من النابذ والمنبوذ إليهم معاً.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا

فُظِّلُمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

﴿سَبَقُوا﴾ أي: فاتوا من أن يظفر بهم.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي: لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم. وقرئ: أنهم - بالفتح - بمعنى لأنهم، وكل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل، إلا أن المكسورة على طريقة الاستئناف والمفتوحة تعليل صريح. والمعنى: لا تحسبن يا محمد الكافرين قد فاتوك فإن الله يظفرك بهم ويظهرك عليهم، وفي الشواذ قراءة ابن محيصن^(١): لا يعجزون - بكسر النون -، وقرئ: ولا يحسبن - بالياء - على أن الفعل لـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، كأنه قيل: لا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا، فحذفت (أن)، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾^(٢)، أو على أن المعنى: ولا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا.

والقوة: كل ما يتقوى به في الحرب من العدد، والرباط: اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المrapطة، ويجوز أن يكون جمع رباط كفصال جمع فصيل.

﴿تُرْهِبُونَ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، يقال: أرهبته ورهبته، أي: تخيفون بما تعدونه ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني أهل مكة.

﴿وَالْآخَرِينَ﴾ أي: وترهبون كفاراً آخرين ﴿مِنْ﴾ دون هؤلاء ﴿لَا نَعْلَمُونَهُمْ﴾

(١) محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي مولا هم المكي المقرئ، كان له اختيار في القراءة خرج به عن إجماع أهل بلده فرغب الناس عن قراءته، قيل: إنه مات سنة ١٢٣ هـ وقيل ١٢٢ هـ. ينظر: غاية النهاية في طبقات القراء ج ٢: ١٦٧.

(٢) الروم: ٢٤.

لأنهم يصلّون ويصومون ويقولون: لا إله إلا الله، محمّد رسول الله ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾
لأنّه المّطلع على الأسرار ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ في الجهاد يوفر عليكم ثوابه ﴿وَأَنْتُمْ
لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون شيئاً منه.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ جنح له وإليه: مال، والسلم - بفتح السين وكسرهما -:
الصلح، يؤنث تأنيث نقيضها وهي الحرب، قال:

السّلم تأخذ منها ما رَضِيتَ بهِ والحَرْبُ يكفّيك من أنفاسها جُرْعٌ^(١)

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تخف من خديعتهم ومكرهم، فإن الله عاصمك
وكافيك من مكرهم.

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ
إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَتَأَيَّاهُ النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَتَأَيَّاهُ النَّبِيُّ حَرِضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ
إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا
فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ في الصلح بأن يقصدوا به دفع أصحابك عن

القتال حتى يقوى أمرهم فيدؤوكم بالقتال من غير استعداد منكم.

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: محسبك الله ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ﴾ أي: قواك ﴿بِنَصْرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين ينصرونك على أعدائك، يريد الأنصار وهم: الأوس
والخزرج.

﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ مَا أَلْفَتْ﴾ حتى صاروا متحابين متوآدين بعد ما كان
بينهم من النضاغن والتحارب ولم يكن لبغضائهم أمد، فأنساهم الله ذلك كله حتى
تصافوا وعادوا إخواناً.

﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لما أمكنك التأليف ﴿بِئْسَ قُلُوبُهُمْ﴾
وإزالة ضغائن الجاهلية عنهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بالإسلام.

﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ﴾ الواو بمعنى (مع)، وما بعده منصوب، لأن عطف الظاهر
المجروح على المكنى قبيح، والمعنى: كفاك وكفى متبعيك ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الله
ناصرًا، أو يكون في محلّ الرفع أي: كفاك الله وكفاك المؤمنون، وهذه الآية نزلت
بالبداء في غزوة بدر قبل القتال^(١).

والتحريض: المبالغة في الحث على الأمر، من الحررض وهو أن ينهكه المرض
حتى يشفى على الموت، وهذه عدة من الله بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا
عشرة أمثالهم من الكفار بتأييد الله.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أن الكفار جهلة يقاتلون على غير
احتساب ثواب كالبهائم.

(١) عن الكلبي. تفسير الماوردي ج ٢: ٣٣١.

وعن ابن جريج^(١): (كان عليهم أن لا يفرّوا^(٢)) ويثبت الواحد للعشرة^(٣). وكان رسول الله ﷺ بعث حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكباً، فلقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب، فثقل عليهم ذلك وضجّوا منه بعد مدة، فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنى^(٤). وقرئ: ضعفاً - بفتح الضاد وضمها - وضعفاء جمع ضعيف، وقرئ: يكن في الموضعين بالياء والتاء، والمراد بالضعف: الضعف في البدن، وقيل: في البصيرة والاستقامة في الدين، وكانوا متفاوتين في ذلك.

مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ
عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابُ
مَنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ
حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

الإثخان: كثرة القتل والمبالغة فيه، من قولهم: أثختته الجراحات حتى أثبتته، وأصله من الشخانة التي هي الغلظ والكثافة. والمعنى: ﴿مَا﴾ استقام ﴿لِنَبِيِّ﴾ وما صحّ له ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى﴾ يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله، ويعزّز الإسلام ويقويه بالاستيلاء والقهر، وكان هذا يوم بدر، فلما كثر المسلمون نزل: ﴿فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾^(٥). وروي: أنّ رسول الله ﷺ أتي بسبعين أسيراً فيهم العباس عمّه وعقيل بن أبي طالب، ولم يؤسر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ.

(١) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي الأموي مولاهم، ولد سنة نيف وسبعين، مات سنة ١٥٠ هـ. ينظر: طبقات المفسرين ج ١: ٣٥٢.

(٢) في أ، ج: ينفروا.

(٣) تفسير الطبري ج ١٠: ٢٧.

(٤) ينظر: مغازي الواقدي ج ١: ٩.

(٥) محمّد: ٤.

و﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ حطامها، سَمِي بذلك لأنه حدث قليل اللبث، يريد الفداء. والخطاب للمؤمنين الذين رغبوا في أخذ الفداء من الأسرى.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: تريدون عاجل الحظ من عرض الدنيا، والله يريد لكم ثواب الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلب أوليائه على أعدائه، ويتمكنون منهم قتلاً وأسراً ويطلق لهم الفداء، ولكنه ﴿حَكِيمٌ﴾ يؤخر ذلك وهم يعجلون.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: حكم منه ﴿سَبَقَ﴾ إثباته في اللوح بإباحة الغنائم لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا﴾ استحللتم قبل الإباحة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقيل: لولا كتاب من الله في القرآن أنه لا يعذبكم والنبي بين أظهركم.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ هذا إباحة للفداء لأنه من جملة الغنائم، وقيل: إنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها، فنزلت الآية^(١). ومعنى الفاء التسبيب، أي: قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم.

و﴿حَلَالًا﴾ نصب على الحال من المغنوم، أو صفة للمصدر، أي: أكلاً حلالاً.

يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

وقرئ: ﴿مِنَ الْأَسْرَىٰ﴾ وهو أقيس من الأسارى، لأن الأسير فاعل بمعنى مفعول، وذلك يجمع على فعلى نحو جرحى وقتلى، وقالوا: أسارى، تشبيهاً بـ(كسالى)، كما شبهوا (كسلى) بـ(أسرى).

﴿قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ﴾ أي: لمن في ملكتكم، فكأن أيديكم قابضة عليهم ﴿إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ خلوص عقيدة وصحة نية في الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء: إما أن يخلفكم أضعافه في الدنيا أو يثيبكم في الآخرة. وروي: أن النبي ﷺ قال للعباس: ((افد ابني أخويك)) عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: أتركني أتكفف قريشاً ما بقيت؟ قال: فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل، وقلت: إن حدث بي حدث فهو لك وللفضل وعبد الله وقثم؟ فقال العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي، قال: أشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله، وأنت عبده ورسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعت إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتباً في أمرك، فأما إذ أخبرتني بذلك فلا ريب. قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك: لي الآن عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم، وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي^(١).

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ نكت ما بايعوك عليه، ومنع ما ضمنوا من الفداء ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ بأن خرجوا إلى بدر وقاتلوا مع المشركين ﴿فَأَمْكَنَ﴾ الله ﴿مِنْهُمْ﴾ وسمكن منهم إن أعادوا الخيانة.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ
وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

﴿هَاجَرُوا﴾ أي: فارقوا أوطانهم وقومهم حباً لله ولرسوله، وهم المهاجرون
من مكة إلى المدينة.

﴿وَالَّذِينَ﴾ آوهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم هم الأنصار.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتولى بعضهم بعضاً في الميراث. وكان المهاجرون
والأنصار يتوارثون بالمؤاخاة الأولى حتى نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾. وقرئ: من ولايتهم - بالفتح والكسر، قال الزجاج: هي
بفتح الواو من النصرة والنسب، وبالكسر هي بمنزلة الإمارة^(١). والوجه في الآية
أنه شبه تولي بعضهم بعضاً بالصناعة والعمل، لأن كل ما كان من هذا الجنس
فمكسور كالصياغة والكتابة، وكأن الرجل بتوليه صاحبه يباشر أمراً ويزاول
عملاً.

﴿وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ﴾ أي: وإن طلب المؤمنون الذين لم يهاجروا منكم النصرة
لهم على الكفار ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ لهم ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وعهد،
فلا يجوز لكم نصرهم عليهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ معناه نهى المسلمين عن موالاته الكفار

(١) لسان العرب: مادة ولي.

ومعاونتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتولى بعضهم بعضاً.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إن لا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً حتى في التوارث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار تحصل ﴿فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ومفسدة كبيرة، لأن المسلمين ما لم يكونوا يداً واحدة على أهل الشرك كان الشرك ظاهراً، وتجراً أهله على أهل الإسلام ودعوهم إلى الكفر.

ثم عاد سبحانه إلى ذكر المهاجرين والأنصار وأثنى عليهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة والنصرة والانسلاخ من الأهل والمال لأجل الدين.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ يريد: اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ... الْآيَةُ﴾^(١).

﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ من جملتكم، وحكمهم حكمكم في وجوب موالاتهم ونصرتهم وإن تأخر إيمانهم وهجرتهم.

﴿وَأُولُوا الْقُرَابَاتِ أُولَىٰ﴾ وأولو القرابات أولى بالتوارث، بعضهم أحق بميراث بعض من غيرهم، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة.

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه، وقيل: في اللوح المحفوظ^(٢)، وقيل: في القرآن.

وفيه دلالة على أن من كان أقرب إلى الميت في النسب كان أولى بالميراث.

(١) الحشر: ١٠.

(٢) تفسير ابن عباس ج ٢: ١٧٧.

سورة التوبة

مدينة، وهي مائة وتسع وعشرون آية كوفي، ثلاثون بصري، عدّ البصري: ﴿بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وعن الصادق عليه السلام قال: ((الأنفال وبراءة واحدة))^(١)، وعن علي عليه السلام: ((لم ينزل (بسم الله الرحمن الرحيم) على رأس سورة براءة، لأنّ بسم الله للأمان والرحمة، ونزلت براءة لرفع الأمان ولل سيف))^(٢). وقيل: إنّ السورتين كانتا تدعيان القرينتين، وتعدّان السابعة من السبع الطوال^(٣).

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ
اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ
الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ
وَنَشَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ

(١) تفسير العياشي ج ٢: ٧٣.

(٢) الدر المنثور ج ٣: ٢٠٩.

(٣) الدر المنثور ج ٣: ٢٠٨.

الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا
إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

﴿بَرَاءَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، و﴿مَنْ﴾ لا ابتداء الغاية. والمعنى: هذه براءة واصلة ﴿مَنْ اللَّهَ وَرُسُلِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾، ويجوز أن تكون ﴿بَرَاءَةٌ﴾ مبتدأ وإن كانت نكرة لتخصصها بصفتها، والخبر ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ كما تقول: رجل من قريش في الدار. والمراد: إن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ وأنَّ عهدهم منبوذ إليهم.

﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هذا خطاب للمشرِكين، أمروا أن يسبحوا في الأرض أربعة أشهر وهي الأشهر الحرم آمين أين شاءوا لا يتعرض لهم، وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها. وقيل: إنَّ (براءة) نزلت في شوال سنة تسع من الهجرة والأشهر الأربعة: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم^(١)، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول، وعشر من شهر ربيع الآخر^(٢)، وكانت حرماً لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم، وهو الأصح.

وأجمع المفسرون على أنَّ رسول الله ﷺ حين نزلت (براءة) دفعها إلى أبي بكر ثم أخذها منه ودفعها إلى عليٍّ عليه السلام، وإن اختلفوا في تفصيله، وقد شرحناه في الكتاب الكبير^(٣). وعن الباقر عليه السلام قال: ((خطب عليٌّ الناس يوم النحر واختلط سيفه فقال: لا يطوفنَّ بالبيت عريان، ولا يحجنَّ البيت مشرك، ومن كانت له مدَّة فهو

(١) عن الزهري. تفسير الطبري ج ١٠: ٤٤.

(٢) عن الضحاك وغيره. تفسير الطبري ج ١٠: ٤٣.

(٣) مجمع البيان ٥-٦: ٣، وانظر الدر المنثور ج ٣: ٢٠٩ - ٢١٠.

تفسير سورة التوبة/ الآيات ١-٤ . . . ٣٠٧

إلى مدّته، ومن لم يكن له مدّة فمدّته أربعة أشهر، وقرأ عليهم سورة براءة^(١).
وقيل: إنّه قرأ ثلاث عشرة آية من أوّل براءة^(٢)، وقيل: ثلاثين أو أربعين آية^(٣).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: لا تفوتونه وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي
الْكَافِرِينَ﴾ أي: مذهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالعذاب.

﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ﴾ الوجه في رفعه ما ذكرناه في ﴿بَرَاءَةٌ﴾ بعينه، ثمّ الجملة
معطوفة على مثلها، وهو بمعنى الإيذان كما أنّ الأمان والعطاء بمعنى الإيذان
والإعطاء. والجملة الأولى إخبار بثبوت البراءة، والجملة الثانية إخبار بوجوب
الإعلام بما ثبت من البراءة الواصلة من الله ورسوله إلى المعاهدين والناكثين لجميع
الناس، من عاهد منهم ومن لم يعاهد.

﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ يوم عرفة، وقيل: يوم النحر^(٤)، لأنّ فيه تمام الحج
ومعظم أفعاله. وروي أنّ عليّاً عليه السلام أخذ رجل بلجام دابته فقال: ما الحج الأكبر؟
فقال: ((هذا، خلّ عن دابتي))^(٥).

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ﴾ حذفت الباء تخفيفاً. وقرئ في الشواذ: إنّ الله - بالكسر -
لأنّ الأذان في معنى القول ﴿وَرَسُولُهُ﴾ عطف على الضمير في ﴿بَرِيءٌ﴾ أو على
محلّ (إن) المكسورة واسمها. وقرئ بالنصب عطفاً على اسم (أنّ)، أو لأنّ الواو
بمعنى (مع).

(١) تفسير العياشي ج ٢: ٧٤. سيرة ابن هشام ج ٤: ٢٥٦.

(٢) عن مجاهد. الكشف ج ٢: ٢٤٣.

(٣) عن السدي. تاريخ الطبري ج ٣: ١٥٤.

(٤) عن الباقر عليه السلام تفسير العياشي ج ٢: ٧٥، وروي مرفوعاً تفسير الطبري ج ١٠: ٥٣.

(٥) تفسير الطبري ج ١٠: ٥٠.

﴿إِنْ بُنْتُمْ﴾ من الكفر والغدر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإقامة عليهما ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ﴾ غير سابقين الله، ولا فائتين بأسه وعذابه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لأن الاستثناء بمعنى الاستدراك. والمعنى: ولكن الذين لم ينكثوا ولم ينقصوا من شرط العهد ﴿شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى﴾ انقضاء ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ التي وقع العهد إليها، ولا تجعلوا الوفي كالغادر.

فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
وَخُذُوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى
يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

أي: ﴿إِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ﴾ التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا في الأرض ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فضعوا السيف فيهم حيث كانوا وأين وجدوا، في حل أو حرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: إيسروهم، والأخذ: الأسير.

﴿وَأَحْضَرُوهُمْ﴾ أي: قيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد، وقيل: حولوا بينهم وبين المسجد الحرام^(١).

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي: كل ممر وطريق ترصدونهم به،

(١) معاني القرآن للفراء ج ١: ٤٢١.

وانتصب على الظرف كقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١).

﴿فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ﴾ أي: دعوهم يتصرفون في البلاد، أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم، أو دعوهم يحجّوا ويدخلوا المسجد الحرام ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف من كفرهم وغدرهم.

﴿أَحَدٌ﴾ مرفوع بفعل الشرط، وهو مضمّر يفسّره الظاهر، تقديره: وإن استجارك [أحد استجارك]^(٢). والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه فاستأمنك لسمع ما تدعو إليه من القرآن والدين فآمنه ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ويتدبّره، فإنّ معظم الأدلة فيه ﴿ثُمَّ أبلغه مأمنه﴾ بعد ذلك، يعني داره التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الأمر بالإجارة بسبب ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ جهلة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ الإيما فآمنهم حتى يسمعو ويعلموا.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾
كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ صحيح، ومحال أن يثبت لهم عهد مع إضمارهم الغدر والنكث، فلا تطمعوا في ذلك، ولكن ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ منهم

(١) الأعراف: ١٦.

(٢) ساقطة من ج.

﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ولم يظهر منهم نكت كبنى كنانة وبني ضمرة، فتربصوا أمرهم ولا تقتاتلوهم.

﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ﴾ على العهد ﴿فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على مثله.

﴿كَيْفَ﴾ تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد، وحذف الفعل لكونه معلوماً، أي: ﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهد وحالهم أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ ويطفروا بكم بعد ما سبق لهم من الأيمان والمواثيق ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا يحفظوا فيكم قرابة ولا عهداً، قال حسان:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِيَّاكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَالِ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ^(١)

وقيل: إِيَّا: حلفاً^(٢)، وقيل: إِيَّا: إلهاً^(٣).

﴿يُرْضُونَكُمْ﴾ كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الباطن الظاهر.

وإباء القلوب: مخالفة ما فيها من الأضغان لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل.

﴿وَأَكْزَرُهُمْ فَدِيقُونَ﴾ متمردون في الكفر والشرك، لا مروءة تردعهم كما

توجد في بعض الكفار من التعفف عما يثلم العرض والتفادي عن النكت.

أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٢١٨.

(٢) عن قتادة. تفسير الطبري ج ١٠: ٦٠.

(٣) عن مجاهد. تفسير الطبري ج ١٠: ٥٩.

وَأَتُوا الزَّكَاةَ فَاحْذَرُوا فِي الَّذِينَ أَنْفَصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا
فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ
وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

استبدلوا ﴿رِغَايَةِ اللَّهِ﴾ أي: بالقرآن والإسلام ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو اتباع
الأنواء والشهوات ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فعدلوا عنه وصرفوا غيرهم.
و﴿الْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون الغاية في الظلم والكفر.
﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر ونقض العهد، فهم إخوانكم حذف المبتدأ.
﴿وَأَنْفَصِلُ الْآيَاتِ﴾ ونبينها. وهذا اعتراض، فكأنه قيل: ومن تأمل تفصيلها
فهو العالم.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا﴾ أي: نقضوا عهودهم بعد أن عقدوها ﴿وَطَعَنُوا فِي
دِينِكُمْ﴾ وعابوه ﴿فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: فقاتلوهم، وضع الظاهر
موضع المضمرة إشعاراً بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك تمرّداً وطرحاً لعادات
الكرام الأوفياء من العرب.

ثم آمنوا ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ وصاروا إخواناً للمسلمين
﴿فِي الدِّينِ﴾، ثم رجعوا فارتدّوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان
وطعنوا في دين الله، فهم رؤساء الكفر والضلالة والمتقدمون فيه. وعن حذيفة:

((لم يأت أهل هذه الآية بعد))^(١). وقرأ علي عليه السلام هذه الآية يوم الجمل، ثم قال: ((أما والله لقد عهد إلي رسول الله ﷺ وقال لي: يا علي لتقاتلن الفئة الناكثة والفئة الباغية والفئة المارقة))^(٢).

﴿لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ أي: لا عهود لهم يعني: لا يحفظونها. وقرئ بكسر الهمزة، أي: فلا يعطون الأمان بعد النكث والردة، أو لا إسلام لهم ولا إيمان على الحقيقة، ولا اعتبار بما أظهروه من الإيمان.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْا﴾ يتعلّق بـ ﴿فَنِلُوا﴾ أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم أن ينتهوا عما هم عليه، وهذا من غاية كرمه سبحانه وفضله.

﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ﴾ دخلت الهمزة للتقرير، ومعناه: الحضّ على المقاتلة.

﴿تَكْثُرُوا أَيْمَنَهُمْ﴾ التي عقدوها ﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة حين تشاوروا في أمره، حتى أذن الله له في الهجرة فخرج بنفسه ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ﴾ بالمقاتلة - والبادئ أظلم - فما يمنعكم أن تقاتلوهم بمثله؟!.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ تقريع بالخشية منهم وتوبيخ عليها ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ فقاتلوا أعداءه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن المؤمن لا يخشى إلا الله.

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ

(١) تفسير الطبري ج ١٠: ٦٣.

(٢) تفسير العياشي ج ٢: ٧٨.

يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

وَبَخَّهِمْ بِتَرْكِ الْقِتَالِ، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِالْأَمْرِ بِالْقِتَالِ فَقَالَ: ﴿قَتِلُوهُمْ﴾، ثُمَّ وَعَدَهُمْ أَنَّهُ ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾ بِأَيْدِيهِمْ قِتْلًا، وَيُخْزِيهِمْ أَسْرًا، وَيَنْصِرُهُمْ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وَيُشْفِي ﴿صُدُورَ﴾ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ خِزَاعَةٌ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: (هُمْ بَطُونٌ مِنَ الْيَمَنِ قَدِمُوا مَكَّةَ وَأَسْلَمُوا فَلَقُوا مِنْهُمْ أَذَى، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَبْشُرُوا فَإِنَّ الْفَرْجَ قَرِيبٌ)))^(١).

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لَمَّا لَقُوا مِنْهُمْ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ هَذِهِ الْمَوَاعِيدَ كُلَّهَا لَهُمْ، فَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نَبْوَةِ نَبِيِّهِ ﷺ.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ اسْتِنَافَ كَلَامٍ، وَفِيهِ إِخْبَارٌ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ مَكَّةَ سَيَتُوبُ عَنْ كُفْرِهِ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ - أَيْضًا - فَقَدْ أَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يَعْلَمُ مَا سَيَكُونُ كَمَا يَعْلَمُ مَا قَدْ كَانَ ﴿حَكِيمٌ﴾ لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا فِيهِ الْحِكْمَةُ.

﴿أَمْرٌ﴾ مَنْقُطَعَةٌ فِي الْهِمَزَةِ مَعْنَى التَّوْبِخِ، يَعْنِي: أَنَّكُمْ لَا تَتْرَكُونَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُمَيِّزَ الْمَخْلُصُونَ مِنْكُمْ وَهُمْ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَوَجْهَ اللَّهِ، وَلَمْ يَتَّخِذُوا ﴿وَلِجَنَّةٍ﴾ أَي: بَطَانَةً وَأَوْلِيَاءَ يُوَالُونَهُمْ وَيَفْشُونَ إِلَيْهِمْ أَسْرَارَهُمْ.

و﴿لَمَّا﴾ مَعْنَاهَا التَّوَقُّعُ، وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ تَمَيِّزَ ذَلِكَ وَإِضَاحَهُ مُتَوَقَّعٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ عَظْفٌ عَلَى ﴿جَهْدُوا﴾ فَهُوَ دَاخِلٌ - أَيْضًا - فِي الصَّلَةِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالْمَخْلُصِينَ غَيْرَ الْمُتَّخِذِينَ وَلِجَنَّةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

والوليعة: فعيلة من ولج، كالدخيلة من دخل.

والمراد بنفي العلم بنفي المعلوم، كما يقال: ما علم الله ما قيل في فلان، أي: ما وجد ذلك منه.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى
 أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ
 خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ
 فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

﴿مَا﴾ صَحَّ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وما استقام لهم ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾
 يعني: عمارة المسجد الحرام، وإنَّما جمع لأنَّ كل موضع منه مسجد، أو لأنَّه قبلة
 المساجد كلها فعامره كعامر جميع المساجد، أو أريد جنس المساجد فيدخل فيه ما
 هو صدرها ومقدّمها. وقرئ: مسجد الله.

﴿شَاهِدِينَ﴾ حال من الواو في ﴿يَعْمُرُوا﴾، ومعنى شهادتهم
 ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾: ظهور كفرهم، وأنَّهم نصبوا أصنامهم حول البيت
 وطافوا حول البيت عراة، وكلما طافوا شوطاً سجدوا لها، وقيل: هو قولهم: لبيك
 لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. وروي: أنَّ المهاجرين والأنصار
 عيَّروا أسارى بدر، ووبَّخ عليَّ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال
 العباس: تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقالوا: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم،
 إنَّنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجاج ونفكَّ العاني، فنزلت^(١).
 ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ التي هي العمارة والسقاية والحجبة وفك

العنة.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾ أي: إنما يستقيم عمارة هؤلاء، والعمارة تتناول بناءها، ورم ما استرم منها، وكنسها وتنظيفها، وتنويرها بالمصاييح، وزيارتها للعبادة والذكر - ومن الذكر درس العلم بل هو أفضله وأجله - وصيانتها عن فضول الكلام. وفي الحديث: ((يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد يقعدون فيها حلقاتاً، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة))^(١).

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يعني: الخشية والتقوى في أبواب الدين، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره.

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ
هُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

التقدير: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ أهل ﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ] ويعضده قراءة من قرأ: سقاية الحاج وعمرة المسجد الحرام^(٢)، وهو إنكار تشبيه المشركين بالمسلمين، وتشبيه أعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة وأن يسوَّى بينهم، وجعلت تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر.

(١) معجم الطبراني الكبير ج ١٠: ١٩٩، تنبيه الخواطر: ٧٧ باختلاف يسير.

(٢) ساقطة من ج.

أي: هم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ من غيرهم من المؤمنين الذين لم يفعلوا هذه الأشياء ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ المختصون بالفوز.

ونكر المبشر به من الرحمة والرضوان والنعيم المقيم، لوقوع ذلك وراء صفة الواصف وتعريف المعرف.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ
إِنْ أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ
تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ
اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

لما أمر المؤمنون بالهجرة وأرادوا أن يهاجروا، فمنهم من تعلقت به زوجته، ومنهم من تعلق به أبواه وأولاده، فكانوا يمنعونهم من الهجرة فيتركونها لأجلهم، فيبين سبحانه أن أمر الدين مقدم على النسب، وإذا وجب قطع قرابة الوالدين والولد فالأجنبي أولى.

﴿إِنْ أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ أي: اختاروه ﴿عَلَى الْإِيمَانِ﴾. وفي الحديث: ((لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يحب في الله ويبغض في الله))^(١). وقرئ: عشيرتكم على الواحد.

﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ وعيد، عن الحسن: (بعقوبة عاجلة أو

(١) معاني الأخبار: ٣٧٩، سنن النسائي ج ٨: ٩٤ بالمعنى.

آجلة^(١). وهذه آية شديدة كلف المؤمن فيها أن يتجرد من الآباء والأبناء والعشائر وجميع حظوظ الدنيا لأجل الدين.

اللهم وفقنا لما يوافق رضاك حتى نحبّ فيك الأبعدين ونبغض فيك الأقربين.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ
إِذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا
وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ
مُذَبِّيرٍ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

﴿مَوَاطِنَ﴾: الحرب: مقاماتها ومواقفها.

و﴿حُنَيْنٍ﴾: واد بين مكة والطائف، كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً، منهم عشرة آلاف حضروا فتح مكة، وقد انضم إليهم من الطلقاء ألفان؛ وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف في من انضوى إليهم من أمداد العرب، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، فسألت مقالته رسول الله ﷺ، وقيل: إن قائلها أبو بكر^(٢)، وذلك قوله: ﴿أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ﴾. فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة فانهمزوا حتى بلغ فلهم مكة، وبقي رسول الله ﷺ في مركزه لا يتحلل، وبقي علي^(٣) ومعه

(١) تفسير الماوردي ج ٢: ٣٤٩.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣: ٨٩٠.

الراية يقاتلهم، والعباس بن عبد المطلب أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ عن يمينه وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره في تسعة من بني هاشم وعاشرهم أيمن بن أم أيمن، وقتل يومئذ، وقال ﷺ للعباس - وكان صبيّاً^(١) -: صح بالناس، فنادى: يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله، فكروا وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم البيضاء على خيول بلق، فنظر رسول الله إلى قتال المسلمين فقال: ((الآن حمي الوطيس، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)) ونزل النصر من عند الله وانهمزمت هوازن^(٢).

قوله: ﴿بِمَا رَحَّبْتَ﴾: (ما) مصدرية، والباء بمعنى (مع)، أي: مع رحبها، والجار والمجرور في موضع الحال، والمعنى: لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهربكم إليه لفرط رعبكم، فكأنها ضاقت عليكم ﴿ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدِيرِينَ﴾ ثم انهمزمت. ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين ثبتوا معه ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري وسلب الأموال.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ أي: يسلم من بعد ذلك ناس منهم، وقيل: إنه سبي يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والبقر ما لا يحصى^(٣).

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً

(١) صبيّاً: شديد الصوت. (الصحيح: مادة صوت)

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام ج ٤: ٨٠ وما بعدها.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤: ١٣١.

فَسَوْفَ يُعْزِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

النَّجَسُ مصدر، ومعناه: ذو نجس، لأنَّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، أو جعلوا كأنَّهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها، وعن ابن عباس: (أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير)^(١)، وعن الحسن: (من صافح مشركاً توضاً)^(٢). وعن الصادق عليه السلام: ((من صافح الكافر ويده رطبة غسل يده، وإلا مسحها بالحائط))^(٣).

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فلا يحجُّوا ولا يعتمرُوا كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿بَعْدَ﴾ حج ﴿عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو عام تسع من الهجرة. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً بسبب منع المشركين من الحج، وما كان لكم في قدومهم عليكم من الإرفاق والمكاسب ﴿فَسَوْفَ يُعْزِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه وتفضله على وجه آخر، فأسلم أهل جدة وصنعاء وجرش وتبالة فحملوا الطعام إلى مكة، فكان ذلك أعود عليهم، وأرسل السماء عليهم مدراراً أكثر بها خيرهم.

قَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

عن ابن عباس: (ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف وقال: من أين تأكلون؟

(١) تفسير الطبري ج ١٠: ٧٤.

(٢) تفسير الطبري ج ١٠: ٧٤.

(٣) لم أعثر عليه عنهم عليه السلام، وإنما هو معنى عبارة الشيخ في تهذيب الأحكام ج ١: ٢٦٢.

فأمرهم الله تعالى بقتال أهل الكتاب، وأغناهم بالجزية وبفتح البلاد والغنائم^(١).

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان لـ ﴿الَّذِينَ﴾ مع ما في حيّزه، نفى عن اليهود والنصارى الإيمان بالله، لأنهم أضافوا إليه ما لا يليق به، ونفى عنهم الإيمان ﴿بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنهم في ذلك على خلاف ما ينبغي، ونفى عنهم تحريم ﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ لأنهم لا يحرمون ما حرّم في الكتاب والسنة.

وسمّيت الجزية: جزية، لأنها قطعة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي يقضوه.

﴿عَنْ يَدٍ﴾: إما أن يراد يد المعطي، أو يد الآخذ، فمعناه على الأوّل: حتى يعطوها عن يد مؤاتية غير ممتنعة، كما يقال: أعطى بيده: إذا أصحب وانقاد، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة ولا مبعوثاً على يد أحد. ومعناه على إرادة يد الآخذ: حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية، أو عن إنعام عليهم.

﴿وَهُمْ صَغُرُونَ﴾ أي: تؤخذ منهم الجزية على الصغار والذل، وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم والآخذ جالس، وأن يؤخذ بتليبيه^(٢) ويقال له: أدها.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ
﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

(١) الدر المنثور ج ٣: ٢٢٧.

(٢) لَبَّيْتُ الرجل تليبياً، إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره في الخصومة ثم جررته. (الصحاح: مادة لب)

إِلَهًا وَحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، وهو اسم أعجمي، ولعجمته وتعريفه امتنع من الصرف، ومن نونه جعله عربياً. وإنما قال ذلك جماعة من اليهود ولم يقله كلهم. ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ معناه: إنهم اخترعوه بأفواههم لم يأتهم به كتاب، وما لهم به حجة ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يضاهي قولهم قولهم، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. والمعنى: إن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدماهم، يريد أنه كفر قديم فيهم، أو يضاهي قولهم قول المشركين: إن الملائكة بنات الله. وقرئ: يضاهئون - بالهمزة - من قولهم: امرأة ضهياً على فَعِيل، وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض.

﴿قَالَهُمْ اللَّهُ﴾ أي: لعنهم ﴿أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق. ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ بأن أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما حلله، كما يطاع الأرباب في أوامرهم ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أهلوه للعبادة حين جعلوه ابناً لله.

﴿وَمَا أُمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَحِدًا﴾ أمرتهم بذلك أدلة العقل والنصوص في التوراة والإنجيل.

﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن الإشراك واستبعاد له.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ مثل سبحانه حالهم في طلبهم إبطال نبوة محمد ﷺ بتكذيبه، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم، يريد الله أن يبلغه الغاية القصوى من الإضاءة والإنارة ليطفئه بنفخه.

﴿يُظْهِرُهُ﴾ أي: ليظهر الرسول على أهل الأديان كلهم، أو ليظهر دين الحق على كل دين.

وقد جرى (أبي) مجرى لم يرد، ولذلك قابل ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾ بقوله: ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ﴾، فكأنه قال: ولا يريد الله إلا أن يتم نوره.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي
نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا
مَا كُنْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

أكل المال ﴿بِالْبَاطِلِ﴾: عبارة عن أخذه وتناوله من الجهة التي يحرم منها أخذه. والمعنى: إنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام وفي تخفيف الشرائع عن عوامهم.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان، ويحتمل أن يكون المراد به المسلمين الكانزين غير المنفقين، قرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى.

وعنى بترك الإنفاق في سبيل الله: منع الزكاة. وفي الحديث: ((ما أدّى زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً))^(١).
﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا﴾ الضمير يرجع إلى المعنى، لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية دنائير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾^(٢)، وقيل: معناه: ولا ينفقونها والذهب، كما أن معنى قوله:

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ^(٣)

فإني بها لغريب وقيار كذلك.

وإنما خصّ الذهب والفضة من بين الأموال بالذكر، لأنّها قانون التمول وأثمان الأشياء، ولا يكتزهما إلا من فضلاً عن حاجته.

﴿يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يوقد على الكنوز أو على الذهب والفضة حتى تصير ناراً ﴿فَتَكْوَى بِهَا﴾ أي: بتلك الكنوز المحماة ﴿جِبَاهُهُمْ وَجُؤُومُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ خصّت هذه الأعضاء لأنهم لم يطلبوا بترك الإنفاق إلا الأغراض الدنيوية، من وجاهة عند الناس، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً، ومن أكل طيبات يتصلعون منها فينفخون جنوبهم، ومن لبس ثياب ناعمة يطرحونها على ظهورهم، وقيل: لأنهم كانوا يعبسون وجوههم للفقير ويولونه جنوبهم في المجالس وظهورهم^(٤).

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ على إرادة القول.

(١) أمالي الشيخ الطوسي ج ٢: ١٣٣، سنن البيهقي الكبرى ج ٤: ٨٣.

(٢) الحجرات: ٩.

(٣) البيت لضائبى بن حارث البرجمي. الأصمعيات: ١٨٤، وصدّره: ومن يك امسى بالمدينة رحله.

(٤) عن أبي بكر الوراق. معالم التنزيل ج ٢: ٨٠.

﴿لَأَنْفُسِكُمْ﴾ لانتفاع أنفسكم ﴿فَذُوقُوا﴾ وبال الذي كنتم تكتزونونه، أو وبال كونكم كانزين.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، أو فيما أثبتته من حكمه ورآه حكمة وصواباً.

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثة سرد: ذوا القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وواحد فرد وهو رجب، ومنه قوله صلوات الله عليه في خطبته في حجة الوداع: ((ألا إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم))^(١). والمعنى: رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه، وعاد الحج في ذي الحجة، وبطل النسيء الذي كان في الجاهلية.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ يعني: إنَّ تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثته منهما، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم، ويحرمون القتال فيها، حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجه. وسَمُوا رجباً: الأصم، ومنصل الأسنة حتى أحدثوا النسيء غيروا. وقيل: ذلك الحساب القيم لا ما أحدثوه من النسيء.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بأن تجعلوا حرامها حلالاً.

﴿كَافَّةً﴾ حال من الفاعل أو المفعول.

﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصرهم، حثهم على التقوى بضمان النصرة لأهلها.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ
عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا
مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿النَّسِيءُ﴾ تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب
حروب، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شقَّ عليهم ترك المحاربة، فكانوا
يحْلُونَهُ ويحرِّمون مكانه شهراً آخر، وذلك قوله: ﴿لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾
أي: ليوافقوا العدة التي هي الأربعة ولا يخالفوها، وقد خالفوا تخصيص الأشهر
الحرم بالتحريم، وربما زادوا في عدة الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر شهراً ليتسع لهم
الوقت، ولذلك قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ يعني: من غير
زيادة زادوها.

والضمير في ﴿يُحْلُونَهُ﴾ و﴿يُحَرِّمُونَهُ﴾ لـ ﴿النَّسِيءِ﴾ أي: إذا أحلوا
شهراً من الأشهر الحرم ﴿عَامًا﴾ رجعوا فحرَّموه في العام القابل.

وقرئ: ﴿يُضَلُّ﴾ على البناء للمفعول، وقرئ: يُضِلُّ، على أنَّ الفعل لله
تعالى، ويَضِلُّ قراءة الأكثرين. وقرئ: النسيء - بالتشديد - وهو تخفيف الهمزة في
النسيء، وعن الصادق عليه السلام: النسيء على وزن الهدي، وهو على إبدال الياء من الهمزة،
وهو مصدر نساء: إذا أخره، يقال: نساء نساء ونسيئاً نحو مساً ومسيساً.

﴿فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ معناه: فيحلوا بمواطاة العدة وحدها ﴿مَا حَرَّمَ
اللَّهُ﴾ من القتال.

﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ خذ لهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة
﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يلفظ بهم بل يخذلهم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَنَّا قَاتَلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا
نَفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا
تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

أصله: تقاتلتم، فأدغمت التاء في التاء ثم أدخلت همزة الوصل، أي: تباطأتم،
وَضَمَّنَ معنى الميل فعدي بـ ﴿إِلَى﴾. والمعنى: ملتم إلى الدنيا ولذاتها، وكرهتم
مشاق السفر، ونحوه: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾^(١)، وقيل: ملتم إلى الإقامة
بأرضكم ودياركم^(٢). وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من
الطائف، استنفروا في وقت قحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق ذلك
عليهم، وقيل: إنه صلوات الله عليه ما خرج في غزوة إلا ورى عنها غيرها إلا في
غزوة تبوك، ليستعد الناس تمام العدة^(٣).

﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ بدل الآخرة، ونحوه: ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً﴾^(٤).

﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي﴾ جنب ﴿الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿إِلَّا نَفِرُوا﴾ سخط عظيم على المتأقلين، حيث هددهم بعذاب عظيم

(١) الأعراف: ١٧٦.

(٢) تفسير الطبري ج ١٠: ٩٤.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤: ١٥٩.

(٤) الزخرف: ٦٠.

مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ﴿وَيَسْتَبْدِلُ﴾ بهم ﴿قَوْمًا﴾ آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرته دينه، لا يؤثر ثقلهم فيها ﴿شَيْئًا﴾. وقيل: الضمير للنبي ﷺ^(١)، أي: لا تضرّوه شيئاً لأن الله وعد أن يعصمه من الناس ولا يخذله بل ينصره، ووعد الله كائن لا محالة.

إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
ثَانِيكًا أَتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا
تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ
وَأَيْكَدُهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ
كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

أي: إن تركتم نصرته فإن الله قد أوجب له النصره، وجعله منصوراً حين لم يكن معه إلا رجل واحد، فلن يخذله من بعد.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أسند الإخراج إلى الكفار كما في قوله: ﴿مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾^(٢)، لأنهم حين همّوا بإخراجه أذن الله له في الخروج عنهم، فكأنهم أخرجوه.

﴿ثَانِيكًا أَتَيْنِ﴾ أحد اثنين كقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾^(٣)، وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر. وانتصابه على الحال، و﴿إِذْ هُمَا﴾ بدل من ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾، و﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان. و﴿الْغَارِ﴾: الثقب العظيم في الجبل، وهو هاهنا غار ثور،

(١) معاني القرآن وإعرابه ج ٢: ٤٤٨.

(٢) محمد: ١٣.

(٣) المائدة: ٧٣.

جبل في يمنى مكة على مسيرة ساعة.

﴿لَا تَحْزَنْ﴾ أي: لا تحف ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ مطلع علينا وعالم بحالنا يحفظنا وينصرنا. ولما دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه، وقال رسول الله ﷺ: ((اللهم أعم أبصارهم)) فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفتنون، أخذ الله بأبصارهم عنه^(١).

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قرأ الصادق عليه السلام: على رسوله. وسكينة: ما ألقى في قلبه من الأمانة التي سكن إليها، وأيقن أنهم لا يصلون إليه. والجنود: الملائكة يوم بدر والأحزاب وحنين، أو ذلك اليوم صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه.

و﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دعوتهم إلى الكفر و﴿كَلِمَةَ اللَّهِ﴾ دعوته إلى الإسلام، وقرئ: وَكَلِمَةَ اللَّهِ - بالنصب - و﴿هَـ﴾ فصل، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلو، وأنها المختصة به دون سائر الكلم.

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

﴿خِفَافًا﴾ في النفور لنشاطكم له ﴿وَّثِقَالًا﴾ عنه لشقته عليكم، أو

(١) انظر قصة الهجرة السيرة الحلبية ج ٢: ٤٤ وما بعدها.

﴿خَفَافًا﴾ من السلاح ﴿وَثِقَالًا﴾ منه، أو ﴿خَفَافًا﴾ لقلّة عيالكم ﴿وَثِقَالًا﴾ لكثرتهم، أو ركبانا ومشاة، أو شباباً وشيوخاً، أو صحاحاً ومراضاً. عن ابن عباس: (نسخت بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾^(١)^(٢)).

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة.

والعرض: ما عرض لك من منافع الدنيا. والمعنى: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دعوا إليه غنماً ﴿قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: وسطاً مقارباً ﴿لَا تَبْعُوكُ﴾. و﴿الشُّقَّةُ﴾: المسافة الشاقة.

وسيحلف المتخلفون عند رجوعك من غزوة تبوك ﴿بِاللَّهِ﴾ يقولون: ﴿لَوْ﴾ **أَسْتَطَعْنَا**. وقوله: ﴿لَخَرَجْنَا﴾ سدّ مسدّ جواب (لو) وجواب القسم جميعاً، والإخبار بما سوف يكون بعد قفوله من حلفهم واعتذارهم، وقد كان من جملة المعجزات، والمراد بـ﴿لَوْ أَسْتَطَعْنَا﴾: استطاعة العدة، أو استطاعة الأبدان كأئهم تمارضوا.

﴿يُمْكِنُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بدل من ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾، أو حال بمعنى: مهلكين، أي: يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ هذا من لطيف المعاتبة، بدأه بالعفو قبل العتاب، ويجوز العتاب من الله فيما غيره منه أولى لاسيما للأنبياء.

ولا يصحّ ما قاله جار الله: (إنّ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كناية عن الجناية)^(٣).

(١) التوبة: ٩١.

(٢) الكشف ج ٢: ٢٧٣.

(٣) الكشف ج ٢: ٢٧٤.

حاشا سيّد الأنبياء وخير بني حواء من أن ينسب إليه جناية.

لَا يَسْتَعِذُّنَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ
يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا
يَسْتَعِذُّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ
قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا
الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ
فَتَبَطَّوهُمْ وَقِيلَ أَفَعَدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا
فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ بَلْ يُبْغُونَكُمْ
الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ
ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ
وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا ﴿٤٨﴾

أي: ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾، أو كراهة أن
يجاهدوا.

﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَكَ﴾ المنافقون.

﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ عبارة عن التحير، لأن التردد صفة المتحير كما أن الثبات
صفة المستبصر.

﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ خروجهم إلى الغزو لعلمه بأنهم لو خرجوا
لكانوا يمشون بالنميمة من المسلمين.

﴿فَتَبَطَّوهُمْ﴾ أي: بطأ بهم وكسلهم وخذلهم لما علم منهم من الفساد. وإنما
وقع الاستدراك بـ (لكن) لأن قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ يعطي معنى النفي،
فكانه قيل: لم يخرجوا ولكن تبطّوا عن الخروج، لأن الله كره انبعاثهم فضعف

رغبتهم في الانبعاث.

﴿وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ﴾ النساء والصبيان، وهو إذن رسول الله ﷺ لهم في القعود. وفي هذا دلالة على أن إذنه ﷺ لهم غير قبيح، وإن كان الأولى أن لا يأذن ليظهر للناس نفاقهم.

ثم بين سبحانه وجه الحكمة في تشييطهم عن الخروج فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾ أي: لو خرج هؤلاء معكم إلى الجهاد ﴿مَا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: فساداً وشرّاً، وتقديره: ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً.

﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي: ولسعوا بينكم بالتفريق والنائم وإفساد ذات البين، يقال: وضع البعير وضعا: إذا أسرع، وأوضعتة أنا، والمعنى: ولأوضعوا ركائبهم بينكم، والمراد: الإسراع بالفساد، لأنّ الراكب أسرع من الماشي. ﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يحاولون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نياتكم في غزواتكم.

﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ أي: عيون نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون قول المنافقين ويقبلونه ويطيعونهم، يريد من كان ضعيف الإيمان من جملة المسلمين.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ المصّرّين على الفساد.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ الفتنه: اسم يقع على كل شرّ وفساد، أي: نصبوا لك الغوائل وسعوا في تشيت شملك، وعن سعيد بن جبیر: (وقفوا لرسول الله ﷺ في غزوة تبوك على الشية ليلة العقبة ليفتكوا به وهم اثنا عشر رجلاً^(١)).

(١) لم أعثر عليه عن ابن جبیر وفي الكشف ج ٢: ٢٧٧ عن ابن جريج.

﴿وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: ودبروا لك الحيل والمكائد، واحتالوا في إبطال أمرك ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو تأييدك ونصرتك ﴿وَوَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وغلب دينه وعلا أهله. ﴿وَهُمْ كَرِهُوا﴾ في موضع الحال.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِّي وَلَا نَفْتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾
إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ
يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ
﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا
إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ
بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا فَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ
مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِّي﴾ في القعود عن الجهاد ﴿وَلَا نَفْتِيَّ﴾ ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأذن لي، فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت، وقيل: هو الجد بن قيس^(١) قال: قد علمت الأنصار أنني مستهتر^(٢) بالنساء فلا تفتني بنات الأصفر، يعني: نساء الروم، ولكنني أعينك بهال فاتركني^(٣).
﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: إن الفتنة هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة

(١) الجد بن قيس بن صخر الأنصاري السلمي، كان ممن يغمص عليه النفاق، قيل: إنه مات في زمن عثمان. ينظر: الاستيعاب ج ١: ٢٥٠.

(٢) مستهتر به: مولع به لا يبالي ما قيل فيه. (الصحاح: مادة هتر)

(٣) أسباب النزول: ١٧٢.

التخلف.

﴿وَلِإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: بهم يوم القيامة، أو محيطة بهم الآن، لأن أسباب إحاطتها بهم معهم، فكأنهم في وسطها.

﴿إِنْ تُصِيبْكَ﴾ في بعض غزواتك ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: ظفر وغنم ونعمة من الله ﴿تَسُوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ شدة وبلية ونكبة، نحو ما كان يوم أحد ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ الذي نحن متسمون به من الحذر والعمل بالحزم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ما وقع هذا البلاء، وتولوا عن مقام التحدث بذلك والاجتماع له ﴿وَهُمْ فَرِحُوا﴾ مسرورون.

وقرأ عبد الله: هل يصيبنا. واللام في قوله: ﴿مَا كُنَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ للاختصاص، أي: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا﴾ اختصنا الله بإثباته وإيجابه من النصر أو الشهادة.

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ يتولانا ونتولاه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله تعالى فليفعلوا ما هو حقهم.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُوا بِنَا﴾ هل تتوقعون ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أي: إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى العواقب، وهما: النصر والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوأيتين من العواقب، وإنهما: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي: من السماء كما نزل على عاد وثمود ﴿أَوْ﴾ بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل على الكفر ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بنا ما ذكرنا من عواقبنا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ فلا بد أن يلقي كلنا ما يتربّصه لا يتجاوزاه.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّا كُنْتُمْ
 قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا
 أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ
 كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ
 أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ حال، أي: طائعين أو مكرهين، وهو أمر في معنى الخبر،
 والمعنى: ﴿لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ أنفقتم طوعاً أو كرهاً، ونحوه قوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ
 لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾^(١) وقول كثير:

أَسِئِّي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ^(٢)

أي: لن يغفر الله لهم أستغفرت لهم أو لم تستغفر لهم، ولا نلومك أسأت إلينا
 أو أحسنت، وإنما يجوز هذا إذا دلّ الكلام عليه، كما جاز عكسه في قولك: رحم
 الله زيدا وغفر له.

﴿إِنَّا كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل لرد إنفاقهم.

﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ فاعل (منع)، أي: لم يمنع المنافقين قبول نفقاتهم إلا
 كفرهم ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وقرئ: ﴿تُقْبَلُ﴾ بالتاء والياء.

والإعجاب بالشيء أن تسرّ به سرور راض به متعجب من حسنه، والمعنى:
 فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا، فإن الله أعطاهم ذلك للعذاب، بأن عرضه

(١) التوبة: ٨٠.

(٢) ديوان كثير: ١٠١.

للغنائم والسبي وبلاهم فيه بالآفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير ﴿وَهُمْ كَذِرْهُونَ﴾ على رغم أنوفهم، وأذاقهم أنواع الكلف في جمع الأموال وتربية الأولاد.

وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ مثل قوله: ﴿إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾^(١) ومعناه: الاستدراج بالنعم، أي: و﴿يُرِيدُ﴾ أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ مشغولون بالتمتع عن النظر للعاقبة.

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْدُوثُ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَا إِلَیْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ لَمِنْكُمْ﴾ أي: من جملة المسلمين.

﴿يَفْرُقُونَ﴾ يخافون القتل والأسر فيتظاهرون بالإسلام تقية.

﴿لَوْ يَحْدُوثُ﴾ مكاناً يلجؤون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة ﴿أَوْ مَغْرَبًا﴾ أي: غيراناً ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ وهو: مفتعل من الدخول، وأصله: مدتحلاً، يبدل التاء بعد الدال دالاً. وقرئ: مَدْخَلًا، أي: موضع دخول يأوون إليه ونفقاً ينجحرون فيه.

﴿لَوْلَا إِلَیْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء، من الفرس.

الجموح.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيبك ﴿فِي﴾ قسمة ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ ويطعن عليك، ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين، و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة، أي: فإن لم يعطوا منها فاجؤوا السخط.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا﴾ جواب (لو) محذوف، تقديره: ولو أنهم رضوا ﴿مَا﴾ أعطاهم ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الغنيمة والصدقة وطابت به نفوسهم ﴿وَقَالُوا﴾ مع ذلك: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ سيعطينا ﴿اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإنعامه ﴿وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ﴾ في أن يوسع علينا من فضله لراغبون لكان خيراً لهم.

إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ
فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ
فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿إِنَّمَا﴾ لقصر الصدقات على هذه الأصناف الثمانية، وأنها مختصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها، ونحوه: إنما السخاء لحاتم، أي: ليس لغيره، ويحتمل أن تصرف إلى بعضها. وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة أنهم قالوا: (في أي صنف منها وضعتها أجزأك)^(١)، وهو مذهبنا^(٢).

والفقراء: هم المتعففون الذين لا يسألون، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ الذين يسألون، وقيل بالعكس^(٣)، والأول أصح. وقيل: الفقير: الذي لا شيء له، والمسكين: الذي

(١) ينظر: الدر المنثور ج ٣: ٢٥٠.

(٢) ينظر: الوسائل ج ٦: باب ٢٨ من ابواب المستحقين للزكاة.

(٣) عن الصادق عليه السلام. تفسير العياشي ج ٢: ٩٠، ورواه ابو هريرة مرفوعاً. الكشف والبيان ج ٥: ٥٧.

له بلغة من العيش لا تكفيه^(١)، وقيل بالعكس^(٢).

والعاملون عليها: هم السعاة الذين يقبضونها.

﴿وَالْمُؤَلَّفَةُ فُلُوبُهُمْ﴾ أشرف من العرب كان رسول الله ﷺ يتألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان في المسلمين قلة.

و﴿الرِّقَابِ﴾ المكاتبون يعاونون منها في فك رقابهم من الرق، والعبيد إذا كانوا في شدة يشتررون ويعتقون ويكون ولاؤهم لأرباب الزكاة.

﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ وهم الذين ركبتهم الديون في غير معصية ولا إسراف.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو الجهاد وجميع مصالح المسلمين.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع به عن ماله فهو فقير حيث هو، غني

حيث ماله.

﴿فَرِيضَةً﴾ في معنى المصدر المؤكد، لأن قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾

معناه: فرض الله الصدقات لهم، وإنما عدل عن (اللام) إلى (في) في الأربعة الأخيرة، ليدل على أنهم أحق بأن توضع فيهم الصدقات من سبق ذكره، لأن (في) للوعاء.

وإنما وقعت الآية في أثناء ذكر المنافقين، لتدلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة، على أن أهل النفاق ليسوا من مستحقيها، وأثم بعداء من مصارفها، فما لهم وللتكلم فيها ولمن قاسمها؟!.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) الاقتصاد: ٢٨٢.

(٢) (الصحيح: مادة فقر، سكن)

مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ
كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ
الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمي
بالعضو الذي هو آلة السماع، كأن جملته أذن سامعة كما سموا الربيثة^(١) بالعين.

﴿أُذُنٌ خَيْرٌ﴾ كقولك: رجل صدق، تريد الجودة والصلاح، كأنه سبحانه
قال: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن، أو يريد: هو أذن في الخير وفيما يجب سماعه،
وليس بأذن في غير ذلك، ويدل عليه قراءة حمزة: وَرَحْمَةً - بالجر - عطفاً عليه، أي:
هو أذن خير لكم ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله. ثم فسر كونه أذن خير بأنه
يصدق ﴿بِاللَّهِ﴾ ويقبل من ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدقهم فيما يخبرونه به، ولهذا عدى
الأول بالباء والثاني باللام، كما في قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾^(٢).

وهو ﴿رَحْمَةً﴾ لمن آمن ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: أظهر الإيمان أيها المنافقون، حيث
يسمع منكم ويقبل إيمانكم ولا يفضحكم مراعاة لما رأى الله سبحانه من المصلحة
في الإبقاء عليكم، فهو أذن - كما قلتم - إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء. فسلم لهم
قولهم فيه، إلا أنه فسر بما هو مدح له وإن كانوا قصدوا به المذمة، وأنه من أهل
سلامة القلب. وروي: أن جماعة ذمّوه وبلغه ذلك، فقال بعضهم: لا عليكم، فإنها

(١) الربيثة: الطليعة. (الصحيح: مادة ربأ)

(٢) يوسف: ١٧.

هو أذن سامعة، يسمع كلام المبلغ ونحن نأتيه فنعتذر إليه فيسمع عذرنا أيضاً^(١).
وقرى: أذن خير لكم، وهو خبر مبتدأ محذوف، وخير مثله، أي: هو أذن هو خير
لكم، يعني: إن كان كما تقولون فهو خير لكم، لأنه يقبل عذرکم ولا يكافئكم على
سوء دخلتكم.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِرِضْوَانِكُمْ﴾ الخطاب للمسلمين، وكان المنافقون
يتكلمون بالمطاعن، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويخلفون ليرضوا عنهم، ف قيل
لهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما تزعمون [فأحق من أرضيتهم] ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾
بالطاعة والموافقة، وإنما وحد الضمير^(٢) لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورسوله، فهما
في حكم مرضي واحد، أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

المحادة: مفاعلة من الحد، أي: المنع.

﴿فَأَن لَّهُ﴾ أي: فحق أن له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، ويجوز أن يكون ﴿فَأَن لَّهُ﴾
معطوفاً على ﴿أَنَّهُ﴾ على أن جواب (من) محذوف، والتقدير: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ
مَنْ يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يهلك ﴿فَأَن لَّهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا
فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾
وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ
أَبِاللَّهِ وَعَآيِنُهُ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذَرُوا
فَدَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ
طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

(١) أسباب النزول: ١٧٣.

(٢) ساقطة من ج.

كانوا يستهزئون بالإسلام وأهله، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿نُنَبِّئُهُمْ﴾ للمؤمنين، وفي ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ للمنافقين، وصح ذلك لأن المعنى يقود إليه، ويجوز أن يكون الضمير في الكل للمنافقين، لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم، والمعنى: أنها تذيب أسرارهم فكأنها تخبرهم بها، وقيل: معناه ليحذر ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ على الأمر.

﴿قُلِ اسْتَهِزُّوْا﴾ وعيد بلفظ الأمر ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ أي: مظهر ﴿مَّا تَحَدَّرُونَ﴾ إظهاره من نفاقكم. وكان النبي ﷺ يسير منصرفه من غزوة تبوك وبين يديه أربعة نفر يسيرون ويضحكون ويقولون: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات، فأخبره جبرئيل ﷺ بذلك، فقال لعمار: إن هؤلاء يستهزئون بي وبالقرآن ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا﴾ نتحدث بحديث الركب، فاتبعهم عمار وقال لهم: مم تضحكون؟ قالوا: كنا نتحدث بحديث الركب، فقال عمار: صدق الله ورسوله احترقتم أحرقكم الله، فأقبلوا إلى رسول الله يعتذرون، فنزلت الآيات^(١). وقيل: نزلت في اثني عشر رجلاً وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول الله ﷺ، وقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: إنما كنا نخوض ونلعب^(٢).

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فأنها لا تنفعكم بعد ظهور أسراركم ﴿فَدَكَّرْتُمْ﴾ [قد أظهرتم كفركم]^(٣) ﴿بَعْدَ﴾ إظهاركم الإيمان.

(١) ينظر: الكشف والبيان ج ٥: ٦٥.

(٢) تفسير العياشي ج ٢: ٩٥، وينظر: الكشف والبيان ج ٥: ٦٤.

(٣) ساقطة من ج.

﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ بإحداثهم الإيذان بعد النفاق ﴿نُعَذِّبَ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مصرّين على النفاق، أو إن نعف عن طائفة منكم لم يؤذوا رسول الله ﷺ ولم يستهزئوا به نعدّب طائفة بأنهم كانوا مؤذنين لرسول الله ﷺ مستهزئين. وقرئ: إِنْ يَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ يُعَذِّبُ طَائِفَةً - على البناء للفاعل - وهو الله عز وجل.

الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ
سُوءَ اللَّهِ فَتَسِيحُهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ
﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ
﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
أَمْوَالًا وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ
كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي
خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ
مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ﴾ جملة ﴿بَعْضٍ﴾ وبعضهم منضاف إلى بعض، وهو تكذيب لهم فيما حلفوا: ﴿إِنَّهُمْ لَمُنْكَمُ﴾، وتحقيق لقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾^(١).

ثم وصفهم بما يدلّ على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله: ﴿يَا مُرُوتَ﴾
 بِالْمُنْكَرِ ﴿وهو الكفر والمعاصي﴾ وَيَهْوُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴿من الإيمان﴾
 والطاعات ﴿وَيَقْضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ شحاً بالخيرات والصدقات والإنفاق في
 سبيل الله ﴿سُوءُ اللَّهِ﴾ أغفلوا ذكره ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم عن رحمته وفضله.
 ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في
 الكفر والانسلاخ عن كل خير.

﴿حَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقدراً لهم الخلود فيها ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ دلالة على عظم
 عذابها، وأنه لا شيء أبلغ منه، نعوذ بالله منها.

﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من خيره وأهانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ سوى
 الصلي بالنار، ودائم كعذاب النار، أو عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون منه،
 وهو ما يقاسونه من تعب النفاق وما يخافونه أبداً من الفضيحة.
 ومحلّ الكاف رفع تقديره: أنتم مثل ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، أو نصب تقديره:
 فعلتم مثل فعل ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وهو أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا
 وخاضوا، وقوله: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ﴾ تفسير لتشبيههم بهم، وتمثيل لفعلهم
 بفعلهم.

والخلاق: النصيب، وهو ما خلق للإنسان أي: قدر، كما قيل: له قسم
 ونصيب، لأنه قسم له ونصب أي: أثبت.

﴿وَحُضِّمُ﴾ أي: دخلتم في الباطل واللغو ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ كالفوج
 الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوا. وعن ابن عباس: (هؤلاء بنو إسرائيل
 شبّهنا بهم، والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضبّ

لدخلتموه^(١).

﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ مدائن قوم لوط أهلكها الله بالخسف وقلبها عليهم، من الإفك وهو القلب والصرف.

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما صحَّ منه أن يظلمهم، لأنَّه حكيم لا يجوز أن يفعل القبيح ويعاقب بغير جرم.

﴿وَلَكِن﴾ ظلموا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر فاستحقوا العقاب.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله: ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي: يلزم كل واحد منهم موالاته بعض ونصرته، وهم يد واحدة على من سواهم.

﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ السين تفيد وجود الرحمة لا محالة وتؤكد الوعد، ونحوه:

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١)، و﴿نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾^(٢).

﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء قادر عليه، فهو يقدر على الثواب والعقاب
﴿حَكِيمٌ﴾ واضع كل شيء موضعه.

﴿وَمَسْكَنَ طَيِّبَةً﴾ يطيب العيش فيها، بناها الله من اللؤلؤ والياقوت
الأحمر والزبرجد الأخضر.

و﴿عَدْنٍ﴾ علم بدليل قوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ
بِالْغَيْبِ﴾^(٣)، ويدل عليه ما رواه أبو الدرداء^(٤) عن النبي ﷺ: ((عدن: دار الله التي
لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون والصدّيقون
والشهداء، يقول الله عز وجل: طوبى لمن دخلك))^(٥)، وقيل: هي مدينة في الجنة^(٦).
﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: شيء من رضوان الله ﴿أَكْبَرُ﴾ من ذلك
كله، لأنّ رضاه سبب كل سعادة وموجب كل فوز، وبه ينال تعظيمه وكرامته،
والكرامة أكبر أصناف الثواب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما وعد الله أو إلى الرضوان، أي: ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً.

(١) مريم: ٩٦.

(٢) التوبة: ٦٦.

(٣) مريم: ٦١.

(٤) عويمر بن عامر، وقيل عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي الصحابي المشهور، شهد
الخنندق وما بعدها من المشاهد، قيل: توفي في زمن عثمان، وقيل: إنه مات بعد صفين. ينظر: الاستيعاب
ج ٣: ١٥.

(٥) تفسير الطبري ج ١٠: ١٢٤.

(٦) عن الضحاك. تفسير الطبري ج ١٠: ١٢٥.

﴿جَهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالحجة. الصادق عليه السلام: جاهد الكفار بالمنافقين. وقال: ((هل سمعتم أن رسول الله ﷺ قاتل منافقاً؟! إنما كان يتألفهم))^(١).

﴿وَأَعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تحابهم، وعن الحسن: (جهاد المنافقين إقامة الحدود عليهم)^(٢).

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا
بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

حلفوا ﴿بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ ما حكي عنهم ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام.

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وهموا بالفتك برسول الله ﷺ، وذلك عند مرجعه من تبوك، تواتق اثنا عشر رجلاً - وقيل: خمسة عشر - على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام ناقته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثمون، فقال: إليكم يا أعداء الله، وضرب وجوه رواحلهم حتى نحّاهم، فلما نزل رسول الله ﷺ قال لحذيفة: من عرفت منهم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً، فقال ﷺ: إنه فلان وفلان، حتى عدّهم كلهم، فقال

(١) مجمع البيان ج ٩ - ١٠: ٦٠.

(٢) تفسير الطبري ج ١٠: ١٢٦.

حذيفة: ألا تقتلهم يا رسول الله؟ فقال: أكره أن تقول العرب: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم^(١). وعن الباقر (عليه السلام): ((كان ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب))^(٢). ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أي: وما أنكروا وما عابوا ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ والمعنى: إنهم جعلوا موضع شكر النعمة كفرانها، وكان الواجب عليهم أن يقابلوها بالشكر.

وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتٰهُمْ مِّنْ فَضْلِهِۦ بَخِلُوْا بِهٖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيْ قُلُوْبِهِمْ اِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَہٗ بِمَا اَخْلَفُوْا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴿٧٧﴾ اَلَمْ يَعْلَمُوْا اَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَاَنَّ ٱللَّهَ عَلٰمُ الْغُیُوْبِ ﴿٧٨﴾

هو ثعلبة بن حاطب^(٣) قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا، فقال: ((يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه))، فقال: والذي بعثك بالحقّ لئن رزقني مالا لأعطين كل ذي حقّ حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، وبعث رسول الله ﷺ إليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل، فقال: وما هذه إلا أخت الجزية، فقال (عليه السلام): ((يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة))^(٤).

(١) ينظر: مغازي الواقدي ج ٣: ١٠٤٢ وما بعدها.

(٢) التبيان ج ٥: ٣٠٣.

(٣) ثعلبة بن حاطب بن عمرو الأنصاري مانع الصدقة، شهد بدرًا وأحداً، مات في زمن عمر، وقيل في زمن عثمان. ينظر: الاستيعاب ج ١: ٢٠٠.

(٤) أسباب النزول: ١٧٦.

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ عن الحسن: (أنّ الضمير للبخل)^(١)، أي: فأورثهم البخل
 ﴿نِفَاقًا﴾ متمكّنًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لأنّه كان سبباً فيه وداعياً إليه. والظاهر أنّ
 الضمير لله عزّ وجل، أي: فخذلهم حتى نافقوا وتمكّن النفاق في قلوبهم فلا
 ينفك عنها حتى يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من الصدق والصلاح،
 وبكونهم كاذبين، ومنه جعل خلف الموعد ثلث النفاق^(٢). وعن عليّ عليه السلام:
 ((سرهم ونجواهم: ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه، وما
 يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية))^(٣).

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي
 الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ
 سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ
 لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ في محلّ النصب أو الرفع على الذم، والمطّوع:
 المتبرع، وأصله: المتطوع، أي: يعيّن المتطوعين بالصدقة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
 ويطعنون عليهم ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ ويعيّن ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا﴾ طاقتهم
 فيتصدّقون بالقليل ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ ويستهزئون.
 ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هو مثل قوله: ﴿اللَّهُ يُسْتَهْزَأُ بِهِمْ﴾^(٤) في أنّه خبر غير دعاء.

(١) الكشاف ج ٢: ٢٩٣.

(٢) ينظر: من لا يحضره الفقيه ج ٤: ٣٦١، صحيح البخاري ج ١: ١٥.

(٣) لم أعر عليها رواية عنه عليه السلام وهي عين عبارة صاحب الكشاف فلاحظ.

(٤) البقرة: ١٥.

وقوله: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أمر في معنى الخبر، والمعنى: لن يغفر الله لهم
أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وفيه معنى الشرط. والسبعون جار في كلامهم
مجرى المثل للتكثير، قال عليّ عليه السلام:

لَأَصْبَحَنَّ الْعَاصِي وَابْنُ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي^(١)

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ
يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا نَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ
قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا
وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى
طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْهُمْ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ
تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ
الْخُلَافَةِ ﴿٨٣﴾

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين خلفهم النبي ﷺ ولم يخرجهم معه إلى تبوك،
لما استأذنه في التأخر فأذن لهم.

﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بقعودهم عن الغزو.

و﴿خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ﴾: خلفه، يقال: أقام خلاف الحي أي: بعدهم، وقيل:
هو بمعنى المخالفة، لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض. وانتصب بأنه مفعول له أو
حال، أي: قعدوا لمخالفة رسول الله ﷺ أو مخالفين له.

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ هو تعريض بالمؤمنين وبتحملهم
المشاق العظيمة لوجه الله في بذل أموالهم ونفوسهم ﴿وَقَالُوا﴾ لهم أو قال بعضهم

لبعض: لا تخرجوا إلى الغزو ﴿فِي﴾ هذا ﴿الْحَرِّ﴾.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ استجهال لهم، فإن من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بذلك التصوّن في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ معناه: فسيضحكون قليلاً ويكون ﴿كثيراً جزاءً﴾ إلا أنه أخرج على لفظ الأمر، للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره.

وإنما قال: ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ لأنّ منهم من تاب وندم على التخلف أو اعتذر بعذر صحيح.

﴿فَاسْتَعِذْ نَوْكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة بعد غزوة تبوك.

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هي الخرجة إلى غزوة تبوك.

﴿مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ مرّ تفسيره^(١).

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَانُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ
وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ
وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿مَاتَ﴾ صفة لـ ﴿أَحَدٍ﴾، وإنما قيل بلفظ الماضي والمعنى على الاستقبال على تقدير الكون والوجود، لأنّه كائن موجود لا محالة.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ تعليل للنهي. وكان ﷺ يصليّ عليهم ويجري عليهم أحكام المسلمين، وكان إذا صلى على ميّت وقف على قبره ساعة ويدعو له، فنهى عن الأمرين بسبب كفرهم بالله وموتهم على النفاق.

(١) ينظر: تفسير الآية ٤٦ من السورة.

وأعيد قوله: ﴿تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ لأنَّ تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده، لاسيما إذا تراخى ما بين النزولين، ويجوز أن يكون النزولان في فريقين من المنافقين.

وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ
أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾
رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَفْقَهُوْنَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

يجوز أن يراد السورة بتمامها وأن يراد بعضها، كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه.

﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾ هي (أن) المفسرة.

﴿أُولُوا الطَّوْلِ﴾ ذوو الفضل والسعة، من طال عليه طويلاً.

﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ الذين لهم عذر في التخلف.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ وهم النساء والصبيان والمرضى ﴿فَهُمْ

لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ ما في الجهاد من السعادة والفوز، وما في التخلف من الشقاوة.

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ﴾ إن تخلف هؤلاء فقد نهد إلى الغزو مع المؤمنين، ونحوه:

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ... الآية﴾^(١).

﴿الْحَيَرَاتُ﴾ الجنّة ونعيمها، وقيل: منافع الدارين^(١).

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩١﴾

﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ المقصرون، من عذر في الأمر: إذا توانى ولم يجد فيه، وحقيقته: أن يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له، أو: المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين، ويجوز في العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لاتباع الميم ولكن لم يثبت بهما قراءة؛ وهم: الذين يعتذرون بالباطل. وقرئ: الْمُعَذِّرُونَ - بالتخفيف - وهو الذي يجتهد في العذر ويبالغ فيه.

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في ادعائهم الإيثار، فلم يحيئوا ولم يعتذروا، وعن أبي عمرو بن العلاء: (كلا الفريقين كان مسيئاً، جاء فريق فعذروا وجنح آخرون فقعدوا)^(٢).

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الأعراب ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل في الدنيا وبالنار في الآخرة.

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى
الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَتَحمِلَهُمْ قُلْتُ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ
عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا

(١) الكشف ج ٢: ٣٠٠.

(٢) معالم التنزيل ج ٢: ٩٧.

يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

﴿الضُّعَفَاءُ﴾ الزمنى والهرمى، و﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ الفقراء، والنصح لله ورسوله: الإيثار والطاعة في السر والعلانية.

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المذدورين الناصحين ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ ومعنى لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم ولا طريق للعاتب عليهم.

﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ﴾ حال من الكاف في ﴿أَتَوَكَّ﴾، وقد مضى قبله، والمعنى: ولا على الذين إذا ما أتوك وأنت قائل: لا أجد ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيَتْهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾. و(من) للبيان، والجار والمجرور في محلّ نصب على التمييز، أي: تفيض دمعاً، وهو أبلغ من قولك: يفيض دمعها، لأنّ العين جعلت كأنّها كلها دمع فائض.

﴿أَلَا يَجِدُوا﴾ أي: لأن لا يجدوا، ومحلّه نصب لأنّه مفعول له وناصبه المفعول له الذي هو ﴿حَزَنًا﴾.

و﴿رَضُوا﴾ استئناف، كأنّه قيل: ما بالهم استأذنوا ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾؟ فقيل: رضوا بالدناءة والانتظام في جملة ﴿الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: إنّ السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله إيّاهم.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ

إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ رَجَسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ
لِرِضْوَانِهِمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ علة للنهي عن الاعتذار، لأنَّ غرض المعتذر أن يصدّق فيما يعتذر به، فإذا علم أنّه مكذّب فينبغي أن يترك الاعتذار. وقوله: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ علة لانتفاء تصديقهم، لأنَّ الله سبحانه إذا أعلم بأخبارهم وأحوالهم وأسرارهم لم يستقم تصديقهم في معاذيرهم.

﴿وَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ أتتوبون أم تثبتون على كفركم؟
﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ إليه وهو ﴿عَلِيمٌ﴾ كل غيب وشهادة وسرّ وعلن، فيجازيكم على حسب ذلك.

﴿لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لتصفحوا عن جرمهم ولا توبخوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فأعطوهم طلبتهم.

﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ تعليل لترك معاتبته، والمراد: أنّ العتاب لا ينجع فيهم ولا يصلحهم، (إنّما يعاتب الأديم ذو البشرة)^(١)، ويوبّخ المؤمن على الزلة ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة، وهؤلاء أرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم.

﴿لِرِضْوَانِهِمْ﴾ أي: غرضهم في الحلف طلب رضاكم لينفعهم ذلك في دنياهم، ولا ينفعهم رضاكم إذا كان الله ساعطاً عليهم.

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ
 يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
 وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ قُرِبَتْ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ
 الرَّسُولِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هِيَ قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾

﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضرة لقسوة
 قلوبهم وجفائهم، ونشوتهم في بعد من مشاهدة العلماء وسماع التنزيل ﴿وَأَجْدَرُ
 أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الشرائع والأحكام.
 ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بحال أهل الوبر والمدر ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يحكم به عليهم.
 ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسراناً، فلا ينفق إلا تقيّة من أهل الإسلام ورياء،
 لا لوجه الله ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ دوائر الزمان وحوادث الأيام، لتذهب غلبتكم عليه
 فيتخلص من إعطاء الصدقة.
 ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاء معترض، وقرئ: السوء - بالضم - وهو
 العذاب، و﴿السَّوْءِ﴾ بالفتح ذم للدائرة، كما يقال: رجل سوء، ونقيضه رجل
 صدق، قال:

وَكُنْتُ كَذِئْبِ السَّوْءِ لَمَّا رَأَيْ دِمَاءً بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدِّمِّ^(١)
 ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

﴿قُرْبَتٍ﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿يَتَّخِذُ﴾ والمعنى: أن ما ينفقه سبب لحصول القربات ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾، لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، كقوله: ((اللهم صل على آل أبي أوفى))^(١) لما أتاه أبو أوفى بصدقته. فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل: ﴿يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ﴾ قربات وصلوات.

﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ هذا شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقده من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه، على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتحققه، و﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ﴾ كذلك لما في السنين من تحقق الوعد، وقرئ: قربة - بضم الراء..

وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ هم الذين صلّوا إلى القبليتين، وقيل: الذين شهدوا بدرًا^(٢)، ومن الأنصار أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا اثني عشر رجلاً، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين رجلاً، والذين آمنوا حين قدم عليهم مصعب بن عمير فعلمهم القرآن. وقرئ: الأنصار - بالرفع - عطفاً على ﴿وَالسَّيِّئُونَ﴾.

وارتفع ﴿السَّيِّئُونَ﴾ بالابتداء وخبره ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾. وقرأ ابن كثير: من تحتها.

(١) صحيح البخاري ج ١: ٢٦١.

(٢) عن عطاء بن أبي رباح. معالم التنزيل ج ٢: ٩٨.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ
ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ
خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

ومن جملة من حول بلدتكم وهي المدينة ﴿مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ الذين يسكنون
البدو ﴿مُنْفِقُونَ﴾ وهم جهينة وأسلم وغفار وأشجع ومزينة، كانوا نازلين حول
المدينة.

﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ عطف على خبر المبتدأ الذي هو ﴿مِمَّنْ حَوْلَكُم﴾،
ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدر: ومن أهل المدينة قوم
﴿مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ﴾ على أن يكون ﴿مَرَدُّوا﴾ صفة موصوف محذوف كقوله:

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعِ الثَّنَائِيَا^(١)

أي: ابن رجل وضع أمره.

و﴿مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ﴾ تمهروا فيه، من قولهم: مرد فلان على عمله، ومرد
عليه: إذا درب به حتى لا ن عليه ومهر فيه، ودلّ على مهارتهم فيه بقوله: ﴿لَا
تَعْلَمُهُمْ﴾ أي: يخفون عليك مع فطنتك وصدق فراستك، لفرط تنوقهم في تحامي
ما يشكك في أمرهم، ثم قال: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله المطلع على
البواطن، لأنهم يبطنون الكفر في ضمايرهم ويظهرون لك الإيمان وظاهر الإخلاص
الذي لا تشك معه في أمرهم.

(١) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي. الأصمعيات: ٣، وبقيته: متى أضع العمامة تعرفوني.

﴿سَنَعِدُّهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ هما: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، وعذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في النار.

﴿وَأَخْرُونَ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، وهم ثلاثة نفر من الأنصار: أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن حزام، وثعلبة بن دبيعة.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ فيه دلالة على بطلان القول بالإحباط، لأنه لو كان أحد العاملين محبطاً لم يكن لقوله: ﴿خَلَطُوا﴾ معنى، لأنَّ الخلط يستعمل في الجمع مع امتزاج كخلط الماء واللبن، وبغير امتزاج كخلط الدنانير والدراهم. ﴿وَأَخَرَ﴾ أي: وعملاً آخر.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ صفة لـ ﴿صَدَقَةً﴾، والتاء فيه للخطاب أو للتأنيث، أي: ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ أنت ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ فيكون كلا الفعلين مسنداً إلى النبي ﷺ، أو ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ تلك الصدقة ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ أنت ﴿بِهَا﴾ أي: تنسبهم إلى الزكاة. والتزكية: مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الإنهاء والبركة في المال.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وترحم عليهم بالدعاء لهم بقبول صدقاتهم.

﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ إنَّ دعواتك يسكنون إليها وتطمئن قلوبهم بها.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع دعاءك لهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعلم ما يكون منهم.

وقرئ: ﴿صَلَوْتَكْ﴾ على التوحيد هنا وفي هود^(١).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ إذا صحّت ويقبل ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا صدرت عن خلوص النية. و﴿هُوَ﴾ للتخصيص والتأكيد، و﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ من شأنه قبول توبة التائبين.

﴿وَقُلْ﴾ هؤلاء التائبين: ﴿اعْمَلُوا﴾ فَإِنَّ ﴿عَمَلَكُمْ﴾ لا يخفى على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين، خيراً كان أو شراً. وروى أصحابنا: ((أَنَّ أَعْمَالَ الْأُمَّةِ تَعْرُضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ فَيَعْرِفُهَا، وَكَذَلِكَ تَعْرُضُ عَلَى الْأَئِمَّةِ الْقَائِمِينَ مَقَامَهُ وَهُمْ الْمَعْنِيُّونَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾))^(٢).

﴿وَسَارِدُونَ﴾ سترجعون ﴿إِلَى﴾ الله الذي يعلم السرّ والعلانية ﴿فَيُنْثَرُكُمْ﴾ بأعمالكم ويمجازيكم عليها.

وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قرئ: ﴿مُرْجُونَ﴾، ومرجؤون من أرجيته وأرجأته: إذا أخرته.

أي: ﴿وَأَخْرُوتَ﴾ من المتخلفين موقوف أمرهم: ﴿إِمَّا﴾ أن ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾ الله إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا، ﴿وَإِمَّا﴾ أن ﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا، وهم

(١) الآية: ٨٧.

(٢) ينظر: الكافي ج ١: ٢١٩، بصائر الدرجات: ٤٢٤.

ثلاثة: كعب بن مالك^(١) وهلال بن أمية^(٢) ومرارة بن الربيع^(٣). أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يكلموهم ففعلوا ذلك، ثم تاب الله عليهم بعد خمسين يوماً، وتصدق كعب بثلث ماله شكراً لله على توبته.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَإِِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ
إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ
أَبَداً لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ
فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾
أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ
مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا
رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

قرأ أهل المدينة والشام: الذين اتخذوا - بغير واو - وكذلك هو في مصاحفهم لأنها قصّة برأسها.

روي: أنّ بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قبا وصلى فيه رسول الله ﷺ حسدتهم أخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا: نبني مسجداً نصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد. فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا، وقالوا لرسول الله ﷺ وهو يتجهز

(١) كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري السلمي، أحد شعراء النبي ﷺ شهد العقبة، توفي سنة ٥٠ هـ. ينظر: الاستيعاب ج ٣: ٢٨٦.

(٢) هلال بن أمية بن عامر الأنصاري الواقفي، شهد بدرًا وما بعدها، عاش إلى زمن معاوية. ينظر: الإصابة ج ٣: ٦٠٦.

(٣) مرارة بن الربيع الأنصاري الأوسي، شهد بدرًا. ينظر: الإصابة ج ٣: ٣٩٦.

إلى تبوك: إِنَّا نَحِبُّ أَنْ تَأْتِنَا فَتَصِلِي لَنَا فِيهِ، فَقَالَ ﷺ: إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ. وَلَمَّا انْصَرَفَ مِنْ تَبُوكَ نَزَلَتْ، فَأَرْسَلَ مِنْ هَدَمَ الْمَسْجِدَ وَأَحْرَقَهُ، وَأَمَرَ أَنْ يَتَّخِذَ مَكَانَهُ كِنَاسَةً تَلْقَى فِيهَا الْجَيْفَ وَالْقِمَامَةَ^(١).

﴿ضَرَارًا﴾ مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قبا، معازة ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للنفاق ﴿وَتَقَرِّبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا يصلّون مجتمعين في مسجد قبا، فأرادوا أن يتفرّقوا عنه وتختلف كلمتهم.

﴿وَارِصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وإعداداً لأجل من حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الراهب، وكان قد ترهّب في الجاهلية ولبس المسوح، فلما قدم النبي ﷺ المدينة حسده وحزّب عليه الأحزاب، ثم هرب بعد فتح مكة وخرج إلى الروم وتنصّر، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة^(٢)، قتل يوم أحد وكان جنباً فغسلته الملائكة، وكان هؤلاء يتوقعون رجوع أبي عامر إليهم، وأعدّوا هذا المسجد له ليصلّي فيه ويظهر على رسول الله ﷺ.

يتعلّق ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بـ ﴿اتَّخَذُوا﴾ أي: اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف، أو يتعلّق بـ ﴿حَارَبَ﴾ أي: لأجل من حارب الله ورسوله من قبل أن يتخذوا المسجد.

﴿وَلِيَحْلِفْنَ﴾ يعني هؤلاء المنافقين: ما ﴿أَرَدْنَا إِلَّا﴾ الفعلة ﴿الْحُسْنَى﴾ أو الإرادة الحسنى وهي: الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين.

﴿لَا نَقْمُ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصلّ فيه أبداً، يقال: فلان يقوم بالليل أي:

(١) ينظر: سيرة ابن هشام ج ٤: ١٧٣.

(٢) حنظلة بن أبي عامر الانصاري الأوسي شهد أحداً وهو جنب واستشهد بها، فقال النبي ﷺ: إن صاحبكم تغسله الملائكة. ينظر: الإصابة ج ١: ٣٦١.

يصلي.

﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ هو مسجد قبا أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقبا، وقيل: هو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة^(١).

﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي: أولى بأن تصلي فيه.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ روي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لهم: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قد أثنى عليكم فماذا تفعلون في طهوركم؟ قالوا: نغسل أثر الغائط، فقال: أنزل الله فيكم: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾))^(٢) أي: المتطهرين، ومحبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه، ومحبة الله إليهم: أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

وقرئ: ﴿أُسِّسَ بُنْيَانُهُ﴾، وأسس بنيانه، وفي الشواذ: أُسِّسُ بُنْيَانِهِ - على الإضافة - وهو جمع أساس. والمعنى: أفمن أسس ببيان دينه ﴿عَلَى﴾ قاعدة محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنَ﴾ أسسه ﴿عَلَى﴾ قاعدة هي أضعف القواعد وأقلها بقاءً، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ في قلة الثبات.

والشفا: الشفير، وجرف الوادي: جانبه الذي ينحفر أصله بالماء وتجرفه السيول، والهار: الهائر الذي أشفى على السقوط والتهدم، ووزنه (فَعِلٌ) قصر عن هائر كخلف عن خالف، ونظيره: شاك وصات من شائك وصات، وألف ليست بألف فاعل، وأصله هَوِرٌ وشَوِكٌ وصَوِتٌ.

(١) عن زيد بن ثابت وغيره. تفسير الطبري ج ١١: ٢١.

(٢) التبيان ج ٥: ٣٤٦، تاريخ المدينة المنورة ج ١: ٤٧.

ولما جعل الجرف الهار مجازاً عن الباطل قيل: ﴿فَأَتَاهَا بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾. والمعنى: فهوى به الباطل في نار جهنم، فكأنّ المبطل أسس بنياناً على شفير جهنم فطاح به إلى قعرها.

﴿رِبَيةٌ﴾ أي: شكاً في الدين ونفاقاً. والمعنى: ﴿لَا يَزَالُ﴾ هدم ﴿بُنْيَانَهُمُ الَّذِي﴾ بنوه سبب شك ونفاق ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يضمحل أثره ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ﴾ أي: تنقطع ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ قطعاً وتنفق أجزاء، فحينئذ يسلمون عنه، والريبة باقية فيها مادامت سالمة. وقرئ: تقطع، بالتخفيف والتشديد. ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها بقتلهم أو في النار. وقرئ: إلى أن، وروي ذلك عن الصادق عليه السلام، وفي قراءة عبد الله: ولو قطعت قلوبهم. وقيل: معناه: إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً على تفریطهم.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ
لَّهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ
وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ
أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ
بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَبَدُونَ
الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْخَافِضُونَ
لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

عبّر سبحانه عن إثابتهم بالجنة على بذلهم ﴿أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ في سبيله: بالاشتراء، وجعل الثواب ثمناً وأعمالهم الحسنة مثمناً تمثيلاً، وروي: أنّه تاجرهم

فأعلى لهم الثمن^(١). وعن الصادق عليه السلام: ((ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها))^(٢). وعن الحسن: (أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها)^(٣). وروي: أنَّ الأنصار حين بايعوه على العقبة قال عبد الله بن رواحة^(٤): (اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، قال: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: لكم الجنة، قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل)^(٥).

﴿يُقْتَلُونَ﴾ فيه معنى الأمر، كقوله: ﴿تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (ثم قال) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ^(٦)، وقرئ: (فيقتلون ويقتلون) - على العكس..

﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد، يعني: أنَّ الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبتته ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ كما أثبتته في ﴿الْقُرْآنِ﴾. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أوفى بعهده من الله، لأنَّ الخلف قبيح لا يقدم عليه الكريم [من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم]^(٧)، فكيف بالكريم الغني الذي لا يجوز عليه فعل القبيح. ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا﴾ أي: فافرحوا بهذه المبايعة إذ بعتم فانياً بباقي وزائلاً بدائم.

(١) عن الحسن وغيره. تفسير الطبري ج ١١: ٢٧.

(٢) الكافي ج ١: ١٩ عن الكاظم عليه السلام، الكشف والبيان ج ٥: ٩٧.

(٣) الكشف ج ٢: ٣١٣.

(٤) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، الصحابي الجليل، كان أحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدرًا وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة، وكان أحد أمراء تلك الغزوة. ينظر: الإصابة ج ٢: ٣٠٦.

(٥) أسباب النزول: ١٨١.

(٦) الصف: ١١، ١٢.

(٧) ساقطة من أ.

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ﴾ والظفر ﴿الْعَظِيمُ﴾ ولا ترغب في الجهاد أحسن وأبلغ منه.

﴿التَّائِبُونَ﴾ رفع على المدح، أي: هم التائبون، يعني: المؤمنين المذكورين، ويدلّ عليه قراءة أبي وعبد الله والباقر والصادق عليهم السلام: التائبين - بالياء - إلى قوله: والحافظين نصباً على المدح، أو جرّاً على الصفة لـ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾. ويجوز أن يكون ﴿التَّائِبُونَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿الْعَكِيدُونَ﴾، وما بعده خبر بعد خبر، أي: التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال.

و﴿الْعَكِيدُونَ﴾ هم الذين أخلصوا في عبادة الله.

و﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون، شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم، وقيل: هم طلاب العلم يسيحون في الأرض يطلبونه من مظانه ^(١).

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ القائمون بأوامره، المجتنبون لنواهيه.

مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ
وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ
مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

عن الحسن: (إنّ المسلمين قالوا: ألا نستغفر لأبائنا الذين ماتوا في الجاهلية؟ فنزلت).

أي: لا ينبغي للنبي ولا مؤمن أن يدعو لكافر ويستغفر له، ولا يصحّ ذلك

في حكمة الله ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ قرابتهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ﴾ ماتوا على الشرك.

﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أي: وعدها إبراهيم أباه وهو قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾^(١)، ويدل عليه قراءة الحسن: وعدها أباه.

﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ﴾ من جهة الوحي ﴿أَنَّهُ﴾ لن يؤمن ويموت كافراً، وانقطع رجاءه عن إيمانه ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

والأوَّاه: فعَّال من أوه، وهو الذي يكثر التَّأوُّه والبكاء والدعاء، ويكثر ذكر الله عزَّ اسمه.

وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ
مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

أي: لا يؤاخذ ﴿اللَّهُ﴾ عباده الذين ﴿هَدَيْتَهُمْ﴾ للإسلام، ولا يسميهم ضلالاً ولا يخذلهم بارتكاب المحظورات إلا بعد أن ﴿يُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ حظرها عليهم، ويعلمهم أنها واجبة الاتقاء والاجتناب، فأما قبل البيان فلا سبيل عليهم. والمراد بـ ﴿مَا يَتَّقُونَ﴾: ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يعلم بالعقل من القبائح فغير موقوف على التوقيف.

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ

مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى
الْثَلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

إنما ذكر النبي ﷺ استفتاحاً باسمه ولأنه سبب توبتهم، وإلا فمن المعلوم أنه لم يكن منه ما أوجب التوبة، وروي عن الرضا عليه السلام أنه قرأ: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ بِالنَّبِيِّ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ. وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى الاستغفار والتوبة.

﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ في وقتها، وقد تستعمل الساعة في معنى الزمان المطلق كما يستعمل الغداة والعشية واليوم، نحو قوله:

عَشِيَّةَ قَارَعْنَا جُدَامَ وَحْمِيرًا^(١)

غَدَاةَ طَفَّتْ عَلَمَاءُ بَكْرُبْنُ وَائِلٍ^(٢)

أي: على الماء.

و﴿الْعُسْرَةُ﴾: حالهم في غزوة تبوك، كان يعتقب العشرة على بعير واحد، وكان زادهم الشعير المسوس والتمر المدود والإهالة السنخة^(٣)، وبلغت الشدة بهم

(١) البيت لزفر بن الحارث الكلابي. شرح ديوان الحماسة ج ١: ٧٩، وفيه: وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ليالي لاقينا...

(٢) البيت لقطري بن الفجاءة. شرح ديوان الحماسة ج ١: ٥، وبقيته: وعجنا صدور الخيل نحو تميم.

(٣) الإهالة السنخة: دسم اللحم الفاسد. (الصحاح: مادة سنخ)

أن اقتسم التمرة اثنان، وربّما مصّها الجماعة ليشربوا عليها الماء، وكانوا في حمارة القيظ^(١) وفي الضيقة الشديدة من القحط وقلة الماء كاد تزيغ قلوب فريق منهم عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول ﷺ في تلك الغزوة. وفي ﴿كَادَ﴾ ضمير الأمر والشأن، وشبّهه سيئويه بقولهم: ليس خلق الله مثله^(٢). وقرئ: ﴿يَزِيغُ﴾ - بالياء -.. قيل: إنّ قوماً منهم همّوا بالانصراف من غزاتهم بغير استئذان، فعصمهم الله تعالى حتى مضوا ثمّ تاب عليهم من بعد ذلك الزيغ.

﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تداركهم برأفته ورحمته.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، خلّفوا عن قبول التوبة بعد قبول توبة من قبل توبتهم، وقيل: خلّفوا عن غزوة تبوك لما تخلّفوا. وقراءة أهل البيت  وأبي عبد الرحمن السلمي^(٣): خالفوا. ﴿بِمَا رَحَبْتَ﴾ أي: برحبها، والمعنى: مع سعتها، وهو مثل لحيرتهم في أمرهم، كأنهم لا يجدون في الأرض موضع قرار.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: قلوبهم من فرط الوحشة والغم ﴿وَوَظَنُوا﴾ وعلموا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِّنْ﴾ سخط ﴿اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [ثمّ رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا]^(٤) على توبتهم ويشبتوا، أو ليتوبوا أيضاً في المستقبل إن فرطت منهم خطيئة، علماً منهم بأنّ الله توّاب على من تاب ولو

(١) حمارة القيظ: شدة حره. (الصحيح: مادة حمر)

(٢) الكتاب ج ١: ٧٠.

(٣) عبد الله بن حبيب بن ربيعة أبو عبد الرحمن السلمي قارئ الكوفة، ولد في حياة النبي ﷺ، توفي سنة ٧٤ هـ على قول. ينظر غاية النهاية في طبقات القراء ج ١: ٤١٣.

(٤) ساقطة من ج.

عاد في اليوم سبعين مرة.

﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ الذين صدقوا في دين الله نية وقولاً وعملاً، وعن الباقر عليه السلام: ((كونوا مع آل محمد))^(١). وقرأ ابن عباس: من الصادقين، وروي أيضاً ذلك عن الصادق عليه السلام.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا
يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ
نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا
يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

ظاهره خبر ومعناه نهى، مثل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾^(٢).
﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أمروا بصحبة رسول الله ﷺ على البأساء
والضراء، وبأن يكابدوا معه الشدائد برغبة ونشاط.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما دلّ عليه قوله: ما كان لهم أن يتخلفوا، من وجوب
مشايعته، أي ﴿ذَلِكَ﴾ الوجوب بسبب ﴿أَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ شيء من عطش
ولا تعب ولا مجاعة في طريق الجهاد، ولا يضعون أقدامهم ولا يدوسون بحوافر
خيولهم وأخفاف رواحلهم موضعاً ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ وطوهم إياه، ولا

(١) تفسير القمي ج ١: ٣٠٧، الكشف والبيان ج ٥: ١٠٩.

(٢) الأحزاب: ٥٣.

يتصرفون في أرضهم تصرفاً يضيق صدورهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾
ولا يرزئونهم شيئاً بقتل أو أسر أو أمر يغممهم ﴿إِلَّا كُنِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾
واستوجبوا الثواب عند الله.

والموطئ: إما مصدر كالمورد وإما مكان. والنيل: يجوز أن يكون مصدراً
مؤكدًا وأن يكون بمعنى المنيل، وهو عام في كل ما يسوؤهم ويضرهم.
﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: أرضاً في ذهابهم ومجيئهم. والوادي: كل
منعرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسليل، وهو في الأصل فاعل من ودى: إذا
سال، ومنه الودي.

﴿إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ﴾ ذلك الإنفاق وقطع الوادي.

وتعلق ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ بـ ﴿كُنِبَ﴾ أي: أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء.

وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ
مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا
إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبِلُوا الَّذِينَ
يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَءَاعِلِمُوا أَنَّ
اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ
أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِيمَنًا قَالُمَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ ءِيمَنًا
وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿لِيَنْفِرُوا﴾ اللام لتأكيد النفي. والمعنى: أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب
الفقه والعلم غير صحيح ولا ممكن، وفيه: أنه لو صح وأمكن ولم يؤد إلى مفسدة
لوجب على الكافة، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم.

﴿لَوْلَا نَفَرَ﴾ فحين لم يمكن نفير الكافة فهلا نفر ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي: جماعة كثيرة ﴿طَائِفَةً﴾ أي: جماعة قليلة منهم ﴿لَيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه، ويتجشموا المشاق في تحصيلها ﴿وَلَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ وليجعلوا غرضهم بالتفقه إنذار قومهم وإرشادهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ عقاب الله ويطيعونه.

﴿فَلْيَلْزِمُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي: يقربون منكم، فإنَّ القتال واجب مع جميع الكفار، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب، ونظيره: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١). وقد حارب رسول الله ﷺ قومه ثمَّ غيرهم من العرب، وقيل: هم قريظة والنضير وفدك وخيبر^(٢). والأوَّلُ أصحَّ، لأنَّ السورة نزلت في سنة تسع، وقد فرغ النبي من أولئك.

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: شدة وصبراً على جهادهم، ونحوه: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣).

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ﴾ فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيْمَنًا﴾ استهزاء باعتقاد المؤمنين زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي .

﴿فَزَادَتْهُمْ إِيْمَنًا﴾ أي: تصديقاً وقيناً وثلجاً لصدورهم. وقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفراً مضموماً إلى كفرهم، لأنهم بتجديد الوحي جدّدوا كفراً ونفاقاً فازداد كفرهم عنده واستحكم.

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) عن ابن عباس. معالم التنزيل ج ٢: ١١١.

(٣) التحريم: ٩.

أُولَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ
سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِنُكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ
انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

قريء: ﴿أُولَا يَرَوْنَ﴾ بالتاء أيضاً ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يبتلون ويمتحنون بالمرض
والقحط وغيرهما من البلايا ﴿ثُمَّ﴾ لا ينتهون و﴿لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم ﴿وَلَا
هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لا يعتبرون، أو يبتلون بالجهاد مع رسول الله ﷺ ويعاينون
أمره وما ينزل الله عليه من النصرة والتأييد، أو يفتنهم الشيطان فينقضون عهودهم
مع رسول الله ﷺ فيقتلهم وينكل بهم ثم لا ينزجرون.

﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: تغامزوا بعيونهم إنكاراً للوحي قائلين: ﴿هَلْ
يَرِنُكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين لنصرف فإننا لا نصبر على استماعه، أو ترامقوا
يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال.

﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ دعاء عليهم بالخذلان، أو بصرف
قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح بسبب ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا
يتدبرون حتى يفقهوا ويعلموا.

﴿مَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم، شديد
﴿عَلَيْهِ﴾ - لكونه بعضاً منكم - عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء

العاقبة والوقوع في العذاب.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ حتى لا يخرج أحد منكم عن الاستسعاد به
وبدينه الذي جاء به.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وقرئ: مِنْ
أَنْفُسِكُمْ أَي: من أشرفكم وأفضلكم، وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ وفاطمة عليها السلام.
﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك فاستعن بالله وفوض إليه، فإنه يكفيك أمرهم
وينصرك عليهم. وقيل: هي آخر آية نزلت من السماء^(١)، وهذه السورة آخر سورة
كاملة نزلت^(٢).

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (سألتَه عن سورة التوبة؟ فقال: تلك
الفاضحة، ما زال ينزل منهم ومنهم، حتى خشينا أن لا يبقى منا أحد إلا ذكر)^(٣).

(١) عن أبي بن كعب. تفسير الطبري ج ١١: ٥٧.

(٢) عن البراء. الدر المنثور ج ٣: ٢٠٨.

(٣) الدر المنثور ج ٣: ٢٠٨.

سورة يونس

مكية، وهي مائة وتسع آيات.

وفي حديث أبي: ((من قرأها أُعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدّق بيونس وكذب به، وبعدد من غرق مع فرعون))^(١)، وعن الصادق عليه السلام: ((من قرأها في كل شهرين لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين، وكان يوم القيامة من المقرّبين))^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ الْمُتَّبِعُونَ ﴿٢﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمّنته السورة من الآيات.

﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ اللوح المحفوظ، أو القرآن ذي الحكمة لاشتغاله عليها،

أو نطقه بها.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه، و﴿أَنَّ

(١) الكشف والبيان ج ٥: ١١٦.

(٢) ثواب الأعمال: ١٠٦.

﴿أَوْحَيْنَا﴾ اسم (كان)، و﴿عَجَبًا﴾ خبره. ومعنى اللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾: إنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، والذي تعجبوا منه: أن يوحى ﴿لِلنَّاسِ﴾ بشر يكون رجلاً من جنس رجالهم دون أن يكون عظيماً من عظمائهم. وهذا ليس بعجيب، لأن الله إنما يختار من يستقل بما اختير له من أعباء الرسالة.

﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾: (أن) هي المفسرة، لأن ﴿أَوْحَيْنَا﴾ فيه معنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وأصله: أنه أنذر الناس، على معنى: أن الشأن قولنا: أنذر الناس ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ أي: بأن لهم، فحذف الباء.

﴿قَدَمَ صَدَقٍ﴾ أي: سابقة وفضلاً ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ولما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً، كما سميت النعمة يداً وباعاً، لأنها تعطى باليد وصاحبها ييوع بها. وإضافته إلى ﴿صَدَقٍ﴾ دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الكتاب لسحر. وقرئ: ﴿لَسِحْرٌ﴾ فعلى هذه القراءة يكون ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى رسول الله ﷺ، وهو دليل عجزهم واعترافهم بذلك، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ
اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ يقضيه ويقدره ويرتبه في مراتبه على أحكام عواقبه، كما يفعل الناظر في أدبار الأمور، والأمر: أمر الخلق كله. وقد دلّ سبحانه بالجملة قبلها على عظمة ملكوته بخلق ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي﴾ وقت يسير مع بسطتها واتساعها، وبالاتواء ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾، ثم أتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة في أنه لا يخرج شيء من قضائه وتقديره، وكذا قوله: ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ دليل على العزة والكبرياء.

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة، أي: ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي يستحقّ العبادة منكم، وهو ﴿رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان فضلاً عن جماد لا يضرّ ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وأصله تتذكرون، يعني: أن أدنى تذكر ينبه على الخطأ فيما أنتم عليه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إليه رجوعكم جميعاً في العاقبة فاستعدوا للقاءه.

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، و﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه، وهو أنّ الغرض بابتداء الخلق وإعادته جزاء المكلفين على أعمالهم. وقرئ: أنه - بالفتح - بمعنى: لأنه، أو هو منصوب بالفعل الذي نصب ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ أي: وعد الله وعداً إبداءه الخلق ثمّ إعادته، والمعنى: إعادة الخلق بعد إبدائه.

﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، وهو متعلّق بـ(يُجْزِي) والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم، أو بقسطهم وعدلهم حين ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لأنّ الشريك

ظلم، ويؤيد هذا الوجه أنه يقابل قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ
لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا
بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

الياء في ﴿ضِيَاءً﴾ منقلبة عن واو ضواء لكسرة ما قبلها، والضياء أقوى
من النور.

﴿وَقَدَرَهُ﴾ أي: قدر القمر، ﴿مَنَازِلَ﴾ أي: ذا منازل، أو قدر مسيره منازل،
كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾^(١).

﴿وَالْحِسَابَ﴾ حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي، ﴿ذَلِكَ﴾
إشارة إلى المذكور، أي: ما خلقه ﴿إِلَّا﴾ ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي هو الحكمة البالغة
ولم يخلقه عبثاً.

وخصّ المتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم ذلك إلى التأمل والنظر.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ

فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا
سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

أي: لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء، ولا يخافون سوء لقائنا ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قنعوا بها من الآخرة، واختاروا القليل الفاني على الكثير الباقي ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وسكنوا إليها سكون من لا يزعج عنها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ ذاهبون عن تأملها، ذاهلون عن النظر فيها.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يوفقهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق الموصل إلى الثواب، ولذلك جعل قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ بياناً له وتفسيراً، لأن التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، أو ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ في الآخرة بنور إيمانهم إلى سبيل الجنة، نحو قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾^(١).

﴿دَعَوْنَهُمْ﴾ أي: دعاؤهم ﴿فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾. ومعناه: اللهم إنا نسبحك، كما ورد في دعاء القنوت: ((اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد))^(٢). ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة على معنى: أنه لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، وينطقون بذلك تلذذاً من غير كلفة.

﴿وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ﴾ وخاتمة دعائهم ﴿أَن﴾ يقولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ معناه: إن بعضهم يحيي بعضاً بالسلام، وقيل: هي تحية الملائكة إياهم^(٣)، فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول، وقيل: هي

(١) الحديد: ١٢.

(٢) (٢) المزار: ١٢١، مصنف ابن أبي شيبة ج ٢: ٢١٣.

(٣) عن الضحاك. تفسير السمرقندي ج ٢: ١٠٥.

تحية الله لهم^(١). و(أن) هي المخففة من الثقيلة، وأصله: أنه الحمد لله.

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ
إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُوتُ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ
قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى
ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

وضع ﴿وَنَحْيِيَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل له، والمراد قول من قال: ﴿فَأَمْطُرْ عَلَيْنَا حَبَّارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٢). والمعنى: ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ لأُميتوا وأهلكوا. وقرئ: لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ، وتنصره قراءة عبد الله: لقضينا إليهم أجلهم.

[﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ معناه: فلا نعجل لهم الشر ولا نقضي إليهم أجلهم]^(٣)، فنذرهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: فتمهلهم ونملي لهم إلزاماً للحجة عليهم.

وقوله: ﴿لِجَنبِهِ﴾ في موضع الحال أي: مضطجعاً، والمعنى: أنه لا يزال داعياً لا يفتر في الدعاء حتى يزول عنه ﴿الضُّرُّ﴾ فهو يدعو في حالاته كلها يستدفع البلاء. و﴿الْإِنْسَانَ﴾ للجنس.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ أي: أزلنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّةً﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل

(١) معاني القرآن وإعرابه ج ٣: ٨.

(٢) الأنفال: ٣٢.

(٣) ساقطة من ج.

أن يمسه الضرّ، أو مرّ عن موقف الدعاء والتضرّع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به.

﴿كَأَنَّ﴾ تخفيف (كأنّ) وحذف ضمير الشأن منه، قوله:

كَأَنَّ ظَنِيَّةً تَعْطُو إِلَى وَارِقِ السَّلَمِ^(١)

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التزيين ﴿زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ زين الشيطان بوسوسته

لهم ترك الدعاء عند الرخاء واتباع الشهوات والأمانى الباطلة.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ
﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿لَمَّا﴾ ظرف لـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، والواو في ﴿وَجَاءَتْهُمْ﴾ للحال، أي: ﴿وَجَاءَتْهُمْ﴾

بالتكذيب وقد جاءتهم ﴿رُسُلُهُمْ﴾ بالمعجزات والدلالات.

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: وما كانوا يؤمنون حقاً. والمعنى:

إنّ السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل، وعلم الله إصرارهم على الكفر، وأنّه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزمهم الحجّة بإرسال الرسل.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء يعني الإهلاك ﴿نَجْزِي﴾ المشركين في

المستقبل إذا لم يؤمنوا، وهو وعيد لأهل مكة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾ أي: استخلفناكم ﴿فِي الْأَرْضِ مِنْ﴾ بعد القرون

التي أهلكناها ﴿لِنَنْظُرَ﴾ أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب أعمالكم.

(١) البيت لعلاء بن أرقم الشكري. الأصمعيات: ١٥٧. وقيل لغيره، ينظر: خزنة الأدب ج ١٠:

و﴿كَيْفَ﴾ في محل نصب بـ﴿تَعْمَلُونَ﴾: إما حالاً وإما مصدراً. والنظر هنا مستعار بمعنى العلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجوداً، شبه بنظر الناظر وعيان المعاین في تحققه.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلُهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

أي: قالوا: ﴿أَنْتَ بِقُرْءَانٍ﴾ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذم عبادة الأوثان والوعيد لعبادها ﴿أَوْ بَدِّلُهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها، فأمر بأن يجيب عن التبديل لأنه داخل تحت مقدور الإنسان، فأما الإتيان بقرآن آخر فغير مقدور عليه للإنسان.

﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ ما ينبغي لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ من قبل نفسي، من غير أن يأمرني بذلك ربي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ لا آتي ولا أذر شيئاً من نحو ذلك إلا متبعاً لوحي الله، إن نسخت آية أو بدلت مكان أخرى تبعت ذلك، وليس إليّ تبديل ولا نسخ ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في التبديل والنسخ من عند نفسي ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: إن تلاوته ليست إلا بمشيئة

الله وإحداثه أمراً عجيباً خارقاً للعادة، وهو أن يخرج رجل أمي لم يتعلم ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه العلماء، فيقرأ عليكم كتاباً بهر بفصاحته كل كلام فصيح، مشحوناً بعلوم الأصول والفروع والإخبار بما كان ويكون لا يعلمها إلا الله، وقد نشأ فيكم لم تسمعوا منه حرفاً من ذلك منذ أربعين سنة.

﴿وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم به على لسان. وقرئ: ولأدراكم به على إثبات الإدراء، واللام لام الابتداء، والمعنى: لو شاء الله ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري، ولكنه خصني بهذه الكرامة.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمراً﴾ أي: فقد أقمت فيما بينكم ناشئاً وكهلاً فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه فتتهموني باختراعه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعلموا أنه ليس إلا من عند الله تبارك وتعالى.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا
لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

كان أهل الطائف يعبدون اللات، وأهل مكة العزى ومناة وهبل وإسافاً وناثلة، وكانوا يقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

﴿قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ﴾ أي: أخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو إخبار ﴿بِمَا﴾ ليس بمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له - وهو العالم بالذات المحيط بجميع المعلومات - لم يكن شيئاً، لأنَّ الشيء ما يصح أن يعلم وقد أخبرتم بما لا يدخل تحت الصحة.

وقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ تأكيد لنفيه، لأن ما لا يوجد فيهما فهو منتف معدوم.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (ما) موصولة أو مصدرية، أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم. وقرئ: تشركون - بالتاء..

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على ملة واحدة ودين واحد من غير أن يختلفوا بينهم، وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل، وقيل: بعد الطوفان^(١).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا﴾ اختلفوا ﴿فِيهِ﴾ ويميز المحق من المبطل، ولكن الحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار للتكليف وتلك للثواب والعقاب.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

أرادوا ﴿آيَةً﴾ من الآيات التي كانوا يقترحونها ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص به، والصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نزول ما اقترحتموه.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وتماديكم في جحود الآيات الباهرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، ومن جملتها القرآن المعجز الباقي على وجه الدهر.

(١) عن أبي روق. الكشف والبيان ج ٥: ١٢٥.

﴿إِذَا﴾ الأولى للشرط، والأخيرة جوابها، وهي ظرف مكان. والمكر: إخفاء المكيدة وطيتها، من الجارية الممكورة: المطوية الخلق.

و﴿مَسَّتْهُمْ﴾ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم، وهو أنه سبحانه سلط على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون، ثم لما رحمهم بالحيا صاروا يطعنون في آيات الله ويعادون رسوله ويكيدونه، فلذلك وصفهم بسرعة المكر حتى أتى بكلمة المفاجأة، فكأنه قال: فاجأوا وقوع المكر منهم وسارعوا إليه. ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ يدبر عقابكم ويوقعه بكم قبل أن تدبروا في إطفاء نور الإسلام.

﴿إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمَكُرُونَ﴾ إعلام بأن ما يظنونه خافياً غير خاف عند الله.

هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَئَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّاهُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قرئ: ينشركم، من النشر، ومثله: ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَتَشَرُّونَ﴾^(١). والمعنى: ﴿هُوَ الَّذِي﴾ يمكنكم من السير بما هيا لكم من أسباب السير ﴿فِي الْبَرِّ﴾ بخلق الدواب وتسخيرها لكم وفي ﴿الْبَحْرِ﴾ بإرسال الرياح التي تجري السفن في

الجهات المختلفة ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ خصّ الخطاب براكبي البحر، أي: إذا كنتم في السفن.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِمُ﴾ عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، أي: وجرت الفلك أي: السفن بالناس ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة يستطيعونها.

وجواب ﴿إِذَا﴾ قوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: شديدة الهبوب هائلة. ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من أمكنة الموج ﴿وَوُظِنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ وهو مثل في الهلاك، ﴿دَعَوْا اللَّهَ﴾ هو بدل من ﴿وَوُظِنُوا﴾ لأنّ دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك، وهو ملتبس به. والجملة الشرطية الواقعة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بما في حيزها غاية للتسيير، فكأنّه قال: هو الذي يسيّركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن للهلاك والدعاء بالإنجاء.

وقال: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لأنهم لا يدعون حيثئذ غيره معه ﴿لَئِنْ أَنْجَيْنَا﴾ على إرادة القول، أو لأنّ ﴿دَعَوْا﴾ من جملة القول.

﴿يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يفسدون فيها ويعيثون ممعنين في ذلك.

وقرئ: ﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بالنصب، والفرق بين القراءتين أنّك إذا رفعت كان المتاع خبر المبتدأ الذي هو ﴿بَغْيُكُمْ﴾، و﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ صلته كقوله: ﴿بَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾^(١). ومعناه: إنّما بغيتكم على أمثالكم، أي: بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها. وإذا نصبت فالخبر ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ والمعنى: إنّما

بغيتكم وبال على أنفسكم، و﴿مَتَّعَ﴾ مصدر مؤكد. وفي الحديث: ((لا تمكر ولا تعن ماكرًا، ولا تبغ ولا تعن باغيًا، ولا تنكث ولا تعن ناكثًا، وكان يتلوها))^(١). وروي: ((ثنتان يعجلهما الله في الدنيا: البغي، وعقوق الوالدين))^(٢).

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْزِلَ أَتْمُهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

شبه حال ﴿الدُّنْيَا﴾ في سرعة انقضائها بحال ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ في جفافه بعد خضرته ونضرتة.

﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً.

﴿إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ مثل الأرض بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها وتزيّنت بغيرها من أنواع الزين، وأصل (ازَّيَّنَتْ): تزيّنت.

﴿قَدِرُوا عَلَىهَا﴾ متمكنون منها محصلون لمنفعتها.

﴿أُنْزِلَ أَتْمُهَا أَمْرًا﴾ وهو ضرب زروعها ببعض العاهات والآفات بعد

(١) كتاب الزهد والرقائق: ٢٥٢.

(٢) التاريخ الكبير ج ١: ١٦٦.

أمنهم وإيقانهم أنه قد سلم ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: فجعلنا زرعها ﴿حَصِيدًا﴾ شبهاً بما يحصد من الزرع من قطعه واستئصاله ﴿كَأَنَّ لَمْ تَغْن﴾ [أي: كأن لم تغن]^(١) زرعها، فحذف المضاف، أي: لم ينبت، ولا بد من حذف المضاف - الذي هو الزرع - في هذه المواضع وإلا لم يستقم المعنى. وعن الحسن: كأن لم يغن - بالياء - على أن الضمير للمضاف المحذوف الذي هو الزرع.

والأمس: مثل في الوقت القريب، كأنه قيل: كأن لم يوجد من قبل.
﴿دَارِ السَّلَامِ﴾ الجنة، أضافها إلى اسمه. وقيل: السلام: السلامة^(٢)، لأن أهلها سالمون من كل مكروه، وقيل: لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم^(٣).
﴿وَيَهْدِي﴾ ويوفق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ وهم الذين لهم في المعلوم لطف يجدي عليهم.

و﴿الْحُسْنَى﴾: المثوبة الحسنى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وما يزيد على المثوبة وهي التفضل، ويدل عليه قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٤)، وعن علي عليه السلام: ((الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة))^(٥)، وعن ابن عباس: (الزيادة: عشر أمثالها)^(٦)، وعن مجاهد: (الزيادة: مغفرة من الله ورضوان)^(٧).

(١) ساقطة من ط.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ج ٣: ١٥.

(٣) عن الحسن. الكشف والبيان ج ٥: ١٢٨.

(٤) فاطر: ٣٠.

(٥) تفسير الطبري ج ١١: ٧٥.

(٦) تفسير الطبري ج ١١: ٧٦.

(٧) تفسير الطبري ج ١١: ٧٦.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ ولا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ ولا أثر هوان. والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار، كقوله: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾^(١)، و﴿تَرْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ﴾^(٢).

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾ إما أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، وإما أن يكون تقديره: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها. والمعنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بمثلها لا يزداد عليها. وهذا أوجه لأن في الأول عطفاً على عاملين، وفي هذا دليل على أن المراد بالزيادة الفضل.

﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه، أو ما لهم من جهة الله من يعصمهم كما يكون للمؤمنين.

﴿مُظْلِمًا﴾ حال من الليل، ومن قرأ: قِطْعًا - بالسكون - جعله صفة له.

﴿مَكَانَكُمْ﴾ إلزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم، و﴿أَنْتُمْ﴾

(١) عبس: ٤١.

(٢) المعارج: ٤٤.

تأكيد للضمير في ﴿مَكَانَكُمْ﴾، لآنه سدّ مسدّد إلزموا، ﴿وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ عطف عليه.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ففرّقنا بينهم وقطعنا الوصل التي كانت بينهم في الدنيا.

﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ إنّما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعتموهم.

﴿إِنْ كُنَّا﴾ هي المخففة من الثقلية، واللام هي الفارقة، وهم الملائكة والمسيح ومن عبده من دون الله من أولي العقل، وقيل: هم الأصنام ينطقها الله عزّ وجلّ بذلك مكان الشفاعة التي رجوها منهم^(١).

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك [المقام، أو في ذلك]^(٢) الوقت على الاستعارة ﴿تَبْلُوا﴾ أي: تختبر وتذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ من العمل فتعرف كيف هو، أنافع أم ضار؟ أو مقبول أو مردود؟، ومنه ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(٣).

وقرى: تملوا، أي: تتبع ما أسلفت، لأنّ عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار، أو تقرأ في صحيفتها ما قدّمت من خير أو شرّ.

﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ ربهم الصادق ربوبيته، أو الذي يتولى حسابهم العدل الذي لا يجور.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُفْتَرُونَ﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنّهم شركاء لله تعالى.

(١) عن مجاهد. تفسير الطبري ج ١١: ٧٩.

(٢) ساقطة من ج.

(٣) الطارق: ٩.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ
الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ
فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

أي: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ منهما جميعاً؟ لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ من يستطيع خلقها وتسويتها على الحد الذي هما عليه من الفطرة العجيبة؟ أو من يحميها ويحصنها من الآفات؟ ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كله؟ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عقابه في عبادة غيره. ﴿فَذَلِكُمُ﴾ إشارة إلى من هذه صفته وأفعاله ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته وإلهيته ثباتاً لا ريب فيه لمن نظر ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ لأنَّ الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تعدى الحق وقع في الضلال ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ عن الحق؟.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الحق ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: كما حق وثبت أنَّ الحق بعده الضلال، فكذلك حقت كلمة ربك ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾ تَمَرَدُوا في الكفر وخرجوا إلى الغاية القصوى فيه.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة، أي: حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله ذلك منهم، أو أراد بالكلمة: العذاب، و﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تعليل، بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنَّ تَوَفَّكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا
يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ
إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وضع سبحانه إعادة الخلق موضع ما يكون دافعه مكابراً لظهور برهانه، ثم قال لنبئهم: ﴿قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أمره أن ينوب عنهم في الجواب، إذ لا يدعهم لجاحهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق.

هذه للحق وإلى الحق لغتان، فجمع سبحانه بين اللغتين، ويقال: هدى بنفسه، بمعنى: اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى: اشترى، ومنه قراءة من قرأ: آمن لا يهدي. [وقرى: لا يهدي] ^(١) بفتح الهاء وبكسرهما، وبكسر الهاء والياء، وأصله: يهتدي، فأدغم وفتحت الهاء لحركة التاء، أو كسرت لالتقاء الساكنين، وكسرت الياء لاتباع ما بعدها. ومعناه: إن الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول، ومكّنهم من النظر في الأدلة ووقفهم [ووقفهم] ^(٢) على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتموهم لله أنداداً أحد ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ مثل هداية الله؟.

ثم قال: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ هذه الهداية ﴿أَحَقُّ﴾ بالاتباع أم الذي ﴿لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يهتدي بنفسه، أو لا يهدي غيره ﴿إِلَّا أَنْ﴾ يهديه الله، أو لا يهتدي إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً [مكلفاً] ^(٣) فيهديه؟! ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ

(١) ساقطة من ج.

(٢) ساقطة من أ، ج، وفي ط: وأعلمهم الشرائع.

(٣) ساقطة من أ، ط.

﴿تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل.

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في إقرارهم بالله ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ لأنه قول لا يسند إلى دليل
﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾ في معرفة الله ﴿لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو العلم ﴿شَيْئًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ
يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا
يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عِقَابُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ
بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

أي: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ افتراء ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ﴾ كان ﴿تَصْدِيقُ
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو ما تقدّمه من الكتب المنزلة، لأنه معجز دونها، وهو عيار
عليها وشاهد بصحتها.

ومعنى ﴿وَمَا كَانَ... أَنْ يُفْتَرَى﴾: وما صحّ وما استقام وكان محالاً أن يكون
مثله في إعجازه وعلو شأنه مفترى.

﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ﴾ وتبيين ما شرع وفرض من الأحكام، من قوله: ﴿كِتَابَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾^(١).

﴿وَلَكِنْ﴾ كان القرآن تصديقاً للكتب السماوية وتفصيلاً للأحكام

الشرعية، منتفياً عنه الريب كائناً ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل يقولون: اختلقه؟! والهمزة: إما تقرير لإلزام الحجة عليهم، أو استبعاد لقولهم وإنكار، والمعنيان متقاربان.

﴿قُلْ﴾ إن افتريته كما زعمتم ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم ﴿سُورَةَ﴾ مفتراة ﴿مِثْلِهِ﴾ في البلاغة وحسن النظم، كما أنتم مثلي في العربية والفصاحة ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ للاستعانة به على الإتيان بمثله ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: إن الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله، لا يقدر على ذلك أحد غيره، فاستعينوا بكل من دونه على ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه افتراء.

﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ بالقرآن قبل أن يعلموا كنه أمره، ويقفوا على ﴿تَأْوِيلِهِ﴾ ومعانيه، لنفورهم عما يخالف ما ألفوه من دين آبائهم. وقيل: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب - أي عاقبته - حتى تبين لهم أنه كذب أم صدق، يعني: إنه كتاب معجز من جهتين: إعجاز نظمها، وما فيه من الإخبار بالغائبات، فسارعوا إلى التكذيب قبل أن ينظروا في بلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يجتبروا إخباره بالمغيبات.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ في نفسه ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا﴾ يصدق ﴿بِهِ﴾، أو ومنهم من سيؤمن به في المستقبل، ومنهم من يصر على الكفر ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين، أو المصيرين.

وَأِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ
وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ
الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ

تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

﴿وَأِنْ﴾ يئست من إجابتهم وأصروا على تكذيبك فتبرأ منهم وخلهم، فقد أعذرت إليهم، ومثله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ﴾^(٢)، وقيل: هي منسوخة بآية القتال^(٣).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [أي: ناس يستمعون إليك]^(٤) إذا قرأت القرآن وعلمت الأحكام، ولكنهم لا يقبلون ولا يعون؛ وناس ينظرون إليك ويعاينون دلائلك وأعلام نبوتك، ولكنهم لا يصدقون.

ثم قال: أتقدر على إسماع ﴿الْصَّمَّ﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم العقل؟! لأن الأصم العاقل ربما استدللّ وعلم، وأتطمع أن تقدر على هداية ﴿الْأَعْمَى﴾ ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة؟! يعني: إنهم في اليأس من قبولهم وتصديقهم كالصم والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم، أو لا يظلمهم في تعذيبهم يوم القيامة، بل العذاب لاحق بهم على سبيل العدل والاستحقاق.

(١) الشعراء: ٢١٦.

(٢) سورة الجحد.

(٣) الناسخ والمنسوخ: ١٣١.

(٤) ساقطة من ج.

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ
خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ
الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نُؤْفِقُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

يستقربون أيام لبثهم في الدنيا لقلّة انتفاعهم بها، وقيل: في القبور لهول ما
يرون^(١).

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً، وذلك
عند خروجهم من القبور، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم.
وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ حال من (هم) أي: نحشرهم مشابة أحوالهم
أحوال من لم يلبث ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾، و﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ جملة مبيّنة لقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا
سَاعَةً﴾، لأنّ التعارف لا يبقى مع طول العهد ويصير تناكراً، أو يتعلّق بالظرف.
﴿قَدْ خَسِرَ﴾ على إرادة القول، أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هو
شهادة من الله على خسرائهم. والمعنى: قد خسروا في تجارتهم وبيعهم الإيمان
بالكفر.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ للتجارة عارفين بها، وهو استئناف فيه معنى التعجب،
كأنه قال: ما أخسرهم!.

﴿فَالِئِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب [﴿نُؤْفِقُكَ﴾، وجواب^(٢)] ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف

(١) معاني القرآن وإعرابه ج ٣: ٢٢.

(٢) ساقطة من ج.

كأنه قال: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك، أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة.

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ ذكر الشهادة والمراد مقتضى الشهادة وهو العقاب، فكأنه قال: ثم الله معاقب ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ يبعث إليهم ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالمعجزات فكذبوه ﴿فُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين النبي ومن كذبه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، فأنجي الرسول وعذب المكذبون، وقيل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ يوم القيامة ﴿رَسُولٌ﴾ تنسب إليه ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ الموقف فيشهد عليهم بالكفر والإيان ﴿فُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾^(١).

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بُيْتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ ؕ ءَاكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ استعجال لما وعدوا من العذاب على سبيل التكذيب والاستبعاد.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا﴾ من فقر أو مرض ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ من غنى أو صحة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن فكيف أملك لكم الضرر.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ في عذابهم وحدّ محدود من الزمان ﴿إِذَا جَاءَ﴾ ذلك الوقت أنجز وعدكم فلا تستعجلوه.

﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا﴾ ظرف، أي: وقت بيات فيبيتكم وأنتم نائمون ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ أي: في وقت أنتم فيه مشغولون بطلب معاشكم، والبيات بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم.

﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: أي شيء يستعجلون من العذاب؟ وليس شيء منه يوجب الاستعجال، ويجوز أن يكون معناه التعجب، كأنه قال: أي هول شديد يستعجلون منه؟! وقيل: الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ لله تعالى، وتعلّق الاستفهام بـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾. والمعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون، وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه.

ويجوز أن يكون ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ جواباً للشرط، كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟، ثم تتعلّق الجملة بـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، وأن يكون ﴿أَتُمَرِّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ جواب الشرط، و﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ اعتراضاً. والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتكم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان به.

ودخول حرف الاستفهام على ثمّ كدخوله على الواو والفاء في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾^(١)، ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾^(٢).

﴿عَالَفَنَ﴾ على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: الآن آمنتكم به وقد كنتم تكذبون به؟ لأنّ استعجالهم كان للتكذيب.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عطف على (قيل) المضمر قبل ﴿عَالَفَنَ﴾.

(١) الأعراف: ٩٧.

(٢) الأعراف: ٩٨.

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

أي: ويستخبرونك فيقولون: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾، وهو استفهام على وجه الإنكار والاستهزاء.

﴿قُلْ إِي﴾ ومعناه: نعم في القسم، كما كان (هل) بمعنى (قد) في الاستفهام خاصة.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب، وهو لاحق بكم لا محالة. ﴿ظَلَمَتْ﴾ صفة ﴿نَفْسٍ﴾ أي: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ ظالمة ﴿مَا فِي﴾ الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها على كثرتها ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لجعلته فدية لها، يقال: فداه فافتدى.

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوا، عاينوا من تفاقم الأمر ما سلبهم قواهم فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراحاً سوى إسرار الندامة في القلوب، وقيل: أسر الرؤساء منهم الندامة من أتباعهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم^(١)، وقيل: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ أخلصوها، لأن سر الشيء خالصه، وقيل: معناه: أظهروها^(٢).

(١) معاني القرآن للفراء ج ١: ٤٦٩.

(٢) عن أبي عبيدة. معالم التنزيل ج ٢: ١١٩.

﴿وَفَضَّلَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الظالمين والمظلومين.

ثم ذكر سبحانه أنَّ له الملك كله، وأنَّه المتيب والمعاقب، وأنَّ ما وعده ﴿حَقٌّ﴾، وهو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليها غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أنَّ الأمر كذلك فيخاف ويرجى.

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي
الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
فِيدَلِّكَ فليَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا
أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَلِلَّهِ
أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ءِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِن
أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وتنبه على التوحيد
﴿وَشِفَاءٌ﴾ أي: دواء ﴿لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ من العقائد الفاسدة ﴿وَهُدًى﴾ أي: دلالة
تؤدي إلى الحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه.

الأصل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ فليفرحوا ﴿فِيدَلِّكَ فليَفْرَحُوا﴾، والتكرير
للتأكيد والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما
من فوائد الدنيا، وأحد الفعلين حذف لدلالة الآخر عليه، ودخلت الفاء لمعنى
الشرط، أي: إن فرحوا بشيء فليخصّوهما بالفرح فإنّه لا مفروح به أحقّ منهما.
وقرئ: فلتفرحوا - بالتاء - على الأصل والقياس. وقيل: فضل الله: الإسلام،
ورحمته: القرآن^(١). وعن الباقر (عليه السلام): ((فضل الله: رسول الله ﷺ، ورحمته: علي بن

(١) عن الحسن وغيره. تفسير الطبري ج ١١: ٨٧.

أبي طالب (عليه السلام) (١).

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني، و﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: ﴿مَا﴾ منصوب بـ﴿أَنْزَلَ﴾ أو بـ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ في معنى: أخبروني.

﴿فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي: أنزله الله رزقاً حلالاً كله، فجعلتم بعضه حلالاً وبعضه حراماً، كقولهم: ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ (٢).

﴿قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾: [﴿قُلْ﴾ تكرير، و﴿ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ تعلق بـ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، أي أخبروني: الله أذن لكم (٣) في التحريم والتحليل ﴿أَمْرٌ﴾ تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه؟ ويجوز أن تكون ﴿أَمْرٌ﴾ منقطعة، بمعنى: بل أتفترون على الله؟ تقريراً للافتراء. وكفى بهذه الآية زاجرة عن التجوز فيما يسأل عنه من أحكام الشرع، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقال: جائز وغير جائز إلا بعد الإيقان والإتقان، حتى لا يكون مفترياً على الله.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ وأي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه؟ وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بما فعل بهم من ضروب الإنعام ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ
إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ

(١) تفسير القمي ج ١: ٣١٣.

(٢) الأنعام: ١٣٨.

(٣) ساقطة من ج.

مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ
﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ
قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

﴿مَا﴾ نافية، والخطاب لرسول الله ﷺ، والشأن: الأمر، وهو من شأنت
شأنه، ومعناه: قصدت قصده، والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ للشأن، لأن تلاوة القرآن شأن
من معظم شأن رسول الله، أو للتنزيل. أي: ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ من التنزيل ﴿مِنْ قُرْءَانٍ﴾،
وهو إضمار قبل الذكر للتفخيم.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم جميعاً ﴿مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ شاهدين، به
عالمين.

﴿إِذْ تُفَيْضُونَ فِيهِ﴾ من أفاض في العمل: إذا اندفع فيه.
﴿وَمَا يَعْزِبُ﴾ قرئ بالضم والكسر، أي وما يغيب وما يبعد ﴿عَنْ﴾ علم
﴿رَبِّكَ﴾.

﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ في موضع رفع ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ قرئ
بالنصب والرفع، فالرفع على الابتداء ليكون كلاماً برأسه، والنصب على نفي
الجنس. فأما العطف على موضع ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ في الرفع، والعطف على لفظ
﴿مِثْقَالٍ﴾ في النصب، إذا جعلته فتحاً في موضع الجر؛ فليسا بالوجه، لأن قولك:
لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب لا وجه له.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهم الذين يتولونه

بالطاعة ويتولاهم بالحفظ والكرامة، وقد أبان عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾. وعن سعيد بن جبير، قال: سئل النبي ﷺ عن أولياء الله، فقال: ((هم الذين يُذكر الله برؤيتهم))^(١)، يعني: في السمات والهيئات، وقيل: هم المتحابون في الله^(٢).

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ نصب أو رفع على المدح أو الابتداء، والخبر: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾. والبشرى ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: ما بشر الله المتقين في غير موضع من كتابه. وعن النبي ﷺ: ((هي في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو ترى له، وفي الآخرة الجنة))^(٣). وعنه ﷺ: ((ذهبت النبوة وبقيت المبشرات))^(٤). وعن عطاء: (لهم البشرى عند الموت يأتيهم الملائكة بالرحمة)^(٥)، قال الله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا... الْآيَةَ﴾^(٦). وأما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة إيّاهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وغير ذلك من البشارات، نحو إعطاء الصحف بأيانهم، وما يرون من بياض وجوههم.

﴿لَا بُدَّ لِكَلِمَتِ اللَّهِ﴾ لا تغيير لأقواله، ولا إخلاف لمواعيده.
﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين، وكلتا الجملتين اعتراض.
﴿وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلَهُمْ﴾ تكذيبهم وتدبيرهم في إبطال أمرك وسائر ما

(١) تفسير الطبري ج ١١: ٩١.

(٢) عن أبي هريرة مرفوعاً. تفسير الطبري ج ١١: ٩٢.

(٣) صحيح مسلم ج ٢: ٤٨، الكافي ج ٨: ٩٠ باختصار.

(٤) سنن ابن ماجه ج ٢: ١٢٨٣، ح ٣٨٩٦.

(٥) الكشف والبيان ج ٥: ١٣٩.

(٦) فصلت: ٣٠.

يتكلمون به في شأنك.

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ استئناف فيه تعليل، كأنه قال: مالي لا أحزن؟ فأجيب:
﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: إن الغلبة والقهر جميعاً لله وفي ملكته، لا يملك أحد
شيئاً منهما، لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرك عليهم، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾^(١).
﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يعزمون عليه، فيكافئهم بذلك.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أُنْقُلُوا عَلَى اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ هم العقلاء المميزون من الملائكة
والإنس والجن، وإنما خصهم ليبين أنهم إذا كانوا عبيده وفي ملكته ولا يصلح أحد
منهم للإلهية، فما وراءهم مما لا يعقل ولا يميز أحق أن لا يكون شريكاً له.

ومعنى ﴿وَمَا﴾ يتبعون ﴿شُرَكَاءَ﴾: وما يتبعون حقيقة الشركاء، لأن
شركة الله في الإلهية محال ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا﴾ ظنهم أنهم شركاء ﴿وَلِنْ هُمْ إِلَّا

﴿يَحْضُونَ﴾ يقدِّرون تقديرًا باطلاً. ويجوز أن يكون ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ استفهاماً، أي: وأي شيء يتبعون؟ وعلى هذا فيكون ﴿شُرَكَاءَ﴾ نصباً بـ ﴿يَدْعُونَ﴾، وعلى الأول بـ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾، وكان حقّه: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء، فاقصر على أحدهما للدلالة. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ موصولة عطفاً على ﴿مَنْ﴾، بمعنى: والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم.

ثم نبّه على عظيم نعمته بأنّه جعل ﴿الَّيْلَ﴾ مظلاً ﴿وَالنَّهَارَ﴾ مضيئاً ﴿مُبْصِراً﴾ ليسكنوا في الليل، ويبصروا في النهار مطالب أرزاقهم.

﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد ﴿هُوَ الْعَنِيُّ﴾ علة لنفي الولد، لأنّ ما يطلب به الولد من يلد، وما يطلبه له، السبب في كله الحاجة، وإذا كانت عنه متفية كان الولد عنه متفياً.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو مستغن عن اتخاذ أحد منهم ولداً.

﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما عندكم من حجة ﴿بِهَذَا﴾ القول، ولما نفى عنهم الحجة جعلهم غير عالمين، فدلّ بذلك على أنّ كل قول ليس عليه برهان فهو جهل وليس بعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بإضافة الولد إليه.

﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: افترأواهم هذا متاع قليل ومنفعة يسيرة في الدنيا ﴿ثُمَّ﴾ يلقون الشقاء المؤبد بعده.

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ
مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ

وَشُرَكَاءَكُم تُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةٌ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا
تُنْظُرُونَ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ
إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾

﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: شقّ وثقل عليكم ﴿مَقَامِي﴾ مكاني، يعني: نفسه،
كما يقال: فعلت كذا لمكان فلان، ومنه: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾^(١) يعني: خاف
ربه، أو يريد: قياسي ومكثي بين أظهركم مدداً طويلاً، أو مقامي ﴿وَتَذَكِيرِي﴾
لأنهم كانوا إذا وعظوا قاموا على أرجلهم ليكون كلامهم مسموعاً.

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ من أجمع على الأمر وأجمع الأمر وأزمعه: إذا عزم عليه،
والواو بمعنى (مع) أي: فأجمعوا أمركم مع شركائكم واحتشدوا فيما تريدون
من إهلاكه، وابدلوا وسعكم فيه ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: ولا يكن
قصدكم إلى إهلاكه مستوراً عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهر وني به. والغمة:
السترة، من غمّه: إذا ستره، ومنه الحديث: ((لا غمة في فرائض الله))^(٢) أي: لا
تستر، ولكن يجاهر بها. ويجوز أن يكون المعنى: ثم أهلكوني لئلا يكون عيشكم
بسببي غمة، أي: غماً وهماً، والغمة والغم بمعنى كالكربة والكرب.

﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدّوا إليّ ما هو حقّ
عليكم عندهم، من إهلاكه كما يقضي الرجل غريمه ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني.
﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن نصيحتي وعن اتباع الحق.

(١) الرحمن: ٤٦.

(٢) كتاب الشفاج ١: ٧٦.

﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ ﴿فَمَا كَانَ عِنْدِي مَا يَنْفَرُكُمْ عَنِّي مِنْ طَمَعٍ فِي أَمْوَالِكُمْ، وَطَلَبَ أَجْرَ عَلَى مَوْعِظَتِكُمْ.﴾

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وهو الثواب الذي يشينني في الآخرة.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين لأمر الله، أو الذين لا يطلبون على تعليم الدين أجراً ولا يأخذون به دنيا، يريدون: أن ذلك مقتضى الإسلام. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: فتموا على تكذيبه، وكان تكذيبهم له في آخر المدة الطويلة كتكذيبهم في أولها.

﴿فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ﴾ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ خلفاء لمن هلك بالغرق.

﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ هذا تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمكذبي رسول الله ﷺ عن مثله.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتْلِيَانَا فَاستَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

أي: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ﴾ بعد نوح ﴿رَسُولًا﴾ يعني: هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً

وشعياً ﴿فَجَاءَهُمْ﴾ بالمعجزات والحجج المبيّنة لدعواهم.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً لتصميمهم على الكفر ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يريد: أنهم كانوا أهل جاهلية قبل بعثة الرسل، فلم يكن بين حالتهم فرق قبل البعثة وبعدها.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع ﴿نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ كأنّ الطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم، لأنّ الخذلان يتبعه، ألا ترى أنّه وصفهم بالاعتداء وأسنده إليهم.

﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الرسل.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبول الآيات بعد تبيّنها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كفاراً ذوي آثام عظام، فلذلك استكبروا عنها واجترأوا على ردها.

﴿فَلَمَّا﴾ عرفوا أنّه هو ﴿الْحَقُّ﴾ وأنّه ﴿مِنْ﴾ عند الله ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُّيِّنٌ﴾.

﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ أي: أتعيبونه وتطعنون فيه؟ ونحوه: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾^(١) [أي: يعيهم]^(٢).

﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ إنكار لما قالوه في عيبه والطعن عليه، ويجوز أن يكون مفعول ﴿أَتَقُولُونَ﴾ محذوفاً، وهو ما دلّ عليه قولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُّيِّنٌ﴾، ثم قال: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾.

﴿لِتَأْتِنَا﴾ لتصرفنا، واللفت والفتل مثلاًن، مطاوعهما: الالتفات والافتال.

(١) الأنبياء: ٦٠.

(٢) ساقطة من ج.

﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ يريدون عبادة الأصنام.

﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: الملك، لأن الملوك موصوفون بالكبر. وقرئ:

ويكون - بالياء ..

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ
مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ
بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾
وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا أَمَنَ
لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ
يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾: ﴿مَا﴾ موصولة، و﴿السَّحَرُ﴾ خبر المبتدأ، أي: الذي

جئتم به هو السحر، لا الذي سمّيته سحراً من المعجزات، وقرئ: السحر - على
[الاستفهام - وعلى هذه القراءة تكون ﴿مَا﴾ استفهامية، بمعنى: أي شيء جئتم به؟
أهو] ^(١) السحر؟.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ سيظهر بطلانه إنه ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا يشبهه

ولا يديمه، بل يدمر عليه.

﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ ويشبهه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بقضاياه ووعدده النصر.

﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى﴾ في أول أمره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: طائفة من

ذراري بني إسرائيل، كأنه قال: إلا أولاد من أولاد قومه، وذلك أنه دعا الآباء فلم
يحيبوه خوفاً ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾، وقيل: هم بنو إسرائيل، وكانوا ستمائة ألف ^(٢)، وكان

(١) ساقطة من ج.

(٢) عن ابن عباس. الكشف والبيان ج ٥: ١٤٣.

يعقوب دخل مصر منهم باثنين وسبعين، وإنَّما سَمَّاهم ذرية على وجه التصغير لقلتهم بالإضافة إلى قوم فرعون، وقيل: الضمير في ﴿قَوْمِهِ﴾ لفرعون، والذرية: مؤمن آل فرعون وآسية امرأته وخازنه وامرأة خازنه وماشطة امرأته^(١).

والضمير في ﴿وَمَلَايَنَهُمْ﴾ يرجع إلى فرعون، والمعنى: حزب آل فرعون كما يقال: ربيعة ومضر، ويجوز أن يرجع إلى الذرية، أي: على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل، لأنَّهم كانوا يمنعونهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم، ويدلُّ عليه قوله: ﴿أَن يَفْنِيَهُمْ﴾ أي: يعذبهم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ أي: قاهر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتو.

وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ
 ٨٤ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
 ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٨٦

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ أي: إليه أسندوا أموركم في العصمة من فرعون، ثم شرط في التوكل الإسلام، وهو أن يسلموا نفوسهم لله، أي: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا جرم قبل الله توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجَّاهم وأهلك أعداءهم، وجعلهم خلفاء في أرضه.

﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي: موضع فتنة لهم، أي: عذاب يعذبوننا أو يفتنوننا عن ديننا، أو فتنة لهم يفتنون بنا، يقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

(١) عن سعيد بن جبیر. تفسير الطبري ج ١١: ١٠٧.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ وَاسْتَعْبَادِهِمْ إِنَّا نَا.﴾

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾
 وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

تبوأ المكان: اتخذ مباءة، نحو توطنه: اتخذ وطنًا. والمعنى: اجعلوا **﴿بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾** من بيوته مباءة **﴿لِقَوْمِكُمَا﴾** ومرجعاً يرجعون إليه **﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ﴾** تلك **﴿قِبْلَةً﴾** أي: مساجد يذكر فيها اسم الله، وقيل: اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً^(١).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ داوموا على فعلها.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ خطاب لموسى، وقيل: لمحمد ﷺ^(٢).

والزينة: ما يتزين به من لباس أو حلي أو فراش أو غير ذلك.

﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ قيل: هو دعاء بلفظ الأمر كقوله: **﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ﴾** لما لم يبق له طمع في إيمانهم، اشتد غضبه عليهم فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، ليشهد عليهم أنهم لا يستحقون إلا الخذلان، وأن يخلي بينهم وبين ضلالهم.

(١) عن سعيد بن جبير. تفسير الطبري ج ١١: ١٠٧.

(٢) الكشف والبيان ج ٥: ١٤٤.

ومعنى الطمس على الأموال: تغييرها عن جهتها إلى جهة لا ينتفع بها، قيل: صارت جميع أموالهم حجارة^(١). والشّدّ على القلوب: عبارة عن الخذلان والطبع. ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ جواب للدعاء.

وقيل: إنّ (اللام) في ﴿لِيُضِلُّوا﴾ للتعليل على أنّهم جعلوا نعمة الله سبباً في الضلال فكأنّهم أعطوها ليضلوا، وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ عطف على ﴿لِيُضِلُّوا﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدَّدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، وكان موسى عليه السلام يدعو وهارون يؤمن فسأهما داعيين.

﴿فَأَسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة. الصادق عليه السلام: ((مكث فرعون بعد هذا الدعاء أربعين سنة))^(٢).

﴿وَلَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعنا طريق الجهلة ولا تعجلاً. وقرئ: ولا تتبعان. بالنون الخفيفة وكسرها. لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون الشّية.

وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾

أي: عبرنا بهم ﴿الْبَحْرَ﴾ حتى جاوزوه سالمين ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ لحقهم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ يقال: تبعته حتى أتبعته.

(١) عن قتادة وغيره. تفسير الطبري ج ١١: ١٠٩.

(٢) تفسير العياشي ج ٢: ١٢٧.

قري: ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح على حذف الباء، وإنه - بالكسر - على الاستئناف، بدلاً من ﴿ءَامَنْتُ﴾. كرر المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته وقاله في وقت الإلجاء، وكانت المرة الواحدة كافية وقت الاختيار وبقاء التكليف.

﴿ءَالْفَنَ﴾ أي: أتؤمن الساعة في وقت الاضطراب حين أدرك الغرق؟ ويحكى: أنه حين قال: آمنت، أخذ جبرئيل من رمل البحر فدسّه في فيه. ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الضالين المضلين عن الإيمان.

قري: ﴿نُنَجِّكَ﴾ بالتشديد والتخفيف، أي: نبعدك مما وقع فيه قومك، وقيل: نلقيك بنجوة من الأرض وهي المكان المرتفع^(١).

﴿بِدَنِكَ﴾ في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك وإنّا أنت بدن، أو ببدنك كاملاً سويّاً لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها.

﴿لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ لمن وراءك من الناس علامة، وهم بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أنّ فرعون أجلّ شأنًا من أن يغرق، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه، ومعنى كونه آية: أن يظهر للناس عبوديته ومهانتة، وأنّ ما كان يدعيه من الربوبية محال، وأن يكون عبرة يعتبر بها الأمم بعده فلا يجترئوا على ما اجترأ عليه.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ

(١) عن يونس بن حبيب النحوي. الدر المنثور ج ٣: ٣١٦.

يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

﴿مُبَوَّأٌ صَدَقَ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً وهو بيت المقدس والشام.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهي الأشياء اللذيذة.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في دينهم، وما تشعبوا فيه شعباً ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بدين
الحق ولزمهم الثبات عليه، وقيل: العلم بمحمد ﷺ ونعته^(١)، واختلافهم فيه: أنه
هو أم ليس به.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ أي: فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً ﴿فَسْأَلْ﴾ علماء
أهل الكتاب فإنهم محيطون علماً بصحة ما أنزل إليك، وعن الصادق عليه السلام: ((لم يشك
ولم يسأل))^(٢).

﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ثبت عندك بالآيات والبراهين أن ما
أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: فاثبت على ما أنت عليه من
انتفاء المرية والتكذيب بآيات الله عنك، وقيل: خوطب رسول الله والمراد أمته^(٣).

(١) الكشف والبيان ج ٥: ١٤٨.

(٢) تفسير القمي ج ١: ٣١٧.

(٣) معاني القرآن وإعراجه ج ٣: ٣٢.

والمعنى: فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾^(١)، وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك^(٢)، كقول العرب: (إذا عَزَّ أخوك فهن)^(٣). وقيل: (إن) للنفي^(٤)، أي: فما كنت في شك فاسأل. والمعنى: لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك ولكن لتزداد يقيناً، كما ازداد إبراهيم بمعاناة إحياء الموتى.

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً، فلا يكون غيره، وتلك كتابة علم لا كتابة إرادة، تعالى الله عن ذلك.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَנَفَعَهَا إِيْمَنْهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ
النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

فهلا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ واحدة من القرى التي أهلكتها تابت عن الكفر، و ﴿ءَامَنَتْ﴾ وقت بقاء التكليف قبل معاناة البأس، ولم تؤخر التوبة كما أخرها فرعون إلى أن أدركه الغرق ﴿فَنَفَعَهَا إِيْمَنْهَا﴾ بأن يقبله الله منها.

﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ﴾ استثناء من القرى، لأن المراد أهلها، وهو استثناء منقطع بمعنى: ولكن قوم يونس، ويجوز أن يكون متصلاً والجملة في معنى النفي، كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس. وكان قد بعث إلى نينوى من

(١) النساء: ١٧٤.

(٢) عن القتيبي. تفسير السمرقندي ج ٢: ١٣٢.

(٣) مجمع الأمثال ج ١: ٣٥.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ج ٣: ٣٣.

أرض الموصل، فكذبوه، فذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب، فلبسوا المسوح وعجّوا وبكوا، فصرف الله عنهم العذاب وكان قد نزل وقرب منهم^(١)، وعن الفضيل بن عياض^(٢): (إنهم قالوا: اللهم إنّ ذنوبنا قد عظمت وجلّت، وأنت أعظم منها وأجلّ، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله)^(٣).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ مشيئة الإلجاء ﴿لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾ على وجه الإحاطة والعموم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيثار، يدلّ عليه قوله: ﴿فَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ﴾. يعني: إنّما يقدر الله على إكراههم لا أنت، لأنّه هو يقدر أن يفعل في قلوبهم ما يضطرونّ عنده إلى الإيثار، وليس ذلك في مقدور القدر، ولا يستطيعه البشر.

وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ﴾ من النفوس التي علم الله أنّها تؤمن.

﴿أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بتسهيله وتوفيقه له وتمكينه منه ودعائه

(١) الكشف والبيان ج ٥: ١٥١.

(٢) أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، الزاهد المشهور، ولد بأبيورد ونشأ بها ثم انتقل إلى مكة وجاور بها إلى أن مات سنة ١٨٧ هـ. ينظر: وفيات الأعيان ج ٣: ٢١٥، معجم رجال الحديث ج ١٤: ٣٥٢.

(٣) الكشف ج ٢: ٣٧٢.

إليه.

﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قابل الإذن بالرجس وهو الخذلان، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرّون على الكفر، كقوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُميٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١). وسمّى الخذلان رجساً وهو العذاب لأنّه سببه.

﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من العبر والآيات.

﴿وَمَا تُعْطِي الْأَيِّتُ وَالنُّذُرُ﴾ الرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يتوقع إيمانهم، و﴿مَا﴾ نافية أو استفهامية.

و﴿أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وقائع الله فيهم، كما يقال: أيّام العرب، لوقائعها.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ عطف على كلام محذوف يدلّ عليه ما قبله، كأنّه قال: نهلك الأمم ثمّ ننجي رسلنا، على حكاية الأحوال الماضية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معهم، وكذلك ﴿نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين.

و﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراض، يعني: حقّ ذلك علينا حقّاً، وقرئ: نُنَجِّي - بالتشديد ..

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ
 فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا
 كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ
 بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ
 قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ
 وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا
 يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ﴾ صَحَّةِ ﴿دِينِي﴾ فهذا ديني، وهو: أَنِّي ﴿لَا أَعْبُدُ﴾
 الحجارة التي تعبدونها ﴿مِنْ دُونِ﴾ من هو ربكم وإلهكم ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي
 يَتَوَفَّاكُمْ﴾ فهو الحقيق بأن يخاف ويرجى ويعبد ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ﴾ المصدقين
 بالتوحيد.

﴿وَأَنْ أَقِمَّ﴾ والباء مراد فحذف، أي: بأن أكون وبأن أقم، فإن (أن) قد
 توصل بالأمر والنهي، وشبهه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل - على الخطاب - لأنَّ
 الغرض وصلها بما يكون معه في معنى المصدر، والأمر والنهي يدلان على المصدر
 كما يدلّ غيرهما من الأفعال.

﴿أَقِمَّ وَجْهَكَ﴾ استقم والتفت إليه فلا تلتفت يمينا ولا شمالاً.

و ﴿حَنِيفًا﴾ حال من ﴿الدِّينِ﴾ أو من الوجه.

﴿إِنْ فَعَلْتَ﴾ أي: فإن دعوت ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ فكنتي
 عنه بالفعل إيجازاً.

﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: ﴿إِذَا﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر، كأنَّ

سائلاً سأل عن تبعة عبادة غير الله، فأعلم أنّ الشرك من أعظم الظلم.

ثمّ عقب النهي عن عبادة ما لا ينفع ولا يضرّ بأنّ الله هو الضار والنافع الذي إن أصابك ﴿يُضِرُّ﴾ لم يقدر على كشفه ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن﴾ أرادك ﴿يُخَيِّرُ﴾ لم يردّ أحد ما يريد بك من فضله فهو الحقيق بأن يعبد دون الأوثان.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ﴾ فلم يبق لكم عذر، ولا لكم على الله حجة ﴿فَمَنْ﴾ اختار الهدى واتباع الحقّ لم ينفع إلا نفسه ﴿وَمَنْ﴾ اختار الضلال لم يضرّ إلا نفسه. واللام وعلى دليلان على معنى النفع والضرر.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكل إليّ أمركم وحملكم على ما أريد، إنّما أنا بشير ونذير.

﴿وَأَصْبِرْ﴾ على دعوتهم واحتمال أذاهم ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ لك بالنصر عليهم والغلبة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنّه لا يحكم إلا بالحقّ والعدل.

فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

٥	سورة المائدة
٨٦	سورة الأنعام
١٦٩	سورة الأعراف
٢٦٥	سورة الأنفال
٣٠٥	سورة التوبة
٣٧٣	سورة يونس
٤١٩	فهرس المحتويات

